

نيكوس كازانتزاكيس
الإخوة الأعداء
رواية
ترجمة: إسماعيل المهدوي
مكتبة
Telegram
Network
2020



https://t.me/kotokhatab


mohamed khatab

الإخوة الأعداء

نيكوس كازانتزاكيس

ترجمة: إسماعيل المهدوي

الفهرسة:

- المؤلف، نيكوس كازانتزاكيس
- العنوان : الإخوة الأعداء
- المترجم . إسماعيل المهدوي
- طبعة آفاق الأولى 2015
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

Nikos Kazantzakis :Author *

Title: Enemy Brothers *

Translated by: Ismaeil Al Mahdwy *

Afaq's First Edition: 2015 *

Cover Design by Amr El Kafrawy *

رقم الإيداع :

2015/13689

ISBN: الترقيم الدولي

5- 033 -977-765 - 987

_____ Afaq Bookshop & Publishing House _____

Mohamed Mazloum st. - intersected with Ilouda Shaarawy - CAIRO - EGYPT 4

Tel: +202-2392-6114 Fax: 00202-2392-5917

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

4 ش محمد مظلوم، تقاطع هدى شعراوي - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: 23926114 فاكس: 23925917

نيكوس كازانتزاكيس

الإخوة الأعداء

ترجمة: إسماعيل المهدوي

آفاق للنشر والتوزيع

مقدمة المترجم الراحل

إسماعيل المهدوي

للطبعة الأولى

نيكوس كازانتزاكيس[1]

ثائر اشتراكي.. متمرد وجودي.. مسيحي يرفض المسيحية

مسيحية الأساقفة ومسيحية الثوار

«المسيح لا يرضي حاجتي بالحالة التي جعلوه عليها.. بملابس الذهب والقصور التي يقيمون فيها الحفلات في المساء مع سادة هذه الدنيا. أنا أتحرق شوقًا إلى مسيح حافي القدمين، جائع مقهور. شبيه بهذا الذي لقيه الحواريون على طريق عمواس.. فرسالة المسيح قد هانت. وانمحت آثاره المقدسة من الأرض. نحن لا نتبع اليوم إلا آثار المنافقين ذوي اللحى. الآثار التي تركتها في الوحل حوافر الشيطان. لقد قلبوا كلمات المسيح فجعلوها: «طوبى للقساة بالروح لأن لهم ملكوت الأرض. طوبى للمتكبرين لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاشى إلى الظلم. طوبى لمن لا يرحمون. طوبى لمن لهم قلب دنس. طوبى لصانعي الحروب».. هؤلاء هم الذين يسمونهم اليوم مسيحيين».

هذه كلمات الراهب الشاب نيكوديم للقسيس العجوز الأب ياناروس. وهذه أيضا كلمات الأب ياناروس لذلك الرجل الشره ذي الكرش الكبير الوافد من دير جبل آتوس. أصبحت الرهبانية على أيدي هؤلاء تعني.. «النفاق والكسل والشراهة».

والقضية الأولى التي تحتل مركز الاهتمام في كل مؤلفات نيكوس كازانتزاكيس، هي أن الدين ورجال الدين في قصص كازانتزاكيس ينقسمون عادة إلى نوعين: ثوار فقراء يرفعون راية الثورة مع راية الدين، ومرتزقة يستخدمون الدين لتحقيق أطماعهم الشخصية يستخدمونه وسيلة لانتزاع فتات الخبز من أفواه الجوعى وحماية السلطان الظالم.

في روايته الكبرى «المسيح يصلب مرة أخرى»[2] كان هنا رجلان يقفان في كل أحداث الرواية وجهًا لوجه. مفهومان للدين. القسيس الفقير الثائر الأب فوتيس، والقسيس الثري المنافق الأب جريجوريس. الأول يقود ثورة المسيحيين المخلصين من أجل العدالة الاجتماعية وتوزيع الثروة على أهالي ليكوفريسي والمتمردين ضد الحكم العثماني، والثاني يقود أغنياء القرية ليحمي أملاكهم ويحمي سيطرة الأغا التركي. الأول جائع حافي القدمين شجاع، والثاني متخم البطن يرفل في الحرير، مخادع يفعل أي شيء لإرضاء الأغا، لا يتورع عن أن يصحب له عذراء شابة بطلبها غلامه المدلل.

ونيكوس كازانتزاكيس قضى في جبل آتوس المقدس سنوات طويلة من شبابه، وعاش مع الرهبان حياتهم الخاصة التي لا يعرفها الناس خارج الأديرة، ثم ثار عليهم، وفعل كما فعل الراهب نيكوديم في «الإخوة الأعداء» حين حطم وعاء الطعام وقلب كأس النبيذ وصاح في الرهبان:

«قفوا! أنتم جالسون هنا سواعدكم معقودة والعالم يجري نحو الضياع! قال الرب: ليس بخورًا أريد ولا صلوات ولا لحمًا.

افتحوا مخازنكم ووزعوا الخبز على الفقراء، وانتشروا في الأرض لتعلنوا كلمة المسيح: المحبة والعدالة والسلام!».

وليس أقدر على وصف الحياة في الأديرة من كاتب مفكر عاناها وشارك فيها، وخرج منها ليدعو إلى الاشتراكية.

في كل قصة من قصصه يحكي عن تلاعب الرهبان.

يحكي على لسان الأب ياناروس كيف شاهد جمجمتين اثنتين لقديس واحد. القديس كريكوس. يحكي عن حزام العذراء المقدس. الحزام المنسوج بخيوط من الذهب. وقد كانت العذراء فقيرة، وعاش ابنها طوال حياته فقيرًا.. فمن أين حصلت على حزام ثمين منسوج بخيوط الذهب؟

يحكي عن الرهبان الذين يجوبون القرى ليجمعوا الصدقات والهبات باسم الدين. يأخذون حفنة قمح أو بصلة أو تلفيعة من عجوز مذعورة باسم العذراء. وهل تأخذ العذراء؟ حاشا لله! بل العذراء تعطي ولا تأخذ. وإلا فلماذا سميت أم المسيحيين إذا كانت تقبل لقمة الخبز من أفواه الجوعى؟

ومع ذلك، فما أكثر الأبرار المخلصين داخل الأديرة. هؤلاء الذين طحنتهم قسوة الحياة، وخافوا أن تسحرهم مغرياتها، فسارعوا على الفرار. هناك في الصحراء عاش كل منهم كالدودة في الشرنقة. أحاط نفسه بأربعة جدران في غرفة صغيرة، لا يرى خارجها سوى قطعة من السماء.

هكذا عاش الأب آرسنيوس. ذلك الراهب الفنان. تفوح منه رائحة القداسة والصدق والطهارة. كان الأب ياناروس يقضي الليالي يبادله الحديث الحلو. ولا يكاد يتركه حتى ينكفئ الرجل على قطع الخشب ينحت فيها روحه. ينحت صور القديسين والملائكة وقصص الحياة الأخرى. أخذ منه الأب ياناروس لوحة الدينونة الأخيرة. يوم الحساب. وكان يتأملها في هذه القرية الموحشة التي عاش فيها بعد أن ترك الدير، فيتذكر آرسنيوس. وعندما يغلبه اليأس والشعور بالعجز، يتمنى لو عاد إلى هناك. إلى العزلة الجميلة. إلى جبل آتوس يصنع لنفسه شرنقة على جانب الأب آرسنيوس، لا يرى فيها سوى قطعة من السماء، ومن حين لآخر يتبادل معه الحديث الحلو عن أسرار الإيمان.

وفجأة ضاع هذا الأمل. جاءه الراهب نيكوديم يبلغه بما حدث للأب آرسنيوس. أصابه الجنون. هذا القديس الطاهر. ولكنه إنسان. وقلب الإنسان يمتلئ دائمًا بالشياطين والشهوات والنساء العاريات. كان الأب آرسنيوس يدفعها بالصلوات ويقيدها بخشية الله.

ولهذا لم يكن يحب أن ينام. الليالي الطويلة كان يقضيها منكفئًا على قطع الخشب خوفًا من الأحلام. وفي لحظة قصيرة، انزاح الغطاء قليلًا، فانتهزت الشياطين الحبيسة هذه الفرصة وقفزت

خارجة وبدأ الأب آرسنيوس ينحت صور النساء العاريات وقصص الشياطين. ثم بدأ يخرج عاريًا تحت أشجار البرتقال ويتمرغ على الأرض ويصرخ. وضربه الرهبان دون شفقة ليطردوا الأرواح الشريرة من جسمه. وتركوه جريحًا يموت في شرنقته.

لم تعد العزلة طريق الخلاص. أصبحت الدنيا هي الدير الوحيد للصالحين.

فالإنسان جسم وروح لا ينفصلان. والرهبانية لا تطرد الغواية، لكنها تعطيها صورًا ملتوية ملفوفة بالخداع. في أحشاء الراهب كما يقول الأب ياناروس تشتعل كل الأهواء سرًا ودون أمل.

فما أشقى هؤلاء الذين يعيشون في العزلة وقلوبهم تمتلئ بذكر الدنيا ومغرياتها.

هذا عصر رهيب. والجيل الحاضر أشقى أجيال الإنسان. يعيش بين شقي رحى. يعيش ثورة كبرى في الفكر والنظام الاجتماعي. وفي أيامنا هذه أصبحت الصلاة هي العمل، والتنسك أن تعيش مع الناس وتكافح مع الناس، والخلاص هو الكفاح من أجل خلاص البشر. وقد قرر الأب ياناروس أن يعمل للناس وأن يعيش ويكافح معهم في هذه القرية الموحشة كاستللوس.

وعندما وقعت الحرب الأهلية بين الشيوعيين والملكيين، قرر أن يقف ضد الحرب. أن يمنع المذبحة. كان يصيح: المحبة! المحبة! والجثث تتساقط حوله، والحقد يأكل القلوب، والرغبة في القتل تعيد الإنسان إلى جده الغابر: الغوريلا.

وكان الأب ياناروس في شبابه متصوفًا يمشي على اللهب ويمتحن إيمانه بالألم، يؤمن بوحدة الوجود. ويجعل الله اسمًا يطلقه على كل شيء. يريده هنا على الأرض لا بعيدًا في الأعالي، يشعر به في قلبه وبين ضلوعه. المسيح الرب يسكن أحشاءه. وكان يلجأ إليه في الشدائد ويبادله الحديث. يكلمه ويسمع صوته يرتفع من أعماقه.

وعندما جرت أنهار الدم وتمرغ أطفال القرية يبتلعون الوحل، صرخ: إني ذاهب أفضح العالم لله!

وهناك في الكنيسة أمام صورة المسيح أخذ يصيح:

يا يسوع! انظر إلى الأطفال المشوهين والأشلاء المبعثرة وأطلال الحياة! انزل من السماء! فها هنا نحتاج إليك في كاستللوس. اصنع معجزة يا يسوع!

لكن الصورة صماء، والسماء بكماء، والصياح لا يجد سوى رجع الصدى.

وعاد القسيس يصرخ:

أين تقف يا يسوع حتى أتبعك؟ هل تقف مع الجيش الملكي الذي يدافع عن الظلم لكنه يرفع راية الدين؟ أم تقف مع الشيوعيين الذين يدافعون عن العدالة لكنهم ينكرون الدين؟

وأخيرًا ارتفع من أعماق قلبه صوت يسوع هادئًا حلوًا:

تسألني أين أقف؟ أقف في السماء. في الأعالي. لقد خلقتك يا أب ياناروس حرًا، وعليك أنت أن تختار طريقك. لا تسألني النصيحة.

وقرر القسيس أن يمارس الحرية التي وهبه الله إياها. سمع كلمة الرب، فاختار طريقه. قرر أن يصعد إلى الجبل.

أين سيف المسيح؟

لكن المسيحي الذي يريد أن يستخرج الثورة من قلب المسيحية، يصطدم بعقبة كبرى، هي قصة صلب المسيح، قصة الاستسلام للأعداء من أجل إنقاذ البشر. قصة الخد الأيمن والخد الأيسر، والدعوة إلى «وداعة الحملان».

ويناقش نيكوس كازانتزاكيس هذا الموضوع الخطير أكثر من مرة. وفي رأيه أن الظلم لا ينزاح إلا بالسيف، وأن العين بالعين، وأن التسليم للأعداء يزيدهم عدوانًا.

في رواية «المسيح يصلب مرة أخرى»، كان الشاب الطاهر الشجاع مانوليوس يمثل دور المسيح. وكافح الشاب مع أهل ساراكينا من أجل حقهم في لقمة الخبز من أعيان القرية. ووقع الصدام. وحكم الأغا والأعيان بقتله، وقرر القسيس جريجوريس حرمانه وإهدار حياته. وخيل إلى مانوليوس البريء أنه يستطيع أن يفتدي الفقراء بدمه ليعيشوا مع بعده في أمان. وسلم نفسه. وفي داخل الكنيسة قتلوه وكان دمه لا يزال ساخنًا عندما انتشروا يبحثون على جماعة ساراكينا ليبيدوهم عن آخرهم.

وهز القسيس الثائر - الأب فوتيس - رأسه في أسى، ومد يده يربِّت بحنان على وجه مانوليوس، ويستخلص من موته حكمة الثورة والصراع الاجتماعي، يقول هامسًا:

«يا عزيزي المسكين مانوليوس. قدمت حياتك دون جدوى. ألقيت على نفسك تبعة كل الجرائم التي اتهمونا بها وكنت تصيح: أنا الذي سرقت. أنا الذي أحرقت. أنا الذي قتلت. عساهم يتركوننا نستقر في أمان على أراضينا.. لكن دون جدوى».

ويسمع الأب فوتيس جرس الكنيسة يعلن ميلاد المسيح، فيتنهد ويستأنف حديثه الهامس:

«وهذا أيضًا أيها الرب كان بدون جدوى. انقضى ما يقرب من ألفي عام ولا زالوا حتى يومنا هذا يصلبونك. فمتى تأتي أيها الرب إلى الدنيا فلا تصلب مرة أخرى بل تعيش معنا إلى الأبد؟».

وفي «الإخوة الأعداء» يخاطب الأب ياناروس المسيح قائلًا:

«إذا أردت أن تعود إلى الأرض، فلتعد أيها المسيح كالأسد الكريم لا كالحمل.. لقد قلت: أنا أحمل سيفًا. فأين هو؟ حتى متى تظل تصلب؟ تسلح واهبط إلى الأرض. لقد فهمت أخيرًا واجب الإنسان بعد كثير من الآلام والدماء. أيتها الفضيلة، تسلحي! أيها المسيح تسلح!.. العالم لم يعد يحتاج إلى الرب المصلوب، بل يحتاج إلى رب الجيوش. حسبك آلامًا ودموعًا وصلبًا. وانهض وأنزل إلى الدنيا كتائب الملائكة تحمل إلينا العدل. كفى ما أصابنا من تحقير وضرب بالسياط

ووضع أكاليل الشوك فوق الرؤوس وقتل على الصليب. جاءت الساعة لتقوم من الموت. نحن نريد الدينونة الأخيرة فورًا. ها هنا على الأرض. فانهش!».

لكن كازانتزاكيس لم يكن آخر من كتب في هذا الاتجاه. فقد ظهر تيار بين علماء اللاهوت المسيحي في أمريكا وبريطانيا يحاول أن يعيد دراسة الأصول التاريخية للمسيحية ليناقش هذه المسألة. وانتقلت هذه المناقشات من كتب اللاهوت إلى صفحات المجلات والصحف في العالم، خصوصًا في التايم والنيوزويك. ويدور هذا الاتجاه الجديد حول نقطتين أساسيتين هما: ألوهية المسيح، وقصة موته على الصليب. وفي رأي أصحاب هذا الاتجاه أن معظم الأخبار والنصوص الخاصة بهاتين النقطتين، أضيفت نتيجة التطرف في الإيمان والتأثر الشخصي دون سند تاريخي. وقد عثر علماء التاريخ المسيحي في إستنبول على مخطط يحوي ترجمة لأفكار فرقة مسيحية عاصرت المسيح وعاشت معه منذ كان يعيش في قرية الناصرة، وهي فرقة «أهل الناصر» التي اضطهدها بعض الحواريين فيما بعد وشتتوا أفرادها وطردوهم من فلسطين. ويقول المخطوط إن المسيح لم يكن ينسب على نفسه الألوهية، وإنه لم يقتل على الصليب، لكنه أوعز إلى تلميذه يهوذا بأن يرشد اليهود إلى رجل شبيه به، فقبضوا عليه وصلبوه بدلًا منه. ويروي علماء آخرون أن رجال المسيح رتبوا تسليمه بحيث يصلب يوم الجمعة كما تروي الأناجيل لأن تقاليد اليهود تمنع بقاء المصلوب على الصليب يوم السبت، وأنهم اتفقوا مع أحد الحراس على إعطائه مخدرًا مع الخل الذي يقدم في مثل هذه الحالات. وعندما أغمي عليه ظنوه ميتًا، فتقدم أحد تلاميذه وكان من أثرياء قرية الرامة واسمه يوسف، وطلب جسده - عليه السلام - فتركوه يحمله دون أن تقطع أطرافه كما اعتاد اليهود أن يفعلوا في ضحاياهم.

وسواء كانت هذه التفسيرات صحيحة أم غير صحيحة، فهي على كل حال تدل على اتجاه عدد من علماء اللاهوت المسيحي إلى رفض قصة الصلب دون أن يعني ذلك تخليهم عن المسيحية. وإذن فلم يكن كازانتزاكيس بدعًا في هذا الرأي، بل الحقيقة أنه لم يكن يستطيع أن يستخرج من تاريخ المسيحية أفكار الثورة والصراع دون أن يتعرض لهذه النقطة.

التشاؤم والأمل

وجد الأب ياناروس نفسه في خرائب مدينة كبيرة، يتصاعد الدخان من أطلالها، وتفوح في جوها رائحة الجيف النتنة تنهشها الكلاب والقطط الجائعة. ووقف الأب ياناروس في أحد مفارق الطرق يشعر كأنما أصيب بالجنون ويبحث عن أحد يسأله. ومن حين لآخر يمر رجل يترنح كالسكارى، جسمه جسم إنسان، لكن وجهه وجه مسخ مشوه. ممزق ملطخ بالطين يبرز من مكان فمه خرطوم يقطر دمًا. والأب ياناروس يقف كالمتسول مشلول الحركة يسأله: «أتوسل إليك يا سيدي العزيز. قل لي: هل أنا مجنون؟» ويجيبه الرجل ماضيًا لا يتوقف: «ماذا أقول لك يا سيدي العزيز؟ هل تستطيع أن تقول لي أنت عما إذا كنت أنا مجنونًا؟ أنا مثلك لا أعرف شيئًا.» ويهز خرطومه وينفجر ضاحكًا ويمضي. ويظل الأب ياناروس واقفًا في مفترق الطرق لا يريم.

هذا الحلم الذي رآه القسيس العجوز بعد عودته من الجبل يمثل عمق ما يعانيه المخلصون في هذا العالم من حيرة وقلق. اختلطت أوراق اللعب، كما قال الكابتن دراكوس. لم يعد أحد يعرف الحقيقة. لم يعد أحد يعرف الطريق.

كل فكرة لها قديسون وشهداء يموتون من أجلها.

وكل فكرة لها شياطين وأفاع يركبون ظهرها. فكيف السبيل إلى التمييز بين الخطأ والصواب؟

وفي هذا العصر الرهيب أصبح الأشرار سادة العالم، وأصبح الأبرار مستضعفين مقهورين، نزعت الفضيلة مخالبهم و أنيابهم ثم لم تعطهم سلاحًا يدفعون به الشر عن أنفسهم. وفي عصر التطاحن الاجتماعي، انقسم الناس إلى نوعين: ذئاب مفترسة وحملان مستسلمة. لم يظهر بعد ذلك الحيوان الذي يجمع بين القوة والوداعة. إما أن تقتل، أو أن يقتلوك.

وعندما يصل الإنسان إلى درجة القتل بدون كراهية، ينحدر إلى قاع الهوة. هكذا يفعلون في الحرب. أنت تقتل شخصًا لا تعرفه ولا تكرهه ولا تشعر نحوه بشيء. تقتله لسبب واحد فقط: لكي لا يقتلك هو.

إذ ذاك تنتفض الغوريلا الكامنة في أعماق الإنسان وتهز شعرها الأسود الكثيف ويغرق الإنسان في سعار الوحشية.

لا، فهو لم يصبح بعد إنسانًا. إنه لا يزال حلقة وسطى بين الغوريلا وذلك الكائن المتطور الراقي الذي سيجمع بين بطش الذئب ووداعة الحمل. إنسان المستقبل.

والشاب الصغير ليونيداس يصرخ:

«إذا كنت عادلًا يا يسوع، فيجب أن تعطي القوة لمن هم على حق لا لمن هم على باطل.».

لكن العالم يجري بلا قلب ولا عقل، تحكمه المصادفة التي لا ترحم. وقد حاول الأب ياناروس أن ينقذ القرية من الدمار، فضربوه بالرصاص.

هل الطريق مسدود إذن؟

هل سقط العالم نهائيًا في يد الشيطان؟

لا فالعجلة تسير. والتاريخ يقفز دائمًا من القديم إلى الجديد إنسان المستقبل لم يظهر بعد؟ لكن لا تتعجل يا أب ياناروس. فالشباب روح العالم. وفي انطلاقهم ينعقد الأمل. والشر لا ينتشر إلا على أيدي القادة. هؤلاء الذين يوزعون الغنائم والأفراد فيما بينهم، ثم يتصارعون ويتقاتلون ويجرون الأبرياء وراءهم.

وقدرة الإنسان غير محدودة. إنه يستطيع أن يجعل من قطعة قماش صغيرة، راية مقدسة. إنه يفرز القداسة على الأشياء. وعندما سأل خادم الدير عن حزام العذراء، قال له الرجل العجوز في بساطة: لا تبحث في هذه المسائل البعيدة يا أب ياناروس. فإذا لم يكن حقيقيًا، فالناس يجعلونه كذلك. المهم أن يؤمنوا بأنه حقيقي.

المشكلة هي أن يجد الإنسان مثلًا أعلى يجعله الهدف الأوحد لوجوده. وإذ ذاك تكتسب حياته معنى، ويتحول موته إلى خلود، وتصبح أعماله نبيلة: وليكن هذا المثل الأعلى باي اسم: الوطن. الرب. الحرية. العدالة. فالمهم أن نؤمن به وتعمل من أجله.

كان الأب ياناروس يؤمن بالله وكان القومندان الملكي يؤمن بالوطن وكان دراكوس الشيوعي يؤمن بالشعب. لكن الثلاثة كانوا في نفس مستوى الشجاعة وحرية الإرادة. كانوا يحتقرون الموت. من أجل أهدافهم لا يخافون الموت. فكيف نستطيع أن تقهرهم أو تحني رؤوسهم؟ إذن فالحرية معناها ألا تخاف الموت. والحرية أيضًا أن تكافح دون خوف هذا الكفاح من أجل الحرية، هو الحرية نفسها.

وهنا تبدو وجودية كازانتزاكيس واضحة. الاختبار الذاتي للمثل الأعلى. ذوبان الهدف في الفعل. نسبية السلوك. نسبية الحقيقة.

وفي رأيه أن النظريات والمعتقدات كلها قصص. والناس كالأطفال أيضًا يملون القصص المعادة وإذن فيجب أن تظهر في كل عصر جديد قصة جديدة.

ولهذا السبب، تولى الوجودي المسيحي الفرنسي جابرييل مارسيل إصدار الترجمة الفرنسية لهذه القصة.

لكن الحقيقة أن كازانتزاكيس لم يقف عند الوجودية. وأفكاره أكثر وضوحًا في أعماله الأخرى. إن الوجودية عند كازانتزاكيس مجرد انفعالات قلب متمرد حائر يبحث عن شيء ما يتعلق به. مجرد هواجس العجز والقلق، لا تلبث أن تزول ليحل محلها طريق جديد محدد للعالم. طريق الاشتراكية والثورة والسلاح. طريق الناس البسطاء الذين يتصارع الرؤساء باسمهم. طريق المسيح ولينين معًا. طريق الوحدة بين السماء والأرض. وبعبارة أخرى، الطريق الذي يجمع بين الحرية والعدل.

أعماله كلها تمثل موقفًا واضحًا صريحًا من الصراع الاجتماعي: موقف الدفاع عن حقوق الفقراء. تمثل موقفًا واضحًا من الأخلاق الفردية: موقف الإيمان بالروح والجسد معًا، والدعوة إلى فضائل الأرض لا فضائل العزلة المجردة. موقف الشجاعة واحتقار الموت، موقف الدفاع عن الكرامة الإنسانية للفرد، والإيمان المتفائل ببراءة الشباب وإخلاص البسطاء من الناس.

الجندي الأرستقراطي زانتيس، كان يعطف على الشيوعيين ويرفض تنفيذ أوامر القومندان. وعندما استولى الشيوعيون على القرية وفرضوا عليه أن يختار بين الموت والانضمام إلى صفوفهم، اختار الموت قائلًا في هدوء:

«كرامتي الإنسانية تمنعني من الخضوع للعنف!».

حتى القائد الشيوعي دراكوس قرر أن يتمرد على الحزب. لماذا؟ لأن الطاعة العمياء لا تصنع إلا عبيدًا. وهو يريد أن يكافح من أجل العدل والحرية دون أن يفقد حقه هو في العدل والحرية.

وقومندان الجيش الملكي السفاح الذي يسفك الدماء ولا يحني رأسه يقدمه كازانتزاكيس في صورة بطل تراجيدي تدفعه إلى حتفه قوة غامضة يشعر بها ولا يملك فكاكًا منها.

وخلال أحداث الحرب، كانت الأدوار موزعة بوضوح. الفقراء يدركون مكانهم، والأغنياء يدركون مكانهم أيضًا. حتى هؤلاء الضعفاء الذين يخضعون للظلم وينفذون أوامر القومندان، كانوا يشعرون في نفوسهم بواجبهم الحقيقي، وكانوا يشعرون بأنهم ضعفاء عاجزون.

النسبية ليست إذن عامة مطلقة. الإخلاص نسبي، والإيمان بالمثل الأعلى نسبي، والتضحية نسبية. لكنها تدور جميعًا في إطار محدد بشكل حاسم مطلق. إطار الصراع الاجتماعي، وفي هذا الإطار يعرف كل فرد مكانه ويلقى المخطئ جزاءه.

والهدف الاجتماعي؟ إنه لقمة الخبز للجوعى. حتى المسيح لم يكسب تلاميذه إلا على مائدة الطعام. علمهم كيف يستخرجون غذاءهم من البحر، فآمنوا به. فكلمة الرب تصيب بطن الإنسان أولًا، ثم تصعد بعد ذلك في خفة لتستولي على القلب والرأس والروح.

وهنا يقف كازانتزاكيس إلى جانب لينين والماركسية. فقد عرف لينين شخصًا وزاره في موسكو وتحمس للاشتراكية في الاتحاد السوفييتي عندما كان الكثيرون يرتعدون منها خوفًا.

لكن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. هناك أيضًا حرية الفرد وكرامته الخاصة ورغبته في أن يشعر بأن طريق الثورة ليس مفروضًا عليه. وكازانتزاكيس يطلق على حرية الفرد وكرامته واختياره الذاتي اسمًا واحدًا، هو: يسوع، أو السماء. فكلها مشاعر تملأ قلب الإنسان وتتجاوز بطنه.

وفي هذه النقطة يختلف مع الشيوعيين.

ولهذا السبب يرفع الأب ياناروس رايته الخاصة، ويبحث عن طريق ثالث:

طريق لا يقحم الدين في مشاكل الدنيا ولا ينكر الدين من أجل الدنيا، لكنه يضع الدين في مكانه الطبيعي - في قلب الإنسان المكافح ومشاعره - فيصبح قوة في الصراع من أجل العدالة. لكن كيف تستطيع أن ترفع راية خاصة في عالم يقسمه خط النار قسمين منفصلين؟

وكيف تستطيع أن تعطي حرية الحرية الفردية والكرامة حتى لأعدائك الذين يريدون أن يسفكوا دمك؟

قال له الكابتن الشيوعي دراكوس:

«اسمع يا أبانا وحب السماء! لو تركنا كل الناس أحرارًا، فسوف نضيع. سيختفي الشعب وتظهر الحثالة. فلا تتعجل الأمور إذن. الحرية ستأتي في دورها.».

وكان دراكوس على حق. لكن الأب ياناروس لم يكن يستطيع أن يتصور عدالة بدون حرية مطلقة. كان هذا جنونًا. ودفع - كما قال - ثمن جنونه.

هل الطريق مسدود إذن؟

نعم.. لكن إلى حين.

وعندما ينتهي الجوع، وتنتهي المذابح، سوف يستعيد الإنسان حريته وإذ ذاك سوف يزيح سيطرة القادة في اليمين وفي اليسار، ليصبح الفرد سيد نفسه، لا يحكم الآخرون اتجاه حياته، ولا يفرض عليه صراع الموت أن يختار بين بديلين لا يجتمعان: الحرية أو العدل - كرامة القلب أو منطق العقل - وحدة الوطن أو الصراع الاجتماعي - البيريه الأسود أو البيريه الأحمر.

هذا هو التركيب الإنساني الثوري الذي صاغه كازانتزاكيس في أعمق عمل فكري من أعماله الأدبية: الإخوة الأعداء.

وسوف يظل الإخوة أعداء، والإنسان غير مكتمل الفردية، والعدل والحرية نقيضين، والقوة والفضيلة بديلين، حتى ينقضي هذا الجيل الرهيب. جيل الصراع الدموي والحرب من أجل الخبز.

«أيها الإنسان البائس! أنت تستطيع أن ترفع الجبال وتصنع المعجزات لكنك بدلًا من أن تفعل ذلك تمرغ نفسك في القذارة والخمول والشك!».

في هذه الكلمات يكمن إنسان المستقبل.. الإنسان الذي أراد الأب ياناروس أن يحققه.. قبل الأوان. ومع ذلك استطاع أن يهز به ضمير إنسان اليوم.

قال الطبيب المسيحي ورجل السلام المعروف ألبرت شفايتزر:

«لم يصل أي كاتب إلى التأثير في نفسي بهذا العمق مثل نيكوس كازانتزاكيس».

إسماعيل المهدوي

القاهرة سنة 1966

- 1 -

وصلت الشمس إلى كاستللوس وغطت أسطح المنازل. وبدأت في هذه اللحظة تفيض وتنتشر في الأزقة الملتوية، الصاعدة إلى أعلى القرية والمنحدرة إلى أسفلها. وبلا شفقة، كشفت عورة كاستللوس فأظهرت ما فيها من قبح وقسوة. قرية موحشة يكسوها لون داكن. بيوتها من الحجر الصلد ذات أبواب يخنقها الخجل. تدخلها بانحناء. وفي الداخل ظلام.

وفي أفنية البيوت تفوح رائحة الروث وبعر الماعز، وتفوح رائحة البشر لا يرتفع في واحد منها جذع شجرة ولا قفص عصفور يغرد. ولا يظهر إصيص على حافة نافذة تبرز منه قرنفلة حمراء أو عود ريحان فلا ترى العين في كل مكان سوى حجر من فوقه حجر. حتى النفوس التي تحيا داخل هذه الأحجار قاسية متحجرة. فكل شيء هناك من الحجر الصوان: الجبال والبيوت والناس.

ونادرًا ما ارتفع في أحد أركان القرية صدى ضحكة لم يحدث ذلك إلا في السنوات التي تحمل بعض الخير وإذ ذاك كان يبدو شاذًا كأنه رجس من عمل الشيطان سرعان ما يشيح العجائز بوجوههم ويعقدون ما بين حواجبهم، فينطفئ الضحك.

وفي الأعياد الكبيرة، عيد الميلاد أو عيد القيامة أو الثلاثاء الكبيرة، كان الناس يجدون من الطعام والشراب أكثر قليلًا مما يجدون كل يوم، فيولد في حناجرهم غناء، يخرج كأنه نواح، ينتقل دون توقف من فم إلى فم في تنغيم جنائزي وعلى وتيرة واحدة تفتت الأكباد. ترى أي إرهاب لا ينسى وأي مذابح ومجاعات وأي عبودية يصدر عنها كل هذا الحزن؟ غناء يحمل أكثر من أي شكوى، الأثر الغائر الذي لا يمحى لما قاساه هؤلاء الناس طوال قرون عديدة من الجوع والسوط والموت. لكنهم كالأعشاب التي لا عقل لها تعلقوا بهذه الصخور القاسية، ثم لم يريدوا فكاكًا منها بعد ذلك. فكان هذا الجزء من اليونان لهم رؤوس صلبة، لا ينفصلون عن الصخور التي التصقوا بها حتى يوم الدين.

أجسادهم ونفوسهم اكتسبت لون الصخور وصلابتها. بل أصبحت الصخور كأنها جزء منهم. يقاسون معًا كل شيء: المطر والجفاف والجليد. كأنهم جميعًا آدميون أو كأنهم جميعًا صخور. عندما ينفصل رجل وامرأة عن الآخرين ويذهبان إلى القسيس ليزوجهما، لا يجدان كلمة حلوة يتبادلانها. فهما لا يعرفان كلمات من هذا النوع. وفي صمت أخرس يختلطان معًا تحت أغطيتهم الصوفية الخشنة لا يفكران إلا في شيء واحد: أن ينجبًا أطفالًا ترث هذه الصخور والجبال والجوع.

النساء كثيرات - عددهن أكثر مما يجب. والرجال أقل من العدد المناسب. عندما يتزوجون ويدسون في بطون زوجاتهم أطفالًا منذ الليالي الأولى، ينطلق معظمهم بقلوب ممزقة يتساءلون: كيف سيعيش الأبناء في هذه الصخور الجرداء؟ فيرحلون بعيدًا بعيدًا، وما أطول ما يغيبون. «أناس أسفارهم طويلة وعودتهم بعيدة».. هكذا تقول الأغنية في مرارة. والنساء تجف أعوادهن من

الوحدة، ولا تلبث أثداؤهن أن تتدلى وتعلو الشعيرات شفاههن. وفي الليل يعانين البرد قبل أن يغبن في النوم العميق.

حياتهم حرب لا هوادة فيها. حرب مع الله، مع الرياح، مع الجليد، مع الموت. لهذا السبب لم تفجأ الحرب الأهلية أهل كاستللوس ولم تصبهم بالذعر ولم تغير عاداتهم، كل ما حدث أن ما كان حتى ذلك الوقت راقدًا في دخائلهم صامتًا لا تراه العين، انفجر في هذه اللحظة وانفلت دون حياء ولا خجل. وانقطع اللجام عن هذا الدفع الكامن في الإنسان منذ أزمنة سحيقة: اقتل. فكل واحد منهم كان يكره جارًا له أو صديقًا أو أخًا. ظل يكرهه سنوات دون سبب وربما دون أن يشعر: وتزايدت هذه الكراهية في النفوس شيئًا فشيئًا دون أن تجد ما تنصرف إليه. وفجأة بدأوا يوزعون عليهم البنادق والقنابل اليدوية، ويلوحون فوق رؤوسهم بالرايات المقدسة. وبدأ القساوسة والصحفيون وذوو المناصب يدعونهم أن يقتلوا جيرانهم وأصدقاءهم وإخوتهم، ويقولون لهم إن هذا هو الطريق الوحيد لينقذوا الوطن والدين!

هكذا ظهر فجأة تبرير ديني لهذا الشيء المكتوب على جبين الإنسان منذ القدم: القتل. وانطلقت حملة القنص والمطاردة، مطاردة الإنسان. مطاردة الأخ.

وضع البعض على رأسه بيريه أحمر ولجأ إلى الجبل. أما الآخرون فتحصنوا في القرية وعيونهم لا تتحول عن قمة الجبل حيث تعسكر قوات الأنصار- قمة النسور كما كانت تسمى. في بعض الأحيان كان رجال البيريه الأحمر يتدفقون على السفح مطلقين الصراخ المرتفع، وفي أحيان أخرى كان رجال البيريه الأسود يتسلقون الجبل ليحملوا على أعدائهم.

وكانت الأجسام تتشابك وتلتصق، والإخوة يذبح بعضهم بعضًا في نهم شديد. حتى النساء كن يبرزن من الأفنية الصغيرة أو يصعدن إلى الشرفات، رؤوسهن عارية وشعرهن منفوش، ليثرن ثائرة الرجال. بل حتى الكلاب كانت تنبح في أعقاب أصحابها تطلب نصيبها من القنص. وكان الليل يهبط آخر الأمر فيبتلع المتقاتلين جميعًا.

واحد فقط من بينهم ظل بلا سلاح، يفتح ذراعيه مستيئسًا لكن دون جدوى. قسيس القرية الأب ياناروس. كان ينظر أحيانًا إلى اليمين وأحيانًا إلى اليسار ولا يستطيع أن يتخذ جانبًا من الجانبين، فيقف وحده يتساءل ليل نهار في قلق وحيرة: «لو أن المسيح عاد، في أي جانب كان سيقف؟ هل مع السود؟ هل مع الحمر؟ أم كان سيبقى هو أيضًا في الوسط يصيح وذراعاه مفتوحتان: أيها الإخوة، أحبوا بعضكم بعضًا! أيها الإخوة، أحبوا بعضكم بعضًا!».

هكذا كان يصيح الأب ياناروس نائب الرب في كاستللوس وذراعاه مفتوحتان. لكن ما أغنى عنه صياحه. فلم يكن يستمع إليه أحد، كان السود والحمر معًا يصبون عليه الشتائم:

- يا خائن! يا بلغاري! يا بلشفي!

- يا غراب! يا فاشستي! يا مزور الحقائق على الشعب!

وإذ ذاك كان الأب ياناروس ينصرف مهمومًا يهز رأسه الكبير قائلًا: «الشكر لك يا رب! الشكر لك يا رب! أنت وضعتني في أقسى تجربة. فأنا أحبهم جميعًا وما من أحد يحبني. لكن يا

إلهي لا تشد الحبل أكثر مما أحتمل. فأنا إنسان، لست ملاكًا ولا حيوانًا، لست سوى إنسان. ترى كم من الوقت ستبقى لي القوة لأتماسك؟ ربما في يوم من الأيام أنكسر. أنا أقول هذا لأنك- سبحانك سامحني يا رب- قد تنسى هذا الأمر في بعض الأحيان، فتطلب من الإنسان أكثر مما تطلب من ملائكتك».

***

كان الأب ياناروس يستيقظ في الصباح ويفتح شباك غرفته الصغيرة، فيرى أمامه الكتلة الصخرية التي تكسو قمة النسور. كلها صخور، ليس فيها عين ماء ولا شجرة ولا طير. فيتنهد وتحلق روحه فوق إيكو نستاتينوس حيث ولد منذ سبعين عامًا في منطقة غنية قريبة من الشاطئ الرملي للبحر الأسود. كم كان الأمن والهناء يسودان هذا المكان المبارك! من المؤكد أن الأيقونة الكبيرة على يسار المسيح في هيكل الكنيسة هناك لم تكن تمثل فقط خيال فنان شديد الإيمان، بل كانت تمثل الحقيقة نفسها: القديس الحارس قسطنطين حامي القرية، الذي يصل إلى مرتبة الحواريين، يمسك القرية بين راحتيه، كأنها عش وقع على الأرض، ويضعها تحت قدمي الرب، وحين يحل شهر مايو ويحل معه عيد القديس قسطنطين، كان هياج الناس يشتد ونشوتهم الصوفية تشتعل، فينسون همومهم اليومية وظروف حياتهم البشرية الساقطة، وتنبت لهم جميعًا أجنحة ملونة يطيرون بها نحو السماء.

ويتساءل الأب ياناروس: «الإنسان يستطيع إذن أن يتخطى نفسه؟ نعم. بلا شك. لكن ساعة واحدة أو ساعتين، أو يومًا كاملًا على الأكثر. لا يهم، فهذا يكفي. وفي هذا يدرك الناس الأبدية تدركون اللهب الإلهي الذي يسميه البسطاء الفردوس»..

وما أكثر ما زار الأب ياناروس هذا الفردوس، وكان يسترجعه كل صباح في القرية الصخرية الموحشة عندما يسرح بفكره عائدًا إلى شاطئ البحر الأسود. في القرية هناك كانت توجد جماعة صغيرة من المسيحيين المتعبّدين يطلقون عليهم اسم إخوان الأنستنار.. عددهم سبعة، ومعهم رئيسهم الأب ياناروس. كانت الطقوس التي يمارسونها ترجع إلى ما قبل ظهور المسيحية في أيام الوثنية الأولى. فقد كانوا يشعلون نارًا كبيرة في ميدان القرية، والناس يجتمعون حولها ويرتلون، والموسيقيون يحملون الربابات ومزامير القرب. ثم ينفتح باب الكنيسة ويتقدم إخوان الأنستنار حفاة يحملون على أذرعتهم القديسين الاثنين: أيقونتين قديمتين للقديس قسطنطين وأمه القديسة هيلين. ولم تكن الأيقونتان تصوران القديسين بالطريقة المعتادة، أي في صورة كهنوتية لا حركة فيها، بل كانا يظهران وأقدامهما مرفوعة وقد شمرا الرداء كأنما يستعدان للرقص.

وبمجرد أن يظهر الإخوان تنطلق أصوات الربابات ومزامير القرب ويرتفع من الحشد صراخ مجنون وترتمي نساء كثيرات على الأرض يتلوَّين في تشنج غريب. ويتقدم إخوان الأنستنار بسرعة في صف واحد وراء الأب ياناروس الذي يقودهم لاهثًا يرتل التراتيل البدائية عن الموت حارس الباب المقدس الذي يفتح أبواب الأبدية. وفي هذه الأثناء تكون النار قد أكلت حزم الخشب المقدس وأصبحت قطعًا من الجمر تطقطق. وفي قفزة واحدة يقف فوقها الأب ياناروس وخلفه الإخوان السبعة جميعًا يدوسون قطع الفحم الملتهبة ويبدأون الرقص. ومن حين لآخر يلتقط الأب

ياناروس حفنة من الجمر دون أن يتوقف عن الترتيل، ويلقي بها على الحشد كأنه يرش المؤمنين بالماء المقدس. ما هو الفردوس؟ ما هي الحياة الأبدية؟ ما هو الرب؟ ها هنا كل شيء: النار هي الفردوس. وهذا الرقص هو الله. لكن بقاءه ليس بقاء لحظة، بل بقاء قرون القرون.

وعندما يخرجون من مولد النار، لا تجد في سيقانهم شعرة محترقة، ولا في بطون أقدامهم أثرًا لحرق، بل تلمع أجسامهم كأنما خرجت لتوهما من حمام منعش في قيظ الصيف.

بعد ذلك تظل ذكرى هذه النار المقدسة مشرقة في النفوس طوال العام كله، فيسود الحب والسلام والغبطة بين الناس وبين الحيوانات وفي الحقول، فقد كانت الأرض خصبة والله يمنحها بركاته دون حساب، والسنابل ترتفع حتى تطاول قامة الإنسان، وأشجار الزيتون تنحني تحت ثقل ثمارها، والبساتين تفيض بالشمام والبطيخ وأكواز الذرة ذات الحبوب المنتفخة. لكن هذا الرخاء الوافر لم يخلق القسوة في نفوس أهل القرية. فلا يكاد الشحم يكسوهم ولا تكاد الشهوات تسيطر عليهم، حتى يحل عيد القديس، فيشعلون موقد النار كما يفعلون كل عام، وسرعان ما يشعرون بالأجنحة تنبت في جنوبهم.

وفجأة.. لماذا؟ لأي ذنب؟ القرية لم ترتكب ذنبًا خطيرًا. وأهلها كانوا يصومون دائمًا في أيام الصيام، ويمتنعون عن الخمر واللحم والسمك يوم الأربعاء والجمعة. وفي يوم الأحد يذهبون إلى القداس ويقدمون الخبز المقدس ويخبزون القمح للموتى ويعترفون ويتناولون القربان. والمرأة لم تكن ترفع الطرف إلى رجل غير زوجها، والرجل لم يكن ينظر إلى امرأة غير زوجته. فقد كانوا جميعًا يسيرون على صراط الله المستقيم. وكان كل شيء يسير على خير حال. ثم ها هو الرب الذي كان لطيفًا بهم عطوفًا عليهم يشيح بوجهه عنهم فتغرق قرية إيكو نستاتينوس في ظلام دامس.

ففي صباح يوم من الأيام، ارتفع في الميدان الكبير صوت حاد يقول: «ارحلوا عن هذه القرية! بهذا صدرت الأوامر من سادة العالم! كل اليونانيين يذهبون إلى اليونان، وكل الأتراك يذهبون إلى تركيا! احملوا معكم أطفالكم ونساءكم وأيقوناتكم وارحلوا، أمامكم عشرة أيام».

وامتلأت القرية بالنحيب والعويل. الرجال والنساء فقدوا صوابهم وأخذوا يدورون حول أنفسهم يودعون قطع الحجر وأدوات العمل وماكينات الحليج، ويودعون النافورة والأزقة، ويهبطون إلى الشاطئ يتمرغون على رماله ويناجون البحر بالصياح الذي يمزق القلوب. فما أصعب وما أشد ألم النفس حين تنفصل عن الأرض التي ألفتها.

وبعد أيام استيقظ القس العجوز داميانوس قبل طلوع النهار وذهب وحده يمر على البيوت، دون مساعدة منادي القرية، وحتى دون مساعدة نائبه الشاب الأب ياناروس، يصيح على كل باب: «يا أبنائي، دقت الساعة، وليساعدنا الله!».

وقبل أن يطلع الفجر بدأت الأجراس تدق في حزن. ونشطت النساء في العجين بينما الرجال يجمعون بسرعة كل ما يمكن حمله. ومن وقت لآخر كانت امرأة عجوز تبدأ نغمة الندب والنحيب، لكن الرجال لا يلبثون أن يصرخوا فيها وعيونهم منتفخة لتصمت. فما جدوى النحيب؟ فكل ما يدبره الله يجب أن ينفذ، ولا بد من الاستسلام له. فلنسرع. لنسرع قبل أن تخور نفوسنا، وقبل أن ندرك جيدًا هول مصيبتنا. لنخبز الخبز بسرعة، ولنجفف من القمح قدر ما نستطيع. فالطريق

طويل، ويجب أن نحمل معنا كل ما يلزم، حتى أوعية الطبيخ وقدور العجين ومراتب النوم والتماثيل المقدسة. لا تخشوا شيئًا أيها الإخوة والأخوات! إن جذورنا ليست فقط ها هنا في الأرض، بل تمتد أيضًا إلى السماء وتستمد معدنها منها، ولهذا السبب كانت سلالتنا خالدة. فلتكن قلوبكم قوية أيها الأولاد، ولتكونوا شجعانًا.

كانت الرياح شديدة والشتاء في أقسى أيامه. وهاج البحر وتلبدت السماء وخلت من النجوم. وبقي قسيسا القرية الأب دميانوس والأب ياناروس في الكنيسة- في ذلك الوقت كانت لحية الأب ياناروس لا تزال سوداء- وانشغلا في جمع التماثيل والكأس وحامل الإنجيل الفضي والملابس الكهنوتية المطرزة بالذهب. ووقفا يودعان القديس الحارس الذي كان يرقبهما من قاع القبة. ونظر إليه الأب دميانوس وقد زالت غشاوة الرهبة عن عينيه، فرآه لأول مرة كما هو في الحقيقة: متوحشًا ذا شفتين متقلصتين يملأه السخط والاحتقار، ويرفع الإنجيل بيده كأنه قطعة حجر يوشك أن يحطم بها رؤوس المؤمنين.

وهز الأب دميانوس العجوز رأسه. كان شاحبًا ضعيفًا، خداه هزيلان، لم يبق في وجهه من معالم الحياة إلا عينان واسعتان، يبدو كأنما أذاب الصيام والصلاة وحب الناس جسده كله. كان خلال سنوات عديدة ينظر إلى القديس الحارس بارتعاد فلم يره قط. واستدار نحو الأب ياناروس وكاد يسأله: «هل كان دائمًا على هذا القدر من القسوة؟» لكنه شعر بالخجل فابتلع سؤاله وقال:

- يا أب ياناروس، أنا متعب. فاجمع أنت التماثيل واختر ما سوف نحمله وأحرق الباقي لتنقذه من دنس الكافرين. وليغفر لنا الله. ثم اجمع الرماد ووزعه على أهل القرية ليمنحهم الحظ السعيد. أما أنا فسأذهب لأدق الأبواب وأصيح: أتت الساعة!

وطلع الفجر. وأشرقت الشمس خلال السحب السوداء هزيلة صلباء. وفي الضوء العابس كان الظلام يبرز من أبواب البيوت شبه المفتوحة. وصاحت بعض الديكة صياحها الأخير فوق أكوام السبل في العشش. وانفتحت الزرائب وخرج منها البقر والبغال الصغيرة والحمير. وخلفها الكلاب والناس. وتصاعدت من الأفران رائحة الخبز فملأت القرية. ومضى الأب دميانوس يجري من بيت إلى آخر يستحلف الناس قائلًا:

- وحب السماء يا أبنائي لا تبكوا ولا تسبوا إرادة الله، فربما يكون في هذا خير لنا. أليس الله أبانا؟ إن الأب لا يمكن أن يريد الشر لأبنائه. وسوف تدركون في يوم ما أن الله قد أعد لنا هناك حقولًا أكثر خصوبة نمد جذورنا فيها. فلنرحل عن أرض الكفار لنلحق بالأرض الموعودة التي يسيل فيها اللبن والعسل وترتفع فيها عناقيد الثمار حتى تساوي قامة الإنسان..

وفي اليوم السابق على الرحيل كان الرجال والنساء والأطفال قد ساروا جميعًا في موكب إلى الجبانة الصغيرة على طرف القرية ليودعوا أجدادهم. كان الجوُّ عبوسًا. والسماء أمطرت طوال الليل وظلت قطرات المطر معلقة على أوراق شجر الزيتون. وكانت تفوح من الأرض الرطبة رائحة عطنة. وسار الأب دميانوس في المقدمة يلبس الغفارة على رأسه والبطرشيل على كتفيه، ويرفع بين يديه حامل الإنجيل الفضي، والناس يتبعونه، وفي مؤخرتهم يسير الأب ياناروس يحمل الماء المقدس في إناء من الفضة ويلوح بفرع من نبات إكليل الجبل كأنما يرش به الماء. لم يكن

يسمع في الموكب غناء ولا بكاء ولا كلام. فالناس يسيرون عابسين. فقط من وقت لآخر كانت إحدى النساء تتنهد، أو يهمس أحد العجائز: كيريالايسون، يا رب ارحم. والأمهات الشابات فككن أزرار صدورهن يرضعن الأطفال الصغار. ووصل الموكب إلى شجر السرو. وعبر القسيس بوابة الجبانة وخلفه الشعب. كانت الصلبان الخشبية تنشع بالماء. وعلى هذا القبر أو ذاك ترتفع شعلة صغيرة. وفي قبور أخرى تظهر صور فوتوغرافية باهتة تحت ألواح من الزجاج، كانت صاحبتها فتاة جميلة، أو كان صاحبها ولدًا مفعمًا بالنشاط.

وانتشر أهل القرية، كل يبحث عن قبر العزيز. وسجدت النساء تقبلن التراب. ووقف الرجال يرسمون علامة الصليب ويمسحون عيونهم بأطراف أكمامهم. ورفع الأب دميانوس يديه وسط الجبانة وصاح:

- وداعًا أيها الآباء والأجداد! إن سادة هذا العالم لا يريدون لنا أن نعيش إلى جواركم وأن نموت إلى جوراكم وأن نرقد بجانبكم ليختلط ترابنا بترابكم. إنهم ينتزعوننا من أرضنا.. فلتنزل اللعنة على المسئولين!

ورفع أهل القرية أياديهم إلى السماء يرددون خلفه في صيحة مرتفعة:

- لتنزل اللعنة على المسئولين!

وبدأوا يتمرغون على الأرض الرطبة الطرية ويقبلونها ويحكُّون فيها رؤوسهم وخدودهم ورقابهم، ثم يرتمون عليها مرة أخرى يقبِّلونها. يقبِّلون فيها آباءهم وأجدادهم قبل أن يرحلوا عنهم.

وتقدم الأب ياناروس يرش القبور بالماء المقدس قبرًا قبرًا. وفي كل مرة كان يصيح واحد من أهل القرية على فقيده: الوداع! الوداع يا ابني.

الوداع يا أخي. يا أختي. يا ابن العم. اغفروا لنا أننا سنترككم في أيدي الكفار. فليس هذا ذنبنا. ولتنزل اللعنة على المسئولين.

وركع الأب دميانوس وفتح الإنجيل وبدأ يقرأ من إصحاح القيامة، وتماسك صوته فجأة فلم يعد يرتعد. كان قد قرر أن يقرأ إصحاح صلب المسيح عندما تناول الكتاب من الهيكل قبل حضوره إلى الجبانة، وعلَّم صفحته بشريط أحمر. لكن قلبه لم يطاوعه الآن وهو بين الأموات الأعزاء أن يودعهم بهذه الكلمات: إيلي، إيلي، لما شبقتني- يا إلهي، يا إلهي، لماذا تركتني؟ فقرر أن يتركهم بكلمة وداع سارة: المسيح قام! لهذا قرأ من إصحاح القيامة وختم قراءته صائحًا: «أيها الآباء! اصبروا فسوف نتقابل مرة أخرى في الدينونة الأخيرة! المسيح قام وغلب الموت، والإنسان أيضًا سيقوم، لأنه لن يبقى على الأرض موت. فاصبروا إذن أيها الآباء إلى يوم اللقاء».

ونهض أهل القرية بوجوه وشعور ملبدة بالتراب. وعادت إليهم شجاعتهم. وبدأوا يشدون على أيدي بعضهم بعضًا كأنما يتبادلون التعزية. وفجأة وبحركة تلقائية هادئة وخاشعة، بدأوا يرقصون حول القبور بالدموع ملء جفونهم. كانوا يرقصون رقصًا بطيئًا وعيونهم على صلبان الخشب تتهجى الكلمات المنقوشة. ينظرون إلى كل شيء برغبة شديدة كأنما يريدون أن يأخذوا هذه

الصلبان والصور والأكاليل المصنوعة من الصفيح وأشجار السرو والتراب والعظام المبعثرة تحته، ويحملوها فوق أكتافهم.

وظلوا يرقصون بإيقاع بطيء، ورفعوا عيونهم فجأة وهم يرقصون فرأوا شيئًا يمتد في السماء وينحني نحو الأرض يختلط فيه الأخضر بالأحمر بلون الذهب. وصاح الأب ياناروس:

- فأل سعيد أيها الإخوة والأخوات. هذا حزام العذراء يمتد فوقنا ليواسينا. لقد رفعنا أيدينا إلى السماء، ورفعنا صياحنا إلى الله، وها هو يرد علينا يقول: «اذهبوا في سلام تصحبكم العذراء، وهذا حزامها».

واتخذ الأب دميانوس مكانه مرة أخرى على رأس الموكب. وعاد أهل القرية يلقون على موتاهم النظرة الأخيرة. وبعيونهم التي تملأها الدموع لم يروا شيئًا. لم يروا سوى ضباب من البكاء. وبدأوا مرة أخرى ينتحبون ويرتعدون. وصاح فيهم الأب دميانوس:

- الشجاعة يا أبنائي. استمدوا القوة من الله وتوقفوا عن البكاء.

لكنه هو نفسه كان يبكي.

وفي النهاية انسحبوا إلى القرية وفي عيونهم بقية من دموع. وعندما وصلوا إلى هناك أغلقوا بيوتهم على أنفسهم وبدأوا الحداد.

وفي اليوم التالي بدأوا منذ الفجر عملية النقل ووضع الأحمال على ظهور الحمير والبغال. كانت السماء تمطر رذاذًا خفيفًا. وربطوا الخراف بالماعز بالبقر في حبل واحد. وتلكأت النساء على أبواب البيوت لا يجدن الشجاعة لينزعن أنفسهن عنها.

وفي فناء الكنيسة كان الأب ياناروس قد كوَّم ما استطاع حمله من أيقونات، ورسم الصليب ثم أشعل النار فيها. وتحول أكثر من مسيح وعذراء وحواريين إلى رماد ذراه الأب في الهواء بمجرفة من خشب.

حلت لحظة الرحيل. ورسم أهل القرية علامة الصليب وسجدوا يقبلون الأرض. فقد عاشوا عليها آلاف السنين، وتتابعت أجيالهم على هذه الأرض التي عجنت بتراب أجسادهم وبدمائهم وعرقهم. كانوا يقبلونها ويخمشونها بأظافرهم ويحتفنون قطعًا منها يخفونها في صدورهم. وانصرفوا أخيرًا يهمسون لأنفسهم: «الله كبير. الله يحبنا ويعمل ما فيه خيرنا». كانوا يهدهدون قلوبهم ليمسكوها من الصراخ. لكنهم لم يصمدوا طويلًا. ولم يلبث دميانوس العجوز أن بدأ العويل: «وداعًا يا بلدتنا! وداعًا يا آباءنا!» وخضبت دموعه التراب الذي يلطخ وجهه ولحيته. وفي ذلك الوقت كان المطر قد تحول إلى سيل يهطل، فاختلط الطين بالبشر.

***

ومرت سنوات وسنوات. لكن ذلك الفجر الأسود وذلك الطين والحزن لم تبرح الأذهان قط..

كانوا قد انطلقوا شاردين طوال أيام وليال وأسابيع، وقاسوا البرد والجوع.ومرضت زوجة الأب ياناروس وأسلمت الروح بين ذراعي زوجها. كانت من نوع رقيق تعودت على الحياة

السهلة، فلم تستطع أن تحتمل قسوة الطريق. ولم يبك الأب ياناروس، بل رفع يديه نحو السماء يمتلئ فمه بالصياح والغضب، لكنه لم يلبث أن كتم نفسه بمجهود كبير، وأسقط يديه ليحمل بهما الجسد الذي طالما أحبه، وليحفر له قبرًا على جانب الطريق. ثم استأنف الرحيل متمهلًا وراء الآخرين خلال أيام وليال وأسابيع.

وفي إحدى الأمسيات وصلوا إلى قرية كان الأتراك قد جلوا عنها بعد التقسيم الجديد. ومر القسيسان على البيوت يرشانها بيتًا بيتًا بالماء المقدس ويرتلان ليطردا أرواح الأتراك ويعمِّدا القرية الجديدة باسم «إيكونستاتينوس» وكان كل واحد من الناس يرسم علامة الصليب ثم يأخذ لنفسه بيتًا. لكن القرية كانت أصغر كثيرًا من أن تتسع لراعيين، فاستأنف الأب ياناروس الرحيل، وقد طوى البطرشيل تحت إبطه، وعلى كتفه كيس من القماش.

كان قد وزع على القرية كل ما يملك: بقرتين وعددًا من الخراف وبعض الملابس والقمح الذي أحضره معه. أين يذهب الآن وكيف يصبح؟ ماتت زوجته. وابنه الوحيد كان قد تمرد وهرب منذ سنوات بعد أن أشعل النار في بيت أبيه، وانطلق ضاربًا في البحر من ميناء إلى آخر، قبطانًا ومهربًا. أين يذهب الأب ياناروس إذن، وهو وحيد ليس له أحد؟ أصابه التردد والحيرة في منتصف الطريق، وأدركه الليل فلم يجد على مرمى البصر ضوءًا ولا بابًا يدقه ليجد شيئًا من حرارة البشر. وراوده إغراء بأن يعود أدراجه. لكنه شعر بالخجل من نفسه. وتوقف مفكرًا: «يا أب ياناروس، هذه هي اللحظة التي تثبت فيها غدا كان ما في داخل بطنك روح أو طين، فانهض وسر! واتبع الطريق الذي أمامك واترك الله يقود خطاك».

واستمر يمشي ثلاثة أيام، كان يمشي دون أن يسأل نفسه أين يذهب. فقد أدرك أن شيئًا لا يرى يقود خطاه، فاستسلم له في ثقة.

وكان يقول لنفسه: «هذه هي السعادة، ألا تسأل ولا تقلق، أن تترك الأشياء الظاهرة أمامك وتسلم أمرك للشيء الذي لا يرى وتسير!».

وعلى حافة غدير صاف رأى عجوزًا يبدو مستغرقًا في تأمل الماء. واقترب منه يدفعه الفضول إلى أن يرى ما ينظر إليه بهذه الدرجة من الاهتمام، فلم ير شيئًا، اللهم إلا الماء الذي يجري. وسأله في دهشة:

- ما الذي تنظر إليه يا جدي؟

ورفع العجوز رأسه بابتسامة حزينة وقال:

- أنظر إلى حياتي التي تجري وتضيع.. حياتي التي تجري وتضيع..

فرد عليه:

- لا تغتم يا جدي، فهي تعرف بنفسها إلى أين تذهب. إلى البحر. فكل حياة تذهب إلى البحر.

وتنهَّد العجوز قائلًا:

- نعم يا بني. ولهذا السبب أصبح البحر مالحًا. صنع من دموعنا. ثم أطرق ينحني مرة أخرى على الماء الذي يجري.

واستأنف الأب ياناروس طريقه وهو يقول لنفسه: «هذا الرجل لا يؤمن بالله، ولهذا يخاف الموت».

وتتابعت القرى كلها خالية من القسس، لكنه استمر يمشي وتحت إبطه الإنجيل والبطرشيل، ويردد: «سر أمامي، أيها الرب، سر، فأنا أتبعك».

وفي الأيام الأخيرة برز له من الأفق جبل مرتفع يلتصق السحاب بقمته. كان الأب ياناروس ينظر إليه في تأثر شديد، ويبدو له أن ما من جبل يمكن أن يفيض بهذا القدر من السكينة، كأنه الإله الأب في ثوب ناصع ولحية بيضاء ينحني على الأرض المخضرَّة في عطف وقوة. ثم وصل إلى سهل، فوقف مبهورًا. ما هذه الخضرة؟ ما هذه الروائح المعطرة؟ ما هذه العزلة؟ لم يكن يرى أمامه سوى أشجار السنديان الخضراء وأشجار الريحان والفستق والتوت وأشجار الكستناء الضخمة. من المؤكد أن هذا مكان مقدس يفوح منه الطيب كما يفوح من الكنيسة مساء السبت المقدس. وأدرك الأب ياناروس أن الله يأمره بالتوقف، وأن هذه العزلة هي نهاية مسيرة طويلة قاده فيها الله خلال أربعة أيام بلياليها.

كانت السماء صافية من السحب، والأرض تستيقظ على الخيوط الأولى للشمس. وصاحت الديكة. وتقدم الأب ياناروس خطوات أخرى. وفجأة رأى البحر يبرق من بين أشجار الكستناء. وفي هذا الجو الساكن وصلت إلى سمعه من بعيد قرقعة خافتة تصدر من جرس خشبي. وفهم الأب ياناروس، فرسم علامة الصليب قائلًا لنفسه: «لا بد أنه يوجد هنا في مكان غير بعيد دير رهبان. وها هم يرتلون الآن قداس باكر».

وتقدم في طريقه حتى وصل إلى مكان مرتفع استطاع أن يرى منه مبنى ذا طوابق عديدة معلقًا فوق البحر ملتصقًا بصخور الجبل، أبيض ناصع البياض، تبرز من كل جوانبه الشرفات والأبراج وأشجار السرو. ولمح في منطقة قريبة منخفضة راهبًا يحمل على كتفه معولًا، فهبط إليه وهو يرسم علامة الصليب مرات عديدة. وقابله قائلًا:

- أيها الأب المبجل، أين أنا؟ وماذا أرى هنا؟ هل هذا حلم؟ وتوقف الراهب. كان شابًا بلحية سوداء مجعدة وطاقية كستنائية وحزام من الجلد. عيناه تبرقان في خبث. يشمر ثوبه ويسير حافي القدمين. وظل يفحص الأب ياناروس من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ثم أجاب بعد فترة:

- هل أنت قس؟ من أين أتيت؟ وعم تبحث هنا؟

وأحرجه الأب ياناروس قائلًا في غيظ:

- أنا أسألك عما أراه هنا. وتستطيع أن تجري تحقيقك بعد ذلك.

- لا تغضب يا أبي.

- أنا لا أغضب ولكني أسأل: أين نحن؟

فأجاب الراهب في خبث:

- نحن أمام جبل آتوس المقدس. فهل لديك النية في أن تترهبن؟ أرجو لك الصحة والعافية.

وحط المعول عن كتفه وبدأ يضحك قائلًا:

- إذن لا تصحب معك زوجتك إذا كانت لك زوجة، ولا تصحب عنزة ولا دجاجة ولا كلبة ولا نعجة. فها هنا بستان العذراء لا يقربه شيء مؤنث. اذكر هذا جيدًا.

وركع الأبياناروس قائلًا في همس:

- سلام عليك أيها الجبل الطاهر، جبل العذراء البتول.

ونظر إليه الراهب وانفجر يقهقه، حتى اضطر آخر الأمر أن يسد فمه بيده ليمسك نفسه من الضحك، وسألك:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

فأجاب الأب ياناروس:

- الله..

وقال الراهب وهو يرفع المعول مرة أخرى على كتفه:

- حسنًا. لقد فعل بذلك شيئًا جميلًا.

لكن لم يلبث أن ركبه الشيطان فاستدار صائحًا:

- لا تحمل الهم أيها المبجل. صحيح أنه لا توجد هنا نساء، لكننا نصرف أمورنا مع جنيات البحر.

وانفجر يضحك، واختفى بين أشجار الريحان.

وانقبض قلب الأب ياناروس وقال لنفسه هامسًا:

- أيتها العذراء البتول، هذا استقبال سيئ تمامًا. فهل هكذا رجال بستانك يا مريم؟

ورسم علامة الصليب مرة أخرى، ومضى نحو بستان العذراء.

كم من الزمن بقي على جبل آتوس؟ وفي أي دير؟ ولماذا ترك الدير؟ هذه أمور لم يقلها الأب ياناروس أبدًا لأحد. في بعض الأحيان فقط كان يتكلم عن مرسم دير اليوسفيين حيث عاش سنتين تعلم فيهما الرسم.

كان هناك عشرة رهبان وفناء ذو شرفة زجاجية يستخدم مرسمًا. وكان على كل راهب بالترتيب أن يقوم بأعمال الخدمة والطبيخ لمدة أسبوع ليتيح للتسعة الآخرين أن يتفرغوا للرسم لا تشغلهم هموم الحياة اليومية، وكانوا يرسمون صورًا للمسيح خدوده حمراء فاقعة، وصورًا للقديسين يرفلون في ثياب باذخة. ذلك لأنهم هم أنفسهم كانوا يعيشون حياة رغد. مخازنهم مليئة

بالمؤن، وقلوبهم خالية من الهم، وفرش الرسم التي يستخدمونها مخنوقة باللون الأحمر القرمزي. وهذه الحياة اللينة صنعت من الزهد والتفكير تماثيل وألوانًا حمراء قرمزية وساعات من الفراغ المريح.

كانت هذه الحياة تبدو في نظره أيسر مما يجب. فجبل آتوس كان لا بد أن يصبح شيئًا آخر. وفجأة أدرك أن النعمة مصيدة الشيطان، فأصابته الرعدة، وأصبح إذ ذاك يتحرق شوقًا إلى حياة المعاناة والصوم واتباع الطريق الصعب وإدماء الركبتين سجودًا على قطع الحجارة، ومعرفة الله.

يقول الأب ياناروس لمحدثيه:

- هكذا رحلت وتركت دير اليوسفيين حيث الحياة لينة أكثر مما يجب، ونزلت في عشرين ديرًا في جبل آتوس أبحث عن أكثرها خشونة لأمارس فيه الزهد والتفكير.

ويسأله البعض:

- ثم ماذا حدث يا أبانا؟

لكنه يعض على شفتيه صامتًا. وبعد فترة يقول في صوت خافت يهزه الانفعال:

«أيها الرب، ضع يدك على فمي..» ومع ذلك انفجر الأب ياناروس في يوم من الأيام. وصل إلى القرية راهبان من أحد الأديرة فدعاهما إلى غرفته. وكانت تفوح منهما رائحة الثوم والزيت الزنخ والبخور. ففتح النافذة ليدخل الهواء النقي. ولم يتكلم، لولا أن الراهبين كانا راغبين في الثرثرة. كان أكبرهما سنًا يبدو شديد الخبث. خداه متوردان وله بطن ضخم ولحية متأنقة. أما الآخر فكان حدثًا يافعًا، وجهه مغطى بالبثور، وله سكسوكة خفيفة. حين يتكلم ينظر إلى محدثه من أسفل ويتلعثم.

وعقد الراهب الكبير يديه على بطنه وبدأ الهجوم بصوت خشن وبنغمة استنكار:

- قالوا لنا يا أب ياناروس إنك عشت على الجبل المقدس، فاسمح لي أن أسألك، لماذا هجرت تلك العزلة السعيدة وعدت إلى الدنيا؟

واشتعلت عينا الأب ياناروس وقال وهو يشد على قبضته:

- العزلة السعيدة؟ قل لي أيها المبجل، ما جدوى هذه العزلة السعيدة؟ الأديرة في أيامنا هذه أصبحت خلايا زنابير لا تنتج عسلًا. هل هذا زهد؟ هل هذه مسيحية؟ هل هذا ما كان يريد المسيح؟ لا، لا. في أيامنا هذه، الصلاة هي العمل، والتنسك أن تعيش مع الناس وتكافح مع الناس، وأن تصحب المسيح كل يوم إلى جبل جلجثه لتصلب هناك. أقول كل يوم، وليس فقط يوم الجمعة المقدس.

وكان يريد أن يصمت، لكنه لم يكد يفتح فمه حتى انفتح قلبه، فنظر إلى الراهبين وهز رأسه قائلًا:

- الشيء الذي لا أستطيعه بل وأخجل منه، أن أعيش بعيدًا عن الناس، وحدي فقط لا يربطني بهم شيء. لا. لا أريد أن أتحول إلى قطعة حجر منزوعة وملقاة على قارعة الطريق. أريد أن أكون ذا نفع، أن أكون قطعة حجر مرصوصة في بناء كبير.

وسأل الراهب الصغير ذو البثور بكلمات متلعثمة:

- أي بناء؟ أنا لا أفهم ما تقول.

- أي بناء؟! اليونان. المسيحية. لا أعرف الاسم الذي يجب أن يحمله. تستطيع أن تسمي هذا البناء الكبير: الله.

فقال الراهب الكبير وقد رفع يديه المعقودتين على بطنه:

- أنا أسمي هذا الكلام أوهامًا.

وأجاب الأب ياناروس غاضبًا:

- وأنا أسميه الطريق الذي سار فيه المسيح. فأنا أعرف أيها المبجل أن المسيح لم يبق في الصحراء أكثر من أربعين يومًا، وبعد ذلك تخلى عن العزلة السعيدة ليشقى ويصوم ويكافح بين الناس ويصلب. ما هو إذن واجب المسيحي؟ أقول مرة أخرى: أن يسير في الحياة على طريق المسيح.

وسأل الراهب الشاب في تلعثم:

- فماذا عنا نحن؟

لكن الأب ياناروس لم يسمع شيئًا، لأن انفعاله كان قد وصل إلى درجة شديدة:

- ما أكثر ما رأيت من فضائح ونفاق وأكاذيب عند الناس العاديين وعند الرهبان، فلم أعد أستطيع احتمالًا. وأقول لكم وليغفر الله لي، أحيانًا أشعر بأن روحي تحولت إلى شعلة ملتهبة تريد أن تحرق الدنيا كلها وتبدأ بالأديرة.

وسأله الراهب الكبير وهو يفرغ الكوب في جوفه:

- وماذا فعلت بك الدنيا إذن يا أب ياناروس؟ لماذا تريد أن تحرقها؟ إن الدنيا على ما يرام وهي من صنع الله.

- هي من صنع الشيطان! كانت من صنع الله، لكنها لم تعد كذلك. وأجدر بكما أيها المبجلان أن تفتحا عيونكما جيدًا. إن المسيح يذهب من باب إلى باب جائعًا ترتعد فرائصه من البرد فلا ينفتح له باب ولا قلب. كيف تستطيعون أن تروه وتسمعوه وعيونكم وآذانكم وقلوبكم قد غشاها الشحم؟

وجذب الراهب الكبير زميله الشاب من ركبته قائلًا:

- لننصرف. إن الدنيا مليئة بالمغريات. فلنغلق عيوننا وآذاننا ونهرب. وها أنت ترى الأب ياناروس، لم يكد يفتح فمه حتى بدأ يجدف بالله دون أن يشعر، لماذا؟ لأنه عاد إلى الدنيا التي هي

ملكوت الغواية.

وأجاب الشاب متلعثمًا:

- لنهرب! فما أعلى جدران الدير. الغواية لا تستطيع قط أن تنفذ منها.

وانفجر الأب ياناروس يضحك بصوت يهز جدران الغرفة:

- إن لديكما الكثير من هذه الغواية أيها المبجلان! سأحكي لكما قصة حقيقية. كان هناك دير به أربعمائة راهب. لكل راهب منهم ثلاثة طواقم لركوب الخيل وثلاثة جياد، واحد أبيض وآخر أحمر والثالث أسود. وفي كل يوم كان الرهبان يدورون حول الدير ليمنعوا الغواية من الدخول. كانوا يمتطون الجياد البيضاء في الصباح والحمراء في الظهر والسوداء في الليل. ومع ذلك اتخذت الغواية صورة المسيح ودخلت.

وضرب الراهبان على فخذيهما وصرخا:

- المسيح! أنت تجدف بالله مرة أخرى يا أب ياناروس!

وأجاب الأب ياناروس مزمجرًا يدق المنضدة بقبضته:

- المسيح، نعم، المسيح. أو بعبارة أخرى المسيح كما أصبح على أيديكم أيها الرهبان: النفاق والكسل والشراهة، أنتم تتصورون أنه المسيح وتظنون أنكم تنهجون نهجه. ولا شك أن هذا يسهل لكم الأمور، أيها المنافقون الشرهون الخاملون! لكن ليس هذا هو المسيح يا أشقياء. إنه الغواية. اتخذت وجه المسيح ودخلت. أما المسيح الحقيقي، فأقول لكم وأكرر القول، المسيح الحقيقي يوجد بين الناس، ويسير بين الناس، ويتألم ويصلبونه ويقوم حيًا.

وانفجر الراهب الكبير مرة أخرى قائلًا وهو يستجمع قوته ليرفع كرشه:

- لننصرف!

وأسرع الشاب يساعده، واستدار نحو الأب ياناروس وقال له بطريقة سيئة:

- يبدو لي أنك تهيننا. صحيح إذن ما قاله لي الأسقف: أنت متمرد على الكنيسة ترفع لنفسك راية خاصة.

فأجاب الأب ياناروس وعيناه تقدحان:

- نعم راية خاصة. فهل تعرف ما هو مرسوم عليها أيها المبجل؟

- ماذا إذن أيها المتمرد؟

- المسيح وفي يده سوط. اذهب وقل هذا للأسقف ولرئيسك. قل هذا لكل الأساقفة ولكل الرؤساء في العالم.

ثم قال وهو يفتح لهما باب الغرفة:

- أيها المبجلان، وداعًا!

ولم يكن إذ ذاك يضحك.

***

كان الأب ياناروس يشعر بالابتهاج كلما تذكر ذلك الصباح الذي نفض فيه التراب عن نعليه ورحل عن جبل آتوس دون أن يراه أحد. كانت الشمس تسطع كأنها في أول يوم من أيام الخليقة، كأنها خرجت لتوها من بين يدي الله. وبدا الجبل المقدس، تحت السحب الملتصقة به، يبتسم في لون وردي تحت ضوء الفجر، كأنه الرب نفسه يبتسم وهو يرى هذه النملة تمسح عن قدميها تراب آتوس وتفر مسرعة عبر أشجار الريحان والفستق.

وفي مرات كثيرة قبل ذلك، كان الأب ياناروس يحس بالنسمة الباردة على وجهه الساخن، نسمة الحرية، فيشعر بالسرور العظيم. لكن سروره في ذلك الصباح لم يسبق له مثيل. كان يغني وهو يقفز بين أشجار الريحان: «اليوم فقط ولدت، اليوم فقط ولدت!» ولم يحاول ولو مرة واحدة أن يدير رأسه ليرى الدير قبل أن يختفي عن انعطافة الوادي.

ومضى يضرب من قرية إلى قرية، ومن جبل إلى جبل، حتى وصل إلى صخور كاستللوس. وفي الأيام الأولى شعر بالاختناق في هذه القرية الضيقة الجافة. وأضناه الحنين إلى قطعة من الأرض الرطبة اللينة، أو شجرة لوز مزهرة، أو وجه ضاحك، أو خيط من الماء المتدفق.

لكنه مع السنين ارتبط بهذه الصخور وبهؤلاء الناس. فهم أيضًا إخوته وأخواته. كان يرى في وجوههم آلام البشر ومخاوفهم. فتعلقت نفسه بهذه الصخور الصلدة واستقرت فيها.

وسارت أمور الأب ياناروس مثل أهل القرية على البؤس والشقاء اليومي. فهو في معظم الأحيان جوعان بردان لا يجد من يشاركه همومه، لكنه لم يكن يشكو من ذلك، بل كان يقول لنفسه: «ها هنا مركزي ومن هنا سأعلن الجهاد».

ثم إن الله أفرغ على رأس اليونان كئوس غضبه السبعة، فاندلعت الحرب التي يقتل فيها الأخ أخاه. لكن الأب ياناروس لم يستطع وسط هذه الحرب أن يقرر أي الجانبين يختار. فهم جميعًا أولاده وإخوته، يرى في كل الوجوه لمسات أصابع الله، كان يصيح فيهم: «المحبة! المحبة! الوفاق!». لكن كلامه كان يضيع في الهاوية. ومن يمين هذه الهاوية ومن يسارها كان يرتفع في وجهه السباب والشتائم!

- يا بلغاري! يا خائن! يا بلشفي!

- يا غراب! يا مزيف الحقائق على الشعب! يا فاشستي!.

- 2 -

ذابت السحب على رأس الجبل، وأطلقت الشمس قواها الجديدة لتعيد الدفء إلى الأرض التي كساها الجليد. وبدأت الأعواد الخضراء الصغيرة تنبت من البذور وتشق الغطاء الأبيض. وبرزت الزهور البرية تزيح الحصى وترتفع نحو الضوء. وفي أعماق التربة نشطت القوى الصامتة تعمل في قدرة كبيرة. وانزاح اللوح الجامد الحزين الذي فرضه الشتاء، وعادت الحياة إلى الخليقة. وجرت الريح اللينة الدافئة، تحمل عطر الزهور أحيانًا، وتحمل أحيانًا أخرى رائحة الجثث.

كان ذلك في أبريل في عيد السعف يوم الأحد. وبدأ أسبوع الآلام. المسيح ذهب في هذا المساء على أتان ودخل أورشليم، قاتلة الأنبياء. «في نصف الليل صار صراخ، هو ذا العريس مقبل!».

بهذه الكلمات سيهلل الأب ياناروس للمخلص الذي دخل وعلى فمه ابتسامة مرة في مصيدة قاتلة أعدها له البشر. وسيدق الجرس دقات الحزن. يدعو المسيحيين إلى الكنيسة، ليشهدوا ما قاساه الله وما يقاسيه على أيدي البشر.

وتحدث الأب ياناروس إلى نفسه قائلًا:

- «هذا مستحيل! حتى الحيوانات المتوحشة والذئاب وبنات آوى والخنازير الوحشية تفقد شيئًا من وحشيتها كما يقال في هذا الأسبوع المقدس. حتى الريح تصبح لينة، والهواء يمتلئ بأصوات ثقيلة تحمل الحب والألم. والناس يعلمون أن هذه الأصوات التي تنقلها الريح هي أصوات المسيح. فالمسيح لا يتربع على عرشه فوق السحب، بل يكافح ويقاسي معنا على الأرض جائعًا مهانًا مصلوبًا. وطوال الأسبوع المقدس يسمع الناس المسيح يصرخ ويتألم. فهل يمكن ألا تفتح الشفقة قلوبهم؟».

هكذا كان يفكر الأب ياناروس وهو واقف على عتبة الكنيسة يسمع منذ الصباح الباكر أصوات استيقاظ القرية. كان يشعر بالقرية كلها في داخله، كما يشعر بنبضات عروق صدغيه أو صرير مفاصله: الأبواب والبيوت والمداخن والأزقَّة وسباب الناس وبكاء الأطفال الجوعى. فهو وصخور القرية وأهلها شيء واحد، كأنه المسخ الذي تقول عنه الأساطير إن نصفه الأعلى بشر ونصفه الأسفل حصان. وهكذا كان: نصفه الأسفل قرية اسمها كاستللوس. حين يحترق منزل، يحترق هو. وحين يموت طفل، يموت هو. وحين يركع أمام تمثال السيدة العذراء ذات العينين الواسعتين حارسة القرية، تركع كاستللوس كلها بيوتها وأرواحها جميعًا.

كان يقول لنفسه دائمًا وهو يمزح: «لم يعد اسمي ياناروس. أصبح اسمي كاستللوس!».

وبينما كان ينصت إلى استيقاظ القرية ويستيقظ هو معها، سمع فجأة صوت المنادي كرياكوس يرن عاليًا كالنفير يتردد في الميدان صداه. من المؤكد أنه كان يعلن خبرًا مهمًا لأن كل الأبواب بدأت تخبط وعادت الحياة إلى القرية مرة واحدة. وأصاخ العجوز بسمعه، فأدرك من النداء ما جعل الدم يغلي في عروقه. وفي خطوة واحدة خرج إلى الطريق. وبدت القرية بعض الوقت في هرج

ومرج: الأبواب والنوافذ تتخابط، والنساء يصحن والكلاب تنبح، ولم يلبث صوت المنادي أن ارتفع مرة أخرى يقول:

- اسمعوا اسمعوا أيها المسيحيون! العذراء البتول حضرت اليوم إلى القرية. وصل من جبل آتوس راهب يحمل صندوقًا من الفضة فيه الحزام الحقيقي للعذراء مريم. وسيعرضه في ميدان القرية. أسرعوا جميعًا لتركعوا له. الرجال والنساء والأطفال!

وشد الأب ياناروس لحيته، وامتلأ فمه بسباب ديني لم يلبث أن ابتلعه قائلًا لنفسه:

- سامحيني أيتها العذراء البتول، فأنا لا أثق في الرهبان، هل هذا حزامك حقًّا يا سيدتنا؟

فمنذ سنوات عديدة شاهد هذا الحزام في فاتوبيدي على جبل آتوس وانحنى عليه وقبَّله. كان حزامًا من الصوف ذي اللون البني المنسوج بخيوط من الذهب، بَلَى وتخرَّق بفعل الزمن. لكن العذراء كانت امرأة فقيرة. وكان المسيح كذلك فقيرًا طوال حياته على الأرض. فكيف استطاعت العذراء أن تحصل على مثل هذا الحزام الثمين المنسوج بخيوط الذهب؟

هو يذكر أنهم عرضوا عليه في دير آخر حاملًا أثريًّا من الذهب في داخله جمجمة طفل. وقال له الراهب الموكل بحراسة الأثر الثمين: «هذا رأس القديس كريكوس». وبعد يومين عرضوا عليه رأسًا أكبر كثيرًا من الرأس الأول، وقال له خادم الدير: «هذا رأس القديس كريكوس». ولم يستطع الأب ياناروس أن يصمت فقال له: «لكنهم عرضوا عليَّ أول أمس جمجمة أخرى- جمجمة طفل». فأجاب الخادم: «هذا صحيح. لا شك أن الجمجمة الأولى كانت جمجمة القديس وهو صغير».

كان الأب ياناروس يعرف إذن تدليس الرهبان. وعندما ركع أمام حزام العذراء في فاتوبيدي انتحى بخادم الدير ركنًا وسأله في ثقة شخصية: «وحق بركتك أيها الأب المبجل، هل أنت متأكد أن هذا بالفعل الحزام الحقيقي الذي كانت تلبسه العذراء؟». وكان الراهب رجلًا مهيبًا له كرش كبير. ابتسم في خبث وأجاب: «لا تبحث في هذه المسائل البعيدة يا أب ياناروس. المهم أن يحقق هذا الحزام معجزة أو معجزتين. فإذا لم يكن حقيقيًا، أصبح كذلك» تذكر الأب ياناروس كل هذا وهمس لنفسه مرة أخرى: «سامحيني أيتها العذراء البتول، فأنا لا أثق في الرهبان ولا أريد هنا أحدًا منهم».

وكان المنادي قد سكت بعض الوقت ليسترد أنفاسه، ثم عاد يصيح بصوت أشد ارتفاعًا. وأسرع الأب ياناروس ليلحق به. ثم توقف وأصاغ السمع مرة وهو ينتفض:

- اسمعوا اسمعوا أيها المسيحيون! اصحبوا معكم مرضاكم رجالًا ونساء. السيدة العذراء البتول منحت الراهب نعمة الشفاء من كل الأمراض ولدغات الثعابين والعيون الشريرة والجان الذي يسكن الجسد. هذا هو! ها هو يصل!

وبالفعل ظهر الراهب في نهاية الطريق في هذه اللحظة تقريبًا. كان يركب حمارًا رمادي اللون ويبدو عليه المرح. رأسه عار وشعره معقود على قفاه، وبطنه كبير بارز، تتدلى من يمينه ومن يساره سلتان كبيرتان مليئتان بالزجاجات والمأكولات والعلف.

وانطلقت تجري خلفه مجموعة من الصبية بطونهم منتفخة وسيقانهم كالهياكل العظمية لا يغطيها لحم، بعضهم يقفز على عكازات، كانوا ينقلبون أرضًا ليتسابقوا إلى فولة خضراء أو ثمرة حمص أخضر أو تينة يملأها الدود، أو غير ذلك من ثمار كان الراهب بين الحين والآخر يستخرجها من جيوبه الواسعة ويقذف بها في الطريق وهو يضحك ملء شدقيه.

وأسرع كرياكوس يحتضن على قدر استطاعته جسد الراهب الضخم ليساعده على النزول وسط الميدان. وتدافع الرجال والنسوة يقبلون يده السمينة. فقال في صوت منغم عميق:

- أمنحكم بركتي يا أبنائي. وتمنحكم العذراء البتول بركتها أيضًا. اذهبوا إلى بيوتكم وابحثوا عن هباتكم للسيدة العذراء. نقود أو خبز أو خمر أو جبن أو صوف أو زيت أو أي شيء. أحضروا ما لديكم وتعالوا لتركعوا.

ورأى الراهب أهل القرية مترددين يفكرون فيما يمكن أن يقدموه، ففتح ثوبه في خبث وأخرج من صدره صندوقًا من الفضة. ورسم علامة الصليب ثلاث مرات ثم رفعه فوق رأسه ولوَّح به ليراه كل الناس. وأمرهم قائلًا:

- اركعوا! ففي هذا الصندوق يرقد حزام مريم المقدس! اجروا إذن إلى بيوتكم وابحثوا عن هباتكم وعودوا لتركعوا أمامه.

ثم سأل الحشد:

- بالمناسبة، ماذا تفعلون مع الأنصار الحمر؟

وأجابه بعضهم:

- لم نَعد نحتمل أيها الأب المبجل. نحن نموت موتًا بطيئًا.

- اقتلوا! اقتلوا! هذا ما تقوله لكم السيدة العذراء. اقتلوا الأنصار لأنهم كلاب وليسوا بشرًا.

وانتشر الناس يبحثون عن شيء يقدمونه. وجلس الراهب على مصطبة من الحجر أمام المقهى. كان المقهى مغلقًا منذ شهور عديدة، إذ لم يكن أصحابه يستطيعون أن يجدوا اللبن والسكر والحلوى وطباق النرجيلة. وجذب من صدره منديلًا أزرق، وتنحنح وبصق، ثم قام وانتقى من السلة تينة سليمة لم يقربها الدود وبدأ يلوكها في فمه. واستخرج أيضًا زجاجة عرقي تجرع منها عدة جرعات. وفجأة سأل كرياكوس وكان يقف إلى جانبه يتأمله ويداه معقودتان:

- ما نوع قسيس هذه القرية؟

وكان كرياكوس في حالة نشوة، فتأخر في الرد. لم يأمر له الله من قبل أن يكون جديرًا برؤية زاهد من زهاد الجبل المقدس. لهذا لم يشبع من تأمل هذا الجسد الندي المبارك والشعر المعقود على قفاه، وقدميه الكريمتين الكبيرتين، ولم يشبع من تشمم رائحة عرقه المقدس بملء منخريه.

وسأل الراهب مرة أخرى في غضب:

- أقول لك ما هو نوع قسيس هذه القرية؟ أجب!

وازدرد كرياكوس لعابه بصعوبة، ونظر حوله ليطمئن إلى أن أحدًا لا يسمعه، وقال في صوت خفيض:

- ماذا أقول لك أيها الأب المبجل؟ إنه الخوف والرعدة. رجل رهيب! لا يكلم أحدًا. ومهما تقل أو تفعل أمامه، يعقد ما بين حاجبيه. فهو لا يرضى أبدًا. ومن يسمعه يعتقد أنه ابن عم الله العظيم.

هو رجل مقدس. لكنه غير عادي. في هذا بالذات، لا. فاذكر ذلك أيها الأب المبجل.

وهرش الراهب رأسه وقال بعد فترة من التفكير:

- حسنًا! خير لي إذن ألا أحتك به. سأنهي عملي وأنطلق.

وأسند ظهره إلى جدار المقهى وتنهد قائلًا:

- كم أنا متعب يا أخ.. وبالمناسبة ما هو اسمك؟

- كرياكوس. أنا منادي القرية، لكني أرسل شعري لأني أريد أن أصبح قسيسًا.

- أنا متعب يا أخ كرياكوس. مهمتي ثقيلة. منذ ثلاثة شهور وأنا أمر بالحزام المقدس عبر الجبال والوهاد. وقد خارت قواي. انظر. لم يبق مني سوى جلد على عظم.

وربت على بطنه ولغده وهو يقول هذه الكلمات. ثم أضاف:

- من الخير أن ننام قليلًا في انتظار عودة المؤمنين ليركعوا للحزام.

ورسم علامة الصليب ثم أغلق عينيه قائلًا:

- احرس السلتين يا كرياكوس يا ابني.. لا تدع أحدًا يقربهما.

وجلس كرياكوس القرفصاء بجوار قدميه. فلم يكن هناك شيء في العالم يمكن أن يبعده عن مثل هذا الرجل المقدس مبعوث الله.

وظل يتشرب غبطة الراهب بعينيه ومنخريه، بل وبأذنيه أيضًا، لأن الراهب كان قد بدأ يطلق الشخير بين لحظة وأخرى. وفجأة هبط من الآفاق التي كان يحلق فيها حين رأى أمامه الأب ياناروس. وقال له الأب بعنف:

- هل هكذا تعد نفسك لتكون قسيسًا يا كرياكوس؟ ما الذي دعاك إلى إحضار هذا الرجل؟

ورد كرياكوس المسكين:

- أنا؟ لقد حضر وحده يا أبي.

- ربما.. ولكن السيد كرياكوس عمل مناديًا له.

ودفع الأب ياناروس القدمين الكبيرتين بطرف عصاه قائلًا:

- استيقظ أيها المبجل. عندي كلمتان لك.

وفتح الراهب عينين يملأهما النعاس، ورأى القسيس فأدرك الأمر، وقال:

- أنا سعيد بمقابلتك يا أبي!

- عم جئت تبحث في قريتي؟

وأشار الراهب إلى الصندوق الأثري قائلًا:

- إنها السيدة العذراء قادتني إلى هنا. وحيثما تقودني أذهب.

- حسنًا. لقد قادتني أنا أيضًا السيدة العذراء لكي أقول لك:

انطلق بسرعة! التقط صندوقك وسلتيك وحمارك وأدويتك واغرب من هنا.

- إن السيدة العذراء البتول..

- اصمت! لا تدنس اسم أم الله المقدسة. لو كانت هي التي أرسلتك حقًا لأثقلت كتفيك بالقمح والزيت والملابس وكل ما هو متوافر عند الرهبان، لتوزعه على شعبها العاري الحافي الذي يموت جوعًا، بدلًا من أن تحضر لتنتزع من فمه قطعة خبز لم يبق له غيرها.. أقول لك اصمت! لقد كنت أنا أيضًا راهبًا في جبل آتوس، وأعرف أسراركم أيها المنافقون الخاملون العابثون بالدين.

وأمسك بذراعه يسأله:

- قل لي ما هي الكلمات التي خرجت من فمك؟ اقتلوا اقتلوا! هل بهذا أمرتك العذراء؟ لماذا إذن دخل ابنها أورشليم هذا اليوم نفسه ليصلب؟ إلى متى تظل تخون المسيح يا يهوذا؟

وكان يكلمه وقد انحنى فوقه وهو يرتعد في غضب:

- يا يهوذا! يا يهوذا!

لكن الناس كانوا قد عادوا وبدأوا يتجمعون شيئًا فشيئًا يحملقون برهبة في الصندوق الفضي صامتين ورؤوسهم عارية. وكان كل واحد منهم يمسك شيئًا في يده أو في طاقيته. بصلة أو حفنة قمح أو قليلًا من صوف النعجة. أي شيء يملكون ليقدموه إلى السيدة العذراء. وإحدى النساء لم يكن لديها شيء، فنزعت تلفيعتها لتقدمها. وأحضر رجل عجوز عملة أثرية وجدها في يوم من الأيام وهو يحفر حقله. واستدار إليهم الأب ياناروس بقلب مقبوض وقال:

- يا أبنائي. اركعوا للحزام المقدس. لكن لا تعطوا حبة قمح لهذا الراهب. فأنتم فقراء جوعى، وأطفالكم جوعى. العذراء ليست في حاجة إلى الهبات. وهل تأخذ العذراء؟ حاشا لله! إنها تعطي ولا تأخذ. وإلا فلماذا سميت أم المسيحيين؟ هل يمكن أن ترى أولادها يقاسون الجوع دون أن تمد إليهم يد العطف لتعطيهم الخبز؟ انظروا إلى هذا الرجل الطيب. لقد أتى إلى قريتنا ليملأ سلاله لكنه رأى فقرنا وشاهد الأطفال الجوعى يجرون وراءه، فتمزق قلبه ألمًا. أليس هو خادم أمين للسيدة العذراء؟ ألا تسكن العذراء قلبه؟ ما حاجته إذن إلى الحياة الطيبة والطعام الكثير؟ لقد هجر مغريات الدنيا منذ سنوات عديدة، وخلا إلى نفسه على الجبل المقدس يبحث عن الخلاص. ولهذا أشفق على شقائكم، فقرر - بارك الله فيه - أن يوزع عليكم كل ما جمعه حتى الآن في السلتين.

وارتفعت من الحشد جلبة شديدة، وأخذت النساء يبكين، وأسرع أهل القرية جميعًا إلى الراهب يقبلون يديه. كان وجهه قد احتقن بالغضب المكتوم. وأخذ يردد اللعنات على هذا القسيس الشرير الذي يسلبه كل شيء. لكن ماذا يستطيع الآن أن يفعل؟ كان الخجل الشديد يمنعه من الرفض- لا، بل الخوف الشديد- لأنه لم يكن من ذوي الحياء. وكان الأطفال قد تجمعوا حول الحمار يدقون الأرض بأقدامهم. وحشروا أنوفهم داخل السلتين وتشمموا رائحة التين، فسال اللعاب في أفواههم.

وأصدر الأب ياناروس أمره:

- ليتقدم رجلان ويرفعا أحمال الحمال. أحضروا السلتين إلى الرجل المقدس الذي أرسله لنا الله وسيقوم هو نفسه بتوزيع ما فيهما. لكن اركعوا أولًا للحزام المقدس!

ولم يكد يتم كلامه حتى كانت السلتان قد رفعتا ومدت كل امرأة مئزرها وقدم كل رجل طاقيته، وغاصت أيادي الأولاد داخل السلتين.

وقال لهم الأب ياناروس ووجهه يشرق في سعادة:

- مهلًا. مهلًا. يجب أولًا أن نشكر السيدة العذراء لأنها أرسلت هذا الرجل المقدس بالسلتين.

وكان الراهب واقفًا يلهث في ألم والعرق يتصبب منه.. ومن حين لآخر كان يقذف الأب بنظرة مسمومة. آه! لو كان يستطيع أن ينتف لحيته شعرة شعرة! واقترب منه لحظة وهمس في أذنه بأنفاس حارقة: «لقد هزمتني يا خادم الشيطان».

وابتسم الأب ياناروس وأجاب بصوت مرتفع ليسمعه الحشد:

- نعم، أيها الأب المبجل، الحق معك. فليس أدعى إلى السرور من إطعام الجوعى. وسوف أذكر اسمك هذه الليلة في المذبح. وبالمناسبة ما اسمك أيها المبجل؟

لكن الراهب أجاب بصيحة غاضبة. وأراد أن يضع حدًا للأمر ففتح الصندوق الأثري فظهر شريط من الصوف البني المنسوج بالذهب: الحزام المقدس. وصاح بصوت حاد: «اركعوا!» وكأنه يريد أن يقول: «اغربوا عن وجهي!».

واصطف أهل القرية واحدًا بعد آخر ليقبّلوا الأثر مسرعين متعجلين. كانوا يشعرون بالسلتين خلف ظهورهم ويتحرقون شوقًا إلى الفراغ من التقديس ليبدأ التوزيع.

وانهار الراهب على المصطبة منهكًا حانقًا. ووضعوا السلة الأولى ثم الثانية بين ساقيه. وكان الأب يوجه العملية. كل واحد يتقدم في دوره يمد يده أو طاقيته أو مئزره والراهب يأخذ من السلة ويوزع وشفتاه تهمسان بالسباب واللعنات:

- عليك اللعنة يا قسيس الشيطان.. عليك اللعنة يا قسيس الشيطان..

وكان الأب ياناروس يقول:

- لا داعي للضوضاء يا أبنائي. الرجل المقدس يرجوكم.

كان كل واحد يتناول نصيبه الصغير ويقبِّل يد الراهب ويطير إلى منزله.

وقال الأب ياناروس:

- ما أعظم سرور السيدة العذراء! ما أعظم سرور السيدة العذراء حين ترى شعبها يفرغ سلالها! أليس كذلك أيها المبجل؟

لكن الأب المبجل لم يستطع صبرًا، فأمسك بالسلتين وقلبهما على الأرض وأدار وجهه كي لا يرى ضياع ماله. واندفع الحشد نحو الكومة. وفي اللحظة التي يرتلون فيها كلمة «كيري» كانوا قد مسحوا كل شيء.

وقال الأب:

- خذ السلتين يا كرياكوس وضعهما على الحمار، وساعد الرجل المقدس على الركوب. لقد أدى واجبه وحان الآن وقت رحيله.

لكن الراهب كان ينظر إليه ويقول لنفسه: آه لو أن العيون تستطيع أن تقتل، إذن لمزقتك إربًا أيها الغراب!

وأحضر كرياكوس الحمار إلى جانب المصطبة، وعاد يحمل الراهب الضخم مرة أخرى على قدر ما يستطيع حتى استقر بين سلتيه الفارغتين.

وقال له الأب ياناروس:

- رحلة سعيدة أيها الأب المبجل. اكتب لنا!

لكن الراهب كان يغلي غضبًا، فلكز حماره بعقبيه الكريمين لكزًا قاسيًا وانطلق إلى عرض الطريق لا ينظر خلفه. وعندما وصل إلى الحقول بعيدًا عن الأنظار، استدار ليلعن القرية مرتين، وصاح: «ليلعنك الله يا قسيس الشيطان. لقد طعنتني في صميم قلبي».

***

عاد الأب ياناروس إلى الكنيسة يدندن في سرور ويستشعر في نفسه ابتسامة العذراء. لا شك أنها هي أيضًا مسرورة لأن حزامها المقدس حقق معجزة فأطعم الجوعى.

لكن من يستطيع أن يقول إنه حزامها حقًا؟

مهما يكن، فقد قبلته شفاه لا حصر لها خلال قرون طويلة، وتأملته عيون لا تعد، واستمدت منه آلاف النفوس المعذبة عزاءها، وألقت عليه أثقال أملها وألمها، وجعلته بذلك مقدسًا، فأصبح حزام العذراء حقًا. إن الإنسان- هكذا فكر الأب ياناروس- يملك في نفسه قوة هائلة تستطيع أن تجعل قطعة من القماش راية مقدسة.

واجتاز عتبة الكنيسة فرأى جنديًا ينتظره على مصطبة الفناء. كان الأب ياناروس يعرفه منذ زمن طويل ويحبه كثيرًا. فهو ولد هادئ رقيق في جيبه دائمًا أحد الكتب القديمة، وعيناه الزرقاوان

تشعان شبابًا ووسامة. وهو طالب. في العام الماضي حضر في عيد الميلاد ليعترف قبل المناولة. كم هي صافية نفسه! كلها رقة وروحانية. كان يحب فتاة يراها في الأحلام ويتحرَّق شوقًا إليها. هذه هي خطيئته الكبرى التي جاء يعترف بها في العام الماضي.

- مرحبًا ليونيداس! ماذا هناك؟ أراك غارقًا في تفكير عميق.

وأجاب الشاب:

- لا شيء قط يا أبي، فقد أتيت أقبِّل يدك.

- هل يعذبك شيء؟

- نعم. لكن لا بد أن يكون هذا هو الشباب أو العصارة التي تصعد. ألم تكن تسميه كذلك عندما أتيت لأعترف لك في العام الماضي؟ لفحة الشباب الملتهبة التي تفتح البراعم..؟

وربَّت الأب ياناروس على رأس الشاب الأشقر وقال:

- نعم. العصارة يا ابني. لقد لفحتني أنا أيضًا منذ زمن طويل، واليوم تلفحك أنت، وغدًا تنتقل إلى ابنك. كثيرون يسمونها ريح الشباب، أما أنا فأسميها ريح الله.

وصمت لحظة ثم أضاف وهو يبتسم:

- أنا أسَمي كل شيء الله.

وظل الفتى صامتًا متحرجًا. كان يريد أن يقول شيئًا ويمنعه الخجل. وأمسك الأب ياناروس بيده قائلًا:

- ليونيداس يا ابني افتح لي قلبك. إني أسمعك.

وارتعدت يد الشاب في يد العجوز. وكاد ينفجر باكيًا ليعبر بالدموع عما يريد أن يقول. وقال له العجوز وهو يشد على يده مشجعًا:

- هه. حسنًا.

وأجاب:

- أؤكد لك يا أبي أنه ليس ثمة شيء.. لا شيء على الإطلاق. لكني فقط مقبوض النفس كأنما أشعر بمصيبة كبيرة تقترب. ربما تكون الفتاة التي أحبها مريضة؟ أو ربما هو الموت يقترب؟ سامحني يا أبي. أنا جئت لأقول لك هذا حتى أستريح.. وقد استرحت.

وابتسم. لكن يده كانت ترتعد في يد الأب ياناروس.

وفي نفس المساء، وفي الكنيسة، شاهد أهل القرية المسيح يدخل أورشليم على جحش أتان. وفرش الناس الفقراء ملابسهم على الأرض أمامه والأطفال يلوحون بفروع السعف ويجرون خلفه ويغنون لتحيته. كان هؤلاء الفقراء يستشعرون في دخائل نفوسهم وهم أمام الأغنياء والمثقفين أن

هذا الرفيق المسكين المعذب حافي القدمين هو مخلص العالم. «هو ذا العريس مقبل في نصف الليل». وكانت الكنيسة الدافئة معبقة برائحة الشموع والبخور، والتماثيل المقدسة تتلألأ في الظلال. والكنيسة صغيرة جدًا وضيقة جدًا، لكنها حوت كل آلام المسيح وشرور البشر وخلاص العالم. كانت الكنيسة هي أورشليم والأب يانادوس يمسك لجام الجحش ويقود المسيح إلى المدينة المقدسة حيث يقتلونه. وترددت أصداء ضربات البلطة في الشجرة التي يصنعون منها الصليب. وسمع الأب يانادوس هذه الضربات وتألم كأنه الشجرة نفسها. هذا غير ممكن! لا بد أن أهل القرية يسمعونها أيضًا. ألا تلين إذن وجوههم ويشفقون على الرب الذي سيعلق على الصليب من أجلهم؟ ألن يشعروا بعد خروجهم من الكنيسة أنهم جميعًا إخوة فيمدوا أيديهم إلى المتمردين ويقولوا لهم: «أيها الإخوة، لنوقف مصادماتنا المخجلة ونسر خلف المسيح لأنه الآن في خطر..».

وتفحص الأب يانادوس الحشد بعينيه، وكله أمل في أن يجد ابتسامة صغيرة أو لمحة مضيئة في نظرة، أو تأثرًا بمرور المسيح. لكن عبثًا. انقضت عشية الأحد والوجوه جامدة لا تلين. عبثًا تدق آلام الرب قلوبهم. فقلوبهم لن تنفتح. وسيظل المسيح في الخارج لا يجد المأوى. وامتلأ صدر الأب يانادوس بالخجل والاستنكار. فلم يكد أهل القرية يستديرون إلى الباب بعد القداس ويهمون بالعودة إلى منازلهم حتى امتدت يد العجوز تحول بينهم وبين الخروج:

- قفوا أيها المسيحيون! عندي لكم كلمة.

وعبست وجوههم. والتفت ستاماتيس العجوز- أكبر شيوخ القرية الأغنياء سنًا- إلى زميله الأب تاسوس. كان الاثنان هما اللذان جلسا على مقعد وكيل الكنيسة يبيعان الشموع. قال:

- لن يدعنا نعود هذا المسيحي. أنا أريد أن أنام. ألست كذلك؟

فأجاب الأب تاسوس وهو يتثاءب بصوت مرتفع:

- فلتقطعوا أنفي إذا رجعت إلى قداسه مرة أخرى. هذه آخر مرة أترك فيها وسائل الراحة في منزلي لأظل واقفًا هذه الساعات الطويلة. ثم إنني رأيت كل هذا مرة ومرات وشبعت منه.

وتقدم الأب يانادوس إلى وسط الكنيسة وتكلم:

اسمعوا يا أولادي. هناك سبع سموات وسبعة عوالم، لكنها لا تسع الرب. ومع ذلك يسعه قلب الإنسان. فاحذروا أن تجرحوا قلب الإنسان لأنه مثوى الله. ما أشقاكم يا أهل كاستللوس، يا عبيد الشيطان يا من تقتلون إخوتكم، إلى متى تظل اللعنة هكذا على نفوسكم؟! ألا تستحون؟! ألا تشفقون على الرب الذي يدخل أورشليم هذا المساء ليصلب حبًا فيكم؟! وإذا لم تكن لديكم على الرب شفقة، ولم يكن بكم من الله خوف، فلتخافوا على الأقل جهنم؟ لسوف تحترقون فيها يا قتلة إخوتكم مجللين بالقار إلى أبد الآبدين.

وصاح فيه صوت غاضب:

- اذهب وقل هذا للأنصار!

وصاح صوت آخر:

- اذهب وقله لابنك المتمرد!

وتنهد الأبياناروس قائلًا:

- آه! صوتي لا يستطيع أن يصل أيضًا إلى الأنصار في الجبال، وإلى سادة السهل، وبعد ذلك إلى العالم كله! لكن حظيرتي صغيرة، ليست سوى كومة من الأحجار اسمها كاستللوس. وإليها أتكلم.

لكن وجوه أهل القرية ظلت عابسة. ضاعت بلا جدوى توسلات الأب ياناروس وتهديداته والله والجحيم وأبد الآبدين. كل هذا بدا في نظرهم بعيدًا جدًا لم تأت ساعته بعد. وعندما تأتي ساعته، سيكون لديهم متسع من الوقت للتفكير. أما اليوم فإن لهم مع الأنصار شئونًا أخرى كثيرة.

واقترب مندراس العجوز كبير الأعيان من الأب ياناروس يحدجه بنظرة قاتلة من قاع عينه التي يسيل على طرفيها القذى:

- هذه كلمات قدسية أيها الأب، لولا أنها تدخل من أذن وتخرج من أخرى. فإن في رؤوسنا اليوم شيئًا آخر، هو أن نصفي الأنصار. وبعد أن ننتهي من ذلك تستطيع أن تكلمنا عن الله. هل فهمت؟

فرد عليه الكلام غاضبًا:

- فهمت يا مندراس. فهمت أن الشيطان قد ركبكم وانتهى الأمر.

وأجاب الشيخ متضاحكًا في سخرية:

- أما أنت، فطبيعي أن الرب هو الذي ركبك. ماذا ستغني الآن إذن؟

فقال الأب ياناروس وهو يرفع أصبعه محذرًا:

- سنعود إلى هذا الحديث في حياة أخرى!

- أنت تبني قصورًا على الرمال يا أب ياناروس. إنه ها هنا يجب أن يكون الحديث. هنا في كاستللوس. لكن ابنك قائد الأنصار على قمة الجبل. ولو كنت أنا مكانك لقيدت القرية كلها بالأغلال يا أب ياناروس. هل تريد أن نتكلم عن ذلك دائمًا؟

وهز أهل القرية رؤوسهم موافقين. فقد قال شيخ القرية ما كان في أذهانهم ولم يجرؤوا على قوله برافوا! هكذا شعروا بالارتياح.

وأخذ كثيرون منهم يتضاحكون، وآخرون يتنحنحون، لكنهم تدفقوا جميعًا مسرعين نحو الباب. وبقي الأب ياناروس وحده في الكنيسة مع المسيح والعذراء ذات المعجزات والقديسين، يناجي الله هامسًا:

- أيها الرب! أيها الرب! ها هم الناس يصلبونك مرة أخرى.

- 3 -

في يوم الإثنين المقدس، لم يكد يطلع النهار حتى نشط الناس إلى العمل، فأومضت طلقات الرصاص، ونزل الأنصار وصعد الجنود، وتقابل نصفا كاستللوس في منتصف الجبل يذبح بعضهم بعضًا مزمجرين هائجين مسعورين.

وترك الأب ياناروس المسيح في الكنيسة فلم تكن به حاجة إلى البشر. وجرى نحو الجبل يناول الذين يموتون ويصحب الجرحى إلى القرية.

كان هذا الإثنين المقدس يومًا من أيام الله حقًا. الشمس منتعشة انتعاش الربيع. تسطع على الزهرات الأولى لنبات الزعرور، والنحل ينشط منذ الفجر يمتص رحيق الزهور الجديدة ونبات الزعتر. والغربان تحلق هناك أيضًا، تحوم حول الناس وتحط على الصخور تنتظر أن يصبح هؤلاء الناس جيفًا لتأخذ دورها في العمل.

كانت الطبيعة كلها تستيقظ متعجلة.

ويبدو أن الناس كانوا يطيعون نداء الغربان. فانطلقوا مسعورين يتقاتلون. كانوا يبدأون بإطلاق النيران ثم ينتقلون إلى الهجوم بالسنكي وينتهون إلى الخناجر والسواعد والأسنان. وتسقط الأجساد على الصخور فترطمها بصوت مرتفع ويجري الأب ياناروس من رجل يموت إلى آخر، يناول ويغلق الأعين ويرتل الصلاة، ويهم: «أيها الرب. اغفر لهم. اغفر لمن يقتلون ولمن يقتل. وإلا فأرسل نارك لتهلكنا جميعًا فلا نلطخ وجهك.».

وفي الظهر تقريبًا، تلقى الأب ياناروس بين يديه ليونيداس وهو يحتضر، وفتح عينيه ونظر إلى الأب وعرفه، وحاول أن يقول شيئًا لكن سيلًا من الدم تدفق من فمه وانطفأت عيناه. وجري أحد الجنود نحوه وفتش جسده فوجد في أحد الجيوب مفكرة صغيرة أخفاها في صدره قائلًا:

- كان قد تنبأ بذلك، كان يشعر باقتراب أجله فطلب مني أن أعطيها لمدرس القرية.

وانحنى الجندي مرة أخرى فقبل الميت، ثم التقط بندقيته، واندفع يجري نحو الجبل يطلق الصراخ المرتفع.

وكان الجندي فاسوس قد أَسَرَ متمردًا، أغمد خنجره في كتفه وألقاه أرضًا ثم تدحرج الاثنان وظلا يتصارعان، حتى استطاع فاسوس أن يفك حزامه ويربط به يديه.

وانتهت المعركة. عاد الأنصار إلى أعالي الجبل وهبط الجنود إلى المعسكر، وختموا بذلك يومهم.

كان فاسوس في طريقه إلى الوادي مع أسيره، والغيظ يملأه من الدماء التي سالت أمامه طول اليوم والمآزق الخطيرة التي تعرض لها.

فأخذ يضرب الأسير في غضب شديد بدبشك البندقية ويبصق عليه ويشتمه ونزل على العالم ظل طري، وكان النهار شديد الحرارة فاستردت الأرض أنفاسها في هذا الجو اللعين.

ونزفت الدماء من الجرح في كتف المتمرد، وبدأ الدم يسيل أيضًا من قدمه الجريحة بعد أن فقد فردة حذائه. وتعب فاسوس من الضرب فجذبه من ذراعه وأجلسه أرضًا. وتخطاهما بقية الجنود في طريقهم إلى المعسكر.

قال فاسوس:

- أريد أن أستريح لحظة. فاجلس هنا ولا تحرك ساكنًا، وإلا ابتلعتك!

وانحنى خلف صخرة وأخرج من حقيبته قطعة خبز. كان جائعًا فجلس يمضغ. وكان عطشانًا فأمسك بالزمزمية ورفعها إلى فمه. ونظر الأسير إلى الزمزمية برغبة. لم يكن حتى هذه اللحظة قد نطق ببنت شفة، لكنه لم يعد يحتمل.

- إذا كنت إنسانًا فأعطني جرعة ماء فأنا أحترق عطشًا.

ونظر إليه فاسوس كأنما يراه لأول مرة. كان ولدًا أمرد لم تنبت لحيته، له فك شرير بارز مثل فك الثعلب، وعيناه صغيرتان يملأهما الرعب. ونظر إلى يديه المقيدتين فرأى الجلد الجاف الميت يغطيهما. وكان شريطا الرصاص المتقاطعان على صدره فارغين. يبدو أنه أطلق كل ما كان معه من رصاص. لكن فاسوس بعد أن قيده أخذ بندقيته وعلقها على كتفه مع بندقيته هو.

وعاد الفتى يقول:

- لو كنت إنسانًا فأعطني أنا أيضًا جرعة ماء، جرعة فقط فأنا أحترق.

وبدأ فاسوس يضحك.

- يا خائن! أنت تبيع اليونان ثم تطلب الآن ماء؟ مت! وفتح غطاء الزمزمية مرة أخرى ولوَّح بها أمام الأسير بطريقة شريرة وحاول الأسير أن يبكي وهو يقول:

- أليس لك أم؟ أليس لك أخ؟ ألست إنسانًا؟

- كفى! أنا إنسان، أما أنت فكلب.

والتقط قطعة حجر وقذف بها إليه:

- خذ! هذه عظمة، العقها.

وصر الفتى على أسنانه ولم يتكلم.

واستند فاسوس على الصخرة وخلع حذاءه ذا الرقبة الطويلة ليستريح. كانت قدماه تلتهبان نارًا. وألقى بنظرة إلى القرية في أسفل، فسمع الصراخ والعويل يرتفع من البيوت التي تبكي موتاها. كانت الشمس قد غربت واكتسى الجبل باللون الداكن. ومن بين صخرتين رأى نجمة المساء تسطع في انتعاش وسرور.

والتفت فاسوس إلى الأسير وجذبه من قدمه العارية. فقط خطرت له لعبة، فقال وعيناه تضحكان:

- أيها البلشفي القذر. ما دمت كلبًا، فانبح. انبح وسأعطيك جرعة ماء. وانتفض الآخر وحملق بعينيه في الجندي الذي يضحك.

وصاح فاسوس:

- هيا! انبح، انبح!

وشعر الأسير بأنه فقد أنفاسه. وكان قد نسي الجرح في كتفه، لكن ها هو الألم يغلبه فجأة.

وعاد فاسوس يصيح وهو يضحك:

- هاو! هاو! هاو! هاو! هل تريد الزمزمية؟ إذن انبح يا صديقي العزيز.

وقال الآخر في همس:

- هذا يخجلني.

- إذن مت!

ثم سأله:

- اسمع. هل لك أم على قيد الحياة؟

وارتجف الفتى وغامت عيناه. ومد رقبته وشردت نظرته إلى بعيد نحو قريته وأمه. ثم إذا به ينبح نباحًا غريبًا متألمًا كالكلب الذي تنهال عليه الضربات. وظل ينبح وينبح لا يتوقف. وترددت أصداء صوته من صخرة إلى أخرى حتى وصلت إلى القرية. ومن أسفل ردت عليه الكلاب وخرج من ذلك كله تناغم مؤتلف من النباح الحزين.

وتجمد قلب فاسوس وماتت ضحكته. لم يسمع من قبل مثل هذا الألم ومثل هذا النباح. وقفز على الأسير وأغلق فمه بكلتا يديه ليسكت.

وصاح:

- توقف وإلا قتلتك!

وأمسك بالزمزمية ودفعها في فمه:

- اشرب.

وعض الفتى على عنقها في شراهة وأخذ يشرب ويشرب. وعادت إليه الحياة، لكنه ظل يشهق وينتفض.

وسحب الجندي الزمزمية قائلًا:

- كفى!

ونظر إليه. وفجأة تحرك قلبه، فسأله بصوت أقرب إلى اللين:

- هل أهنتك؟ هه؟

وأجاب الولد:

- أمي ليس لها ابن غيري.

وصمت الاثنان. وشعر فاسوس بأن شيئًا غريبًا يثقل قلبه. وسأل:

- ما هذا؟ يداك يغطيهما الجلد الميت. ما هو عملك في الحياة؟

- أنا عامل.

- إذن لماذا تحمل بندقية؟ قل لي ماذا فعلت بك اليونان؟

وعاد إليه الغضب وهو يتكلم، فصاح ووجهه يلتصق بوجه الآخر:

- ماذا فعلت بك اليونان إذن؟ ماذا فعل بك الدين؟ لماذا؟ لماذا؟

- كنت أعمل وأعمل ولكني أجوع. وأمي أيضًا كانت تجوع، وهي امرأة عجوز وخنقني الظلم. وفي يوم من الأيام صرخت في المصنع.

«العدالة! العدالة! حتى متى أيها الفتية نظل نعمل ونموت جوعًا؟» فتكاتفوا علي جميعًا- صاحب العمل والعمال- وألقوني أرضًا وارتموا فوقي وركلوني بأقدامهم خارج المصنع. وإذ ذاك شددت قبضتي أنا أيضًا ولجأت إلى الجبل. وهناك في أعلى الجبل قالوا لي إنهم يقاتلون من أجل العدالة.

- وهل وجدت العدالة على الجبل يا أحمق؟

- لا يا رفيق. لم أجدها بعد. لكني على الأقل وجدت الأمل.

- أي أمل؟

- أن تأتي العدالة يومًا ما. ليس من تلقاء ذاتها، فهي لا تملك ساقين، لكن بواسطتنا نحن، نحن الذين نضعها على أكتافنا ونأتي بها.

وطأطأ فاسوس رأسه وبدأ يفكر.

تذكر بيته وأخواته الأربع اللاتي بقين عانسات. منذ سنوات وسنوات ظل يعمل نجارًا ليجمع من المال ما يكفي مهورهن. يعمل ويعمل، فماذا جنى من العمل؟ بالكاد ما يعيش به يومًا بيوم، لا يزيد على ذلك شيء يدخره. وكانت الفتيات الأربع ينظرن في عينيه كل يوم ساخطات غاضبات. أما الكبيرة أرستيا فكانت قد شاخت وتدلى ثدياها بعد أن طال اشتياقهما إلى لمسة ترفعهما. ولم تلبث أن نبت لها شارب، وأصيبت بالصداع النصفي والأرق. ثم تحولت إلى امرأة سيئة.

كتلة من الأعصاب المتوترة. وفي بعض الأحيان تنفجر في البكاء دون سبب. وتتمرغ على الأرض وتصرخ صراخًا هستيريًا. مات أبوها قبل أن يتمكن من تزويجها. وكان فاسوس لا يزال صغيرًا يعمل صبيًا عند نجار، ويتعجل الزمن ليصبح «أسطى» يستطيع أن يكسب مهرها. لكن هذا لم يحدث. والآن تشتمه أرستيا، وتقول إنه عاجز لا قلب له، وترتمي فوقه لتخمش وجهه، ثم تجهش بالبكاء.

أما الثانية، كاليروا، فكانت تقضي كل يومها على ماكينة الخياطة تصنع لنفسها ثوب الزفاف. ثم جف عودها وغار خداها وبدأ ينبت لها شارب هي أيضًا، وفي كل مساء تقف على عتبة المنزل وقد تزينت ووضعت المساحيق على وجهها لكن أحدًا لا يلتفت إليها. فترجع إلى الماكينة دون كلمة تخيط ثوب زفافها.

أما الثالثة، تاسولا، فليست فتاة ساذجة. هي لعوب ذات ثديين مشدودين تنظر إلى الرجال ولا تريد الانتظار. وهي ليست من الفتيات اللاتي يغلقن البيوت على أنفسهن، لكنها تخرج وتقابل الصديقات.

ولهذا سرعان ما وضعت عينيها على الرجل الذي ستتزوجه. رجل طيب صاحب محل خردوات اسمه أرستيداكس وفي كل يوم تمر أمام محله وتهز عجيزتها.

وقال فاسوس لنفسه:

«أنا لا أخاف عليها، فقد وجدت الحل، ولن يلبث الرجال أن يأتوني ليطلبوا يدها. أما الرابعة دروسولا، فلا تزال في المدرسة، تقول إنها تريد أن تصبح معلمة وأنا لا أخاف عليها هي أيضًا. إنما أفكر في الكبيرتين. يجب أن أكسب بأي شكل ما يكفي لتزويجهما. وإلا فسوف أحمل ذنبهما في ضميري. لا بد من ذلك. لا بد من ذلك وإلا فقدت أنا الفتاة التي أحبها. فكيف أستطيع يا إلهي أن أتزوج؟ كيف أتزوج قبل أن أزوج الأربعة أولًا؟».

وتنهد ورفع رأسه ونظر إلى الأسير. كان هو أيضًا مطرقًا يفكر. وفكر في أن يركله بقدمه ويهينه ويبصق عليه لينفس بذلك عن شيء مما يملأ قلبه لكنه غير رأيه فجأة كأنما لان قلبه، وقال له:

- أنت أيضًا مثلي أيها الشيطان الصغير: تكدح. لكن على من يقع الخطأ؟ أنت لا تعرف شيئًا ولا أنا أعرف. فعيون الفقراء لم تخلق لترى.

وقال الفتى:

- أنا يا رفيق، بدأت أرى. لم أتمكن من تمييز الأشياء جيدًا، لكني بدأت أرى. وأنت أيضًا سوف ترى. اسمح لي أن أسألك: ما اسمك؟

- النجار فاسوس من ساموس.

- أنا يانوس من فولو.

- هل لك أخوات؟

- لا والحمد لله! أنا ابن وحيد مات أبي من الخمر. وذهبت أمي إلى بيوت الأغنياء تغسل الملابس. لكنها سقطت مشلولة. وفي كل يوم تكتب لي عن طريق ابنة عمها، فينفطر قلبي حين أقرأ كلماتها، وأكتب لها: «الصبر يا أمي الصبر. أنا لا أفكر إلا فيك. وسأعود سريعًا».

وتنهد قائلًا في همس:

- متى؟ متى؟ ربما لن أراها قط. فها أنت رأيت اليوم يا فاسوس أنه لولا شعرة واحدة لكنت قتلتني.

واحمر وجه فاسوس. أراد أن يقول شيئًا. لكن ماذا يقول؟ وكيف؟ كانت الأمور مختلطة في رأسه. كان يرى أم الفتى عجوزًا مشلولة، ويرى الأخوات الأربع ينتظرن الزواج، ويرى الأيادي الأربع يغطيها الجلد الميت وقد شوهها العمل الذي لا يجدي نفعًا. ودون أن يشعر بما يفعل نهض وانتعل حذاءه، وانحنى على الأسير وفك قيده وقال له:

- اذهب إلى الشيطان! اغرب عن وجهي!

- حر؟

- أقول لك اغرب عن وجهي.

وأضاء وجه الفتى ومد يده قائلًا:

- فاسوس. أنت أخ..

لكن الآخر لم يدعه يتم كلامه بل زمجر في وجهه مرة أخرى:

- أقول لك اغرب عن وجهي!

ويبدو أنه كان متعجلًا في طرده قبل أن يتغير رأيه.

وسأل الفتى:

- هل تعيد لي بندقيتي؟

وتردد فاسوس. وانتظر الآخر ويده ممدودة في إلحاح:

- هه؟

- خذها.

وأمسك الفتى بالبندقية ووضعها على كتفه وانطلق إلى القمة.

ونظر إليه فاسوس وهو يصعد لاهثًا مقوس الظهر. لا بد أنه يتألم، لأن كل ظهره كان مخضبًا بالدم. وصاح فيه:

- انتظر!

ولحق به. واستخرج من الحقيبة ضمادًا طبيًا ونزع سترته وضمد له الجرح، ثم قال:

- انطلق، لكن بسرعة، قبل أن يركبني الشيطان مرة أخرى.

أتى الليل. وقبل أن يحل الظلام تباعد الفريقان، فلم يعد يسمع على البعد سوى صوت بنات آوى.

كان الأب ياناروس منهك القوى فاستلقى على مصطبة الكنيسة.

قلبه وشفتاه ورأسه تمتلئ سُمًّا. كان يقول في همس: «يا يسوع، لم أعد أحتمل. أقول لك الحق لم أعد أحتمل. أنا أرسل لك صيحاتي منذ شهور وشهور، فلماذا لا ترد؟ يكفي فقط أن تمد يدك نحوهم ليتفقوا. فلماذا لا تمدها؟ ليس في الدنيا شيء يأتي عكس إرادتك. فلماذا تريد هذه المذبحة؟».

كان الأب ياناروس يسأل وما من مجيب. لا شيء إلا الصمت الكبير.

ومن حين لآخر يرتفع نحيب في البيوت التي تبكي موتاها. ومن حين لآخر يرتفع من بعيد صوت بنات آوي تأكل هؤلاء الموتى. ورفع الأب ياناروس عينيه إلى السماء يتأمل النجوم طويلًا دون أن يتكلم. كان طريق التبانة يجري عبر القبة الزرقاء كأنه نهر. وتأمله الأب ياناروس قائلًا: «هذا هو حزام العذراء الحقيقي. كله حلاوة وسكون. آه! ألا تستطيع أن تلف حزامها حول الأرض أيضًا؟».

ولم يغمض الأب ياناروس عينيه طوال الليل. ظل دون توقف يسأل الله حتى طلوع الفجر وينتظر جوابه.

وفي الفجر، دقت بابه امرأة عجوز، وقالت له وهي تنحب:

- انهض. ابن الأب تاسوس يموت ويجب أن تناوله.

كان قد جرح على الجبل بالأمس. وعهد به الأب ياناروس إلى رجلين ليصحباه إلى القرية. كان يحبه. فهو شاب وسيم يتألم في نفسه من رؤية الفقر، ويسرق الخبز سرًا من بيت أبيه ليوزعه على الجوعى. اسمه سقراتيس. وغالبًا ما كان يحضر إلى الأب ياناروس ويتعلم منه الرسم. فقد كان يبحث عن طريقة يهرب بها من صياح أبيه ومن شرور القرية. وتعلم شيئًا فشيئًا كيف يعمل الفرشاة، فيرسم بعض القديسين أحيانًا، وفي أحيان أخرى يرسم الفتيات الجميلات اللاتي يراهن وهو نائم، لأن هؤلاء اللاتي يراهن بالنهار لم يترك منهن الفقر والعمل الشاق سوى الحطام.

كانت الأم جالسة على وسادة ابنها وهو يحتضر. لم تكن تبكي. فقد تعودت على الموت، ورأته يأخذ أبناء آخرين، وأولاد عم وبنات عم وإخوة وأخوات. فالموت في هذا المنزل ضيف مألوف وصديق للعائلة. يدخل ويختار من يريد ويرحل، وبعد فترة من الوقت يعود مرة أخرى. والعجوز ترى الواحد يغيب تلو الآخر والبيت يفرغ، فتعقد يديها وتنتظر دورها. وفي إحدى المرات قالت للموت في رجاء: «خذني أنا ولا تأخذ سقراتيس». ولم تكن تعرف أن الموت أصم. وها هي اليوم جالسة ترى ابنها يرحل، وتمسك في يدها منديلًا تهش به الذباب عن جسده.

وانحنت فوق الشاب تخبره بكل من ماتوا على الجبل، وتطلب منه ألا يقلق، فسوف يحضر الأب ياناروس لمناولته. وأوصته بما يبلغه لأهل القرية المتوفين، وماذا يجب أن يقول لهم عندما يلتفون حوله تحت الأرض يستفسرون. منذ الأمس بدأت تعدد له هؤلاء الذين تزوجوا أخيرًا وكم أنجبوا من الأطفال. ثم ماذا عن النعاج والماعز هذا العام؟ شيء يثير البكاء! لم تبق منها شعرة. أكلها جميعًا رجال البيريه الأحمر، اللهم اكتم أنفاسهم! والأب مندارس باع بيت بيلاجيا المسكينة لأنها كانت مدينة له، وها هي تتسكع ليوم في الطرقات. يا مصيبتها!

«ولكن لا تقل لهم إنها أتت تدق بابنا وارتمت على قدمي أبيك ليسمح لها بالمبيت في الزريبة فركلها أبوك بقدميه وألقى بها خارج الدار. يجب ألا تقول لهم ذلك يا ولدي».

وكان الابن يلهث. عيناه المفتوحتان أصبحتا كالزجاج. لم يعد يرى ولا يسمع. لكن أمه ظلت تنحني عليه وتهمس له بكل ما يجب أن يقول هذا المساء لأهل القرية المتوفين عندما يلتفون حوله ويسألون.

ووصل الأب ياناروس وصمتت العجوز وانتحت ركنًا من الحجرة تنظر ويداها معقودتان. ومن وقت لآخر تمسح أنفها بطرف كمها. وحاول الأب ياناروس أن يناول الجريح. لكنه كان يشهق ويأخذه الفواق ثم يقيء دمًا.

ونهض الأب واقفًا وبدأ يقول صلاة الموتى: «أيها الرب، لترقد روح عبدك مع أرواح الأبرار...» كان هو أيضًا قد تعود على الموت، فظلت عيناه جافتين وصوته لا يرتعد. لكنه مع ذلك لم يكن يغفر للموت أن يختار من الشاب ضحاياه.

ورأت الأم أنه انتهى من صلاته فرسمت علامة الصليب وقبلت يد الأب وعادت إلى جانب ابنها. وفجأة وصلت إلى أنفها من ناحية المطبخ رائحة شيء يقلى. وقالت لنفسها: «لا بد أنهم وجدوا شيئًا من عش الغراب. فيجب أن أذهب لأرى». ونهضت ورأت ابنتها الكبرى ستلا تقلي عش الغراب. فأخذت منه العجوز ملء يدها واقتطعت شريحة من الخبز. كانت جائعة. ثم عادت إلى جانب ابنها وجلست بخفة شديدة على وسادته وبدأت تمضغ طعامها.

وانتهت حشرجة الشاب. وانحنى الأب ياناروس يضع يده على قلبه. لم يعد القلب ينبض. وعلى الفور بلت الأم أصبعين باللعاب وانحنت تلمس الأرض، ثم أغلقت عيني الميت قبل أن تتصلبا. ودخلت الابنة الكبرى بعد ذلك وفي يدها قطعة من الحجر حفرت عليها ثلاثة حروف: ي. م. م يسوع المسيح المنتصر، ووضعتها في يد أخيها قائلة:

- وداعًا يا سقراتيس، بلغ تحياتي لمن سبقوك.

ومسحت العجوز عينيها وأضافت:

- الوداع يا صغيري.

وفي المساء، عاد الأب ياناروس منهكًا من الجبانة. ها هو شاب جديد ضمته الأرض ليصبح ماء وترابًا. لكن أباه تاسوس العجوز من أعيان القرية الأثرياء ضن على جنازة ابنه ببعض الخبز

والزيتون. ولم يفكر في أن يخرج من الكهف المغلق زجاجة من أجل جنازة ابنه. وعاتبته زوجته فقال لها:

- ألم يكفني أن أفقد ابني حتى أبدد أيضًا خبزي وخمري وزيتوني؟ حسبي إذن ألم واحد!

وفي هذا اليوم امتلأ قلب الأب ياناروس بموتى آخرين. طوال الأسبوع المقدس كان عليه كل ليلة أن يقود المسيح خطوة خطوة إلى القبر. في كل ليلة يشيع الموتى. واليوم كانوا كثيرين. وقال لنفسه وهو يعود إلى منزله: «كم أتمنى لو استطعت أن أستلقي أنا أيضًا وأغلق عيني ثم أخلع عن نفسي هموم البشر كما يخلع عن الجسد قميص قذر، لا يشغلني سوى شيء واحد، هو الحمار العجوز ياناروس! أعلفه وأواسيه حتى يستطيع هذا الشقي أن يجد القوة ليحمل روحي. فما أثقل هذه الروح. الحمار لم يعد يحتمل ثقلها، ومن المؤكد أنه سينهار. أواه يا أب ياناروس!».

وظل يضرب في الطرقات على قدميه. كانت الأبواب موصدة بإحكام، والسكون يخيم على القرية. الناس تعبوا من البكاء فصمتوا. ودقت طبلة خلف المعسكر. وكانت الشمس تغرب، والجبل يتحول إلى اللون الداكن، لكن النجوم لم تكن قد طلعت بعد. وهبَّت من الجبل نسمة طرية. وشعر الأب ياناروس لحظتها بالراحة حين صافحت جبهته التي يسيل منها العرق. وكان قد اقترب من باب بيته، لكنه توقف فجأة. رأى طفلًا يموت من الجوع فيرقد مقلوبًا على وجهه في عرض الطريق وبطنه منتفخة يغطيها لون أخضر، يغترف بأظافره تراب الأرض ويأكله. ووقف الأب ياناروس وعيناه ممتلئتان بالدموع. وأمسك الطفل من يده وقال له:

- انهض يا صغيري. هل أنت جائع؟

- لا. لقد أكلت.

- وماذا أكلت؟

ومد الطفل يده الصغيرة يشير إلى التراب: من الأرض.

وغلي الدم في عروق الأب ياناروس، وتأوه كأنما يختنق، وحدَّث نفسه قائلًا: «هذا العالم كريه. وأنت الذي تمسكه بيدك يا إلهي. أليس خيرًا له أن تدفعه فيتحطم ألف قطعة؟ ويصبح بذلك طينًا تخلق منه عالمًا أحسن؟ ألست أنت الرحمن الرحيم؟ ألست أنت القادر على كل شيء؟ ألا ترى هذا الطفل يأكل التراب؟».

وأطرق برأسه في خجل ثم مضى في طريقه، وقال هامسًا:

- إنه ذنبي أنا وذنب البشر أن يأكل هذا الطفل ترابًا. وليس ذنبك يا إلهي. الذنب في رقبتي.

واسترجع في ذاكرته قصة مزقت قلبه. فقد ذهب في أحد الأيام إلى إستنبول لتحية البطرك الجديد. ودعاه حاخام من أصدقاء البطرك إلى زيارة بيته في الحي اليهودي- إذا شاء ذلك ولم يجد فيه خطيئة. كان اليهود يحتفلون بالعام الجديد وأخذ بعض الفنانين اليهود يعزفون قطعًا موسيقية تتناسب مع الخشوع الديني. وجاس الحاخام إلى جانبه يشرح له ما يجرى. ورأى في هذه الليلة وسمع أشياء كثيرة، لكن لم يعلق في ذهنه سوى كلمات معدودة بقيت في ذاكرته كالسكاكين القاطعة

لا يذكرها إلا وتسيل دموعه. فقد شهد في غرفة نوم الحاخام منظرًا جرى على غير توقع. تقدم في الغرفة رجل شاحب الوجه عظامه بارزة يمسك في يده طفلًا صغيرًا. ومن خلف الستار ترددت الأغنيات والضحكات. فقد كانت الموائد تعد للعام الجديد ليشرب كل الناس ويأكلوا ويحتفلوا. وفي وسط الغرفة جلس بعض الأغنياء ببطون بارزة ضخمة. ولم يلبث هؤلاء أن قاموا قائلين:

- الموائد معدة. فلنذهب إلى الطعام.

وانتقلوا وراء الستار، وتركوا الرجل الشاحب وحده مع طفله. وتوسل الصغير قائلًا:

- لنرجع إلى البيت يا أبي!

- لماذا يا ابني؟ ماذا نفعل هناك؟

- أنا جائع.. لنرجع إلى البيت لنأكل!

- نعم، نعم.. لكن اسمع يا دافيد.. ليس لدينا في البيت ما نأكل.

- حتى قطعة خبز صغيرة فقط.

- ليس لدينا حتى الفتات يا دافيد.

وصمت الطفل. وربَّت الأب على رأسه.

- اسمع يا دافيد. هل تعرف العيد الذي نحتفل به اليوم؟

- نعم.

- إذن قل لي يا دافيد، ماذا فعلنا اليوم؟

- أدينا الصلاة يا أبي.

- نعم. وماذا فعل الله سبحانه؟

- غفر لنا خطايانا.

- حسنا يا دافيد. ما دام الله غفر لنا خطايانا فيجب إذن أن نكون مسرورين، أليس كذلك؟

وصمت الطفل.

- هل تذكر يا دافيد في العام الماضي قبل أن تموت أمك كيف غنينا على المائدة أغنية جديدة ذات لحن جميل، هل تذكر؟

- لا.

- سأذكِّرك بها. حاول أن تغني معي...

وبدأ الرجل يغني بصوت مؤلم لحنًا رتيبًا حزينًا يمزق القلب وأخذ الطفل يغني معه وهو يبكي. وجفف الأب يانـاروس عينيه ونظر حوله كي لا يراه أحد. ومرت على ذلك سنوات كثيرة،

لكن هذا اللحن لا يزال يمزق قلبه حتى اليوم. كان اللحن يخرج بطريقة غريبة، كأنما القشرة الرقيقة التي تلف أحشاء الرجل قد تفتت فجأة، القشرة المصنوعة من هموم الحياة ومن مظاهر الجبن الصغيرة، فانفجر إلى الخارج هذا اللحن الذي لا يحتمل. كل الأشياء الرهيبة التي يستشعرها الرجل في داخل نفسه ويكتمها في سراديب أحشائه ولا يجرؤ على إظهارها وتأملها، انطلقت حرة في هذا اللحن، فرأى فيه الأبياناروس مذعورًا أحشاءه هو وأحشاء العالم كله.

وعاد الأب ياناروس أدراجه وأمسك بالطفل من يده قائلًا:

- هيا إلى المنزل يا صغيري عندي لك قطعة من الخبز.

وسحب الطفل يده مرددًا:

- لست جائعًا. قلت لك لست جائعًا.

وبدأ يبكي.

واستدار الأب ياناروس نحو الكنيسة مزمجرًا في غضب:

- إني ذاهب أفضح هذا العالم لله!

***

دخل الأب ياناروس بيته بجوار الكنيسة. كان أقرب إلى الغرفة الصغيرة منه إلى المنزل، تشبه تلك التي فيها على جبل آتوس. في الغرفة منضدة ومقعدان، وأريكة صغيرة ينام عليها. وفوق الأريكة يعلق أيقونة للقديس قسطنطين، رسمها بنفسه على نموذج الأيقونات التي كان إخوان الأنستنار يحتضنونها وهم يسيرون فوق الفحم الملتهب- هناك في القرية على شاطئ البحر الأسود.

لم تكن للقديس هالة سماوية ولا حذاء جليل. فالهالة كانت لهبًا، والقديس يرقص عل الفحم الملتهب بقدمين حافيتين وركبتاه مرفوعتان عاليًا. وكان البعض يدهشون لهذه الصورة، فيقول لهم الأب ياناروس: «هذا القديس قسطنطين يمشي على النار. فهو من إخوان الأنستنار مثل كل القديسين في الماضي، ومثل كل الأبرار الذين يعيشون في الدنيا في هذه النار التي تسمى الحياة».

لكن أجمل ما في الغرفة صورة محفورة على الخشب بطريقة رائعة موضوعة على المنضدة بجانب الإنجيل، تصور الدينونة الأخيرة، أعطاه إياها الأب أرسنيوس النحات المشهور في دير القديسة آن على جبل آتوس. لم يكن الأب ياناروس يشبع من النظر إليها. وكلما تأملها انفعل قلبه وصاح من داخله صوت يقول: «لا! لا!» لكنه لم يكن يدرك ما الذي يصيح ولماذا يصيح.

في وسط اللوحة كان المسيح في صورة القاضي الصارم يمد يديه: اليد اليمنى تبارك، واليسرى تهدد بقبضة مضمومة. على يمينه آلاف الأبرار يضحكون بعد أن تذوقوا حلاوة الفردوس، وعلى يساره آلاف الأشرار يبكون والهلع الذي لا يمكن وصفه يكسو وجوههم وأفواههم التي تلتوي بالصراخ! والعذراء تخر باكية على قدمي المسيح وترفع رأسها ويديها لتشير إلى الأشرار وفمها شبه مفتوح. وقيل إنها كانت تصيح: «الرحمة لهم يا ابني».

وانحنى الأب ياناروس وقبَّل الدينونة الأخيرة، ونظر إلى العذراء وهي تبكي ثم قال فجأة:

- يا إلهي، من يدري؟ لماذا لا تكون العذراء أمك هي القلب الذي يتوسل؟ واستلقى على الأريكة يغلق عينيه وعلى ركبتيه الدينونة الأخيرة. لم يكن يريد أن ينام رغم أنه منهك القوى تمامًا. واسترجع تحت جفنيه المغمضين صورة الأب أرسنيوس. وعادت إليه ذكرى اليوم المقدس الذي قابله فيه لأول مرة.

كان ذلك في الشتاء في يوم ساطع الشمس، والأب ياناروس يسير، وعلى كتفه جراب، أمام دير القديسة آن. وهو دير ساحر تحيط به الخضرة. كانت الثمار الحمراء تلمع في شجر البرتقال خلال الأوراق الملساء الضاربة إلى السمرة. خارجها لهب أحمر وداخلها عسل حلو.

وفكر الأب ياناروس: «إن إرادة الله تشبه هذا البرتقال. فهي من العسل والنار». وامتلأت عيناه بالدموع. كم شعر بالسعادة تملأه فجأة بين هذه الروائح المعطرة وهذا الكون، وأمام البحر الخالي الذي يبرق في اخضرار وزرقة من بين أشجار البرتقال المحملة بالثمار.

ودخل في إحدى الحجرات. أربعة جدران بيضاء، وفي السقف يتدلى عقد من السفرجل الناضج. والحجرة كلها معبقة برائحة السفرجل وخشب السرو. ورأى هناك راهبًا شاحب الوجه جاف العود يجلس على مقعد وينحت قطعة من الخشب يمسك بها على ركبتيه. كان ملتصقًا كله بقطعة الخشب هذه: صدره ووجهه وروحه. العالم كله سقط في عماء لا تقوم له قائمة إلا في هذا الركن الإلهي على يد هذا الراهب وقطعة الخشب، كأنما كلفه الله بأن يعيد خلق العالم من جديد. كم كان جميلًا ووجهه يميل فوق الخشب ويرتعد. تقدم الأب ياناروس خطوة نحو الراهب وانحنى فوق كتفه، وكتم في نفسه صيحة. فما أروع ما كان يرى! يا للبراعة والصبر والإيمان! كان هذا يوم الدينونة الأخيرة منحوتًا على خشب السرو يموج بالحياة والأشخاص، بعضها يرتعد هلعًا وبعضها يفيض رقة، والمسيح في الوسط، وعلى قدميه العذراء، وملاكان من يمين ومن يسار ينفخان في بوق القيامة.

وحيَّاه الأب ياناروس قائلًا بصوت قوي: «ليباركك الله يا أبي». لكن الراهب كان غارقًا في معاناة الخلق فلم يسمع شيئًا.

فتح الأب ياناروس عينيه. كان الظلام قد حل. والمصباح الصغير الذي أشعله أمام القديس قسطنطين يرسل في الغرفة ضوءًا ضعيفًا لا يكاد يصل إلى لوحة يوم الدينونة التي يحملها على ركبتيه ولا إلى السفرجل المدلى من السقف. كان كل شيء هادئًا. فالقرية نامت. ورأى من النافذة الضيقة قبة الكنيسة تلمع. كانت قد طليت أخيرًا باللون الأبيض. ورأى نجمتين في قطعة من السماء.

وأغلق الأب ياناروس عينيه مرة أخرى وعاد إلى حجرة أرسنيوس على جبل آتوس. كم من الأحاديث الهادئة تبادلا معًا. وكم من الليالي قضاها إلى جانبه فمرت كالنسيم! من المؤكد أنه هكذا تمر الساعات والأيام والقرون في الفردوس. الساعات تمر وروحاهما تنتفضان أمام الله وتهدلان كما يهدل الحمام.

وسأله الأب ياناروس يومًا، وهو ينظر إلى البحر خلال أشجار البرتقال وتحرقه الرغبة المفاجئة في أن يفر هاربًا:

- كيف تستطيع يا أب أرسنيوس أن تعيش وتتماسك هكذا وأنت وحدك تمامًا؟ أنت تعيش في العزلة منذ سنوات طويلة يا أب أرسنيوس.

وأجابه:

- مضى عشرون عامًا يا أب ياناروس وأنا أغلق على نفسي هذه الغرفة، مثل دودة القز في شرنقتها.

ثم أشار إلى غرفته قائلًا:

- وهذه شرنقتي.

- وهل تكفيك؟

- تكفيني لأن لها نافذة صغيرة أرى منها السماء.

ويأتي الليل. ويمر منتصف الليل. وفجأة ينزل الإلهام على الأب أرسنيوس فيمسك بأدواته الدقيقة ويغيب في صمت مطبق ويبدأ يسجل على خشب السرو رؤياه الإلهية قبل أن تفر منه.

وفي إحدى الليالي حضر راهب شاب من دير لافرا يحمل إحدى الرسائل. وكانا يتكلمان معًا فسمعا صوتًا يتنهد خلفهما. واستدار الأب ياناروس فرأى الراهب الصغير ينصت إليهما فيما يشبه الوجد، وسأله:

- ماذا تفعل هنا وأنت تتنصت لنا؟ ماذا تفهم من ذلك؟

- لا شيء. لكني أسأل الله أن يمنحني نعمة الإنصات إليكما وأنتما تتكلمان هكذا إلى الأبد. من المؤكد أن هذا هو الفردوس.

وفجأة تحركت في نفس الأب ياناروس من جديد الرغبة الشديدة في أن يرحل عن كاستللوس، يحمل الرب ويرحل مرة أخرى. فهنا في كاستللوس تبلى روحه وتفقد في كل يوم ريشة من جناحيها. إنه يصارع الناس منذ سنوات عديدة ويرفع صوته على منبر الكنيسة وفي الشارع وفي كل مكان يرى فيه بشرًا. فما الذي وصل إليه؟ هل انتهى الشر أو حتى تناقص؟ هل ألقوا القنابل وتوقفوا عن القتل؟ هل هناك رجل واحد أو امرأة واحدة أصبحت أحسن مما كانت؟ لا أحد. فليرحل. ليرحل. ليحمل الرب ويرحل. ليبحث عن أرسنيوس! هل يا ترى لا يزال على قيد الحياة؟ هل لا يزال ينحت روحه على الخشب؟ إذن لأبنِ حجرة إلى جانبه، شرنقة في الصحراء، لا أرى منها شجر البرتقال ولا البحر، ولكن فقط قطعة من السماء خلال النافذة. وأذهب أحيانًا إلى الأب أرسنيوس أبادله الدمعات الحلوة التي يسكبها في عزلته. فهو الصديق الوحيد والضمير التقي الوحيد الذي قابله على الجبل المقدس. وكم من مرة استدعاه بفكره إلى جحيم كاستللوس، فكانت روحه تجد العزاء في تلك اللحظات. وقال لنفسه: «طالما بقيت مثل هذه النفوس، فالعالم سيتجنب الدمار، إن الأب أرسنيوس عامود: يرفع العالم من فوق الهاوية..».

كان الأبياناروس يغمض جفنيه ويعقد يديه على يوم الدينونة الأخيرة ويفكر في صديقه، ويبدو له جبل آتوس كاللوحة القديمة المقدسة التي تآكلت بالزمن واخضرت بالرطوبة. وفجأة غلبه النوم. ورأى في المنام حلمًا:

علا النداء من بوق الدينونة فبدأت الأرض تهتز وتنتفخ ويخرج منها الموتى بالآلاف عجائن من الطين لا تزال. وفي الشمس يتجمدون وتتصلب عظامهم وتتشكل أجسادهم من جديد، وتنشأ لهم عيون جديدة في قيعان محاجرهم وتعود أسنانهم المبعثرة تدخل في أفواههم وتنتفخ صدورهم بالنفوس، ويجرون جميعًا لاهثين يصطفون: بعضهم على يمين المسيح وآخرون على يساره. ويتربع المسيح بين السماء والأرض على حشية زرقاء مطرزة بالذهب. وعلى قدميه تسجد العذراء تتضرع إليه. ويلتفت المسيح إلى اليمين ويبتسم، فينفتح على الفور باب الفردوس من الزمرد، وتأتي ملائكة حمراء فاقعة اللون ذات أجنحة زرقاء وتحتضن الأبرار وتغني لهم وتقودهم إلى مثوى الرب خلال بساتين مزهرة. وبعد ذلك يلتفت المسيح إلى اليسار ويعقد ما بين حاجبيه، فترتفع نحو السماء صرخة مبكية، ويجتمع عدد لا حصر له من الزبانية لهم قرون وشعر كث يمسكون الحراب ذات الرؤوس الحادة يطعنون بها الخطاة ليسرعوا إلى الجحيم، وتسمع العذراء الصراخ فتعود إليهم وقلبها يفيض شفقة وتصيح:

«يا أولادي، لا تبكوا.. إن ابني عادل، لكنه كذلك رحيم. فلا تخشوا شيئًا..».

ويبتسم المسيح ويقول:

«يا أولادي، لقد أردت تخويفكم. تقدموا. فقلب الرب يتسع للأبرار وللخطاة. ادخلوا الملكوت!».

ويقف الأبالسة مذهولين، وتسقط الحراب ذات الرؤوس من أيديهم، ثم يبدأون في الشكوى هم أيضًا صائحين:

«ونحن أيها الرب ماذا ستفعل بنا؟».

وينظر إليهم المسيح وكله عطف. وما يكاد ينظر حتى تتساقط شعورهم وقرونهم وترقُّ وجوههم. ثم إذا بأجنحة زرقاء تنبت من أكتافهم طريقة ملتوية. ويقول المسيح:

«ادخلوا أنتم أيضًا ملكوت الله، فالدينونة الأخيرة ليست العدل ولكنها الرحمة».

وفي أثناء كلامه ينزل رذاذ من المطر، فيسمح الأبرار والخطاة والجحيم والفردوس والمسيح، ويستيقظ الأب ياناروس صارخًا، ثم يرسم علامة الصليب ويقول بصوت خافت:

- يا إلهي، كم من الأبواب تنفتح في دخائلنا ونحن نيام! وكم من الأجنحة! يا إلهي، لو كنت تسجل علينا أحلامنا أيضًا، لأصبحنا من المفقودين!

وترددت أصوات الليل مرة أخرى. وارتفع في السكون من بعيد صوت بنات آوي تهبط إلى كاستللوس.

وتحدث الأب ياناروس إلى نفسه قائلًا:

«الليل يحل، فتبدأ المذبحة الليلية: العصافير والفئران والديدان وبنات آوي وكل الأشياء الحية تقفز بعضها على البعض الآخر لتقتله أو لتزاوجه. يا إلهي، كم هو غريب هذا العالم الذي خلقته! أنا لا أفهم!».

وفجأة قفز إلى الباب في خطوة واحدة مرهفًا أذنيه: فقد سمع في وسط الظلام خلف الكنيسة ما يشبه حشرجة شخص يختنق.

أمسك العجوز بعصاه وأسرع إلى الخارج، كان الليل هادئًا لينًا مثل كل الليالي التي تعقب معارك الناس ومذابحهم. وكانت النجوم تنحدر نحو الأفق. وخيل للأب ياناروس أنها مصابيح صغيرة علقها الله في الفضاء الأسود. وقال لنفسه: «إن النوم عادل يعطينا ما تمنعه اليقظة عنا». وسرت في قلبه فجأة نسمة حلوة، فقد كان عسل الحلم الذي رآه لا يزال يرطب أحشاءه، وقال: «كم أتمنى لو كان هذا الحلم حقيقة، فتجري الأمور يوم الدينونة الأخيرة كما رأيت: الرحمة! الرحمة! لا العدالة! فالإنسان بائس جدًا لا يحتمل العدالة. وهو عاجز يبدو له الإثم مريحًا وأوامر الله ثقيلة. والعدالة شيء حسن بالتأكيد، لكن للملائكة. أما الإنسان فهو بائس جدًا يحتاج إلى الرحمة...».

ودخل الأرض الملحقة بالكنيسة. من هنا أتى فيما يبدو صوت الحشرجة التي سمعها. وخطا بين القبور القديمة، القبور التي جرت العادة أن يدفنوا فيها رعاة كنيسة القرية. ها هنا كان قد حفر بيديه قبرًا لنفسه هو أيضًا، وقطع بنفسه أيضًا حجر الشاهد، ونقش عليه بحروف كبيرة مطلية بالأحمر:

«أيها الموت، أنا لا أخافك».

وقف الأب ياناروس لحظة أمام قبره مسرورًا يقول في همس: «أيها الموت أنا لا أخافك» وفجأة شعر بأنه حر. ما هو الإنسان الحر؟ هو الإنسان الذي لا يخشى الموت. وتحسس لحيته متأملًا، يشكر الله: «يارب! هل توجد في الدنيا سعادة أكبر من سعادة هذا الذي لا يخاف الموت؟ لا. لا يوجد».

في ذلك الوقت وصلت إلى أذنه من جديد هذه الحشرجة المجهولة تأتي مبحوحة من بعيد. وأسرع الأب ياناروس في طريقه يقول لنفسه: «ربما يكون هذا صوت جريح نسيه زملاؤه وعاد إلى القرية». وأخذ ينظر يمينًا وشمالًا ويرهف أذنيه.

وخرج من القرية وسار في طريق الجبل. وأخيرًا سمع وقع أقدام بطيئة متهالكة. وتدحرجت قطعة حجر. كان شخص ما يهبط الجبل. وجرى الأب ياناروس يتعثر في قطع الحجارة، وإذا بصوت خفيض منهك يصل إليه:

- يا أب ياناروس، هل هذا أنت؟

واستطاع العجوز أخيرًا أن يميز في الظلام رجلًا يستند على صخرة ويمد له يديه. واقترب منه مسرعًا وأمسك بساعده وانحنى ليراه. كان شابًا أشقر شديد الضعف. كله عظام بارزة. ولابد أنه كان جريحًا، فقد كان يقبض بيديه على صدره ويئن. وتحسس الأب ياناروس جسمه فتخضبت يداه بالدم.

وسأله بصوت خافت كأنما يبحث عن سر خطير:

- من الذي جرحك؟

وأجاب الشاب:

- أجدر بك أن تسألني: من الذي لم يجرحك؟ من المؤكد أنه شيوعي لأنني مسيحي، ومن المؤكد أنه مسيحي لأنني شيوعي. في الحقيقة لم أستطع أن أحدد.

- تعال معي فبيتي قريب وسنغسل الجرح هناك. هل هو جرح خطير؟

لكن الفتى عاد يسأله:

- هل أنت الأب ياناروس؟

- نعم، أنا الذي يسميه الناس الأب ياناروس، ويسميه الله الآثم، وهذا اسمي الصحيح.

ثم سأله مرة أخرى:

- هل جرحك خطير؟

ولف الشاب ذراعه حول كتفي العجوز وبدأ الاثنان يهبطان يسند أحدهما الآخر. وأجاب الجريح:

- أنت تعرف جيدًا يا أب ياناروس أن الجروح تكون دائمًا خطيرة حين تصيبنا من الإخوة.

وصمت الاثنان وهما يدخلان القرية. كانت قبة الكنيسة مطلية بيضاء تلمع في رقة. ودفع الأب ياناروس الباب المجاور للكنيسة ودخلا.

وأجلس العجوز الفتى على الأريكة قائلًا:

- اجلس يا ولدي.

وأشعل المصباح فأضاء وجه الغريب. وجه شاحب حزين ذاهل.

وانتفض الأب ياناروس حين رآه. لقد رأى هذا الشاب من قبل في مكان ما. لكن أين؟ ومتى؟ وهل كان ذلك في حلم؟

كان يلبس رداء الكهان ويعلق على رقبته صليبًا من الحديد، وعيناه الزرقاوان تنظران إلى العالم باندهاش كأنما تريانه لأول مرة. وبهذا المنظر نفسه كان الأب ياناروس يتخيل دائمًا كبير الملائكة جبريل عندما ينزل إلى الأرض يقول لمريم: «أحييك يا ذات اللطف!».

وفجأة تذكر الأب ياناروس كل شيء فيما يشبه التجلي. كان مطران جانينا قد أمره أن يرسم إشارة. حدث ذلك منذ سنوات عديدة. فرسم الملاك جبريل في صورة هذا الراهب الشاب تمامًا وبنفس العينين. وارتعدت فرائص الأب ياناروس وهو يقول لنفسه: «ما هو سر القلب البشري» هل لديه القدرة على أن يصنع هذا العالم؟ من المؤكد أن النفس قبس من نار الله، تكمن تحت لحم الإنسان لتشعله كحزمة من القش».

ومال على الراهب الشاب يسأله بصوت مرتعش:

- من أنت يا ابني؟

لكن الجريح عض على شفتيه وقال:

- أنا أتألم.

وشعر الأب ياناروس بالخجل لأنه نسي الجرح وأخذ يسأل ويستفسر. فجرى يبحث عن جرة الماء. وفتح رداء الكهان الذي يلبسه الجريح وغسل الجرح ودهنه بشيء من المرهم يحتفظ به دائمًا للطوارئ المؤلمة. ثم ربط الجرح وجعل الشاب يستلقي على الأريكة وجلس إلى جانبه.

وشعر الجريح بالارتياح ففتح عينيه ونظر إلى الأب ياناروس وابتسم قائلًا:

- أشعر بتحسن. بارك الله فيك.

وأغمض عينيه مرة أخرى.

- هل تريد أن تنام يا ابني؟

- لا، أريد أن أستجمع روحي لأجد القدرة على الكلام.

- استرح أولًا ولا ترهق نفسك، أنا لا أسألك من أنت ولا ماذا تريد هنا من صخور كاستللوس. أنا لا أطلب منك شيئًا فاسترح.

- لكي أستريح يجب أن أكلمك يا أبي لهذا السبب أتيت. إن عندي سرًا. وسأل الأب ياناروس في قلق:

- سر؟

وقال في نفسه: «ربما كان مجنونًا. فعيناه من هذا النوع الذي يرى المجهول. ولا يملك هذا النوع من العيون إلا الملائكة والمجانين».

وعاد يسأل:

- أي سر؟

وازدرد الشاب لعابه في ألم وظل صامتًا لحظة ثم قال:

- أعطني كوب ماء. فحلقي جاف. عذرًا يا أبي.

وعندما أنعشه الماء تكلم:

- عندما جرحت، توسلت إلى الله أن يعطيني القوة لكي أصل إليك فأودعك هذا السر قبل أن أموت. فربما أموت يا أبي.

وقال له الأب ياناروس:

- لا تتكلم هكذا.

كان يمتلئ بالعطف العميق نحو هذا الصبي الذي يكافح أمامه عزرائيل. يكافح الرب.

- هل تخاف الموت يا أب ياناروس؟

وابتسم الأب ياناروس قائلًا:

- لا.

- وإذن؟

ولم يجب الأب ياناروس. كان يريد أن يقول إن الموت هو الذي يخاف منه ويرفض أن يأخذه بينما يختطف الشباب في ريعان شبابهم. ولكنه لم يتكلم.

- وأنا أيضًا يا أبي. كنت أخشاه منذ زمن، عندما كنت أصغر سنًا. لكن ناسكًا قديسًا قال لي كلمة أصلحت بيني وبين الموت.

- ما هذه الكلمة؟ أريد أن أسمعها أنا أيضًا.

- قال لي: «الموت هو الأثر الذي يتركه الله على الإنسان الذي يلمسه». وأنا أشعر أيها العجوز بيد خفية تلمسني في قلبي. ولهذا السبب أنا متعجل. لهذا السبب استجمعت قواي وحضرت إليك أودعك سري. فلست أريد أن أحمله معي وأموت.

- تودعه لي أنا؟ إن عمري سبعين عامًا.

- عمرك عشرون عامًا يا أب ياناروس. فأنا أعرفك جيدًا، والأب أرسنيوس..

وانتفض الأب ياناروس:

- من؟ الأب أرسنيوس في الدير؟

- نعم في دير القديسة آن. فليرحمه الله!

- هل مات؟

- لا. أصابه الجنون.

وامتلأت عينا الأب ياناروس بالدموع بينما استمر الراهب:

- أصابه الجنون من الصيام والتقشف وكثرة الحديث إلى الله. لم يستطع عقله أن يقاوم. انفتح غطاؤه فخرجت كل الشياطين التي كانت بداخله. ولم يعد ينحت أيقونات العذراء والمسيح. كان ينهض في الليل ويضيء المصباح الصغير وينحت صورًا للشياطين والنساء العاريات ومناظر الشهوة.

وانتفض الأب ياناروس فجأة واقفًا يصيح:

- لا! لا! ليس عند الأب أرسنيوس شياطين ولكن ملائكة! لا تلطخ ذكراه!

- بل عنده شياطين ونساء عاريات وشهوات، وكلنا يا أب ياناروس عندنا شياطين ونساء عاريات وشهوات..

ولم يجب الأب ياناروس، بل تأمل داخل نفسه، ولمس لوحة الدينونة الأخيرة على المنضدة ومال يقبلها. وغاب في تأملاته فترة طويلة ونسي الجريح وسره. فقد كان الأب أرسنيوس يملأ قلبه. وقال لنفسه في همس: «شياطين ونساء عاريات وشهوات! يا للأسف! ربما كان هذا الشاب على حق». وتذكر أنه سأل الأب أرسنيوس يومًا عن قلب الآثم وماذا يوجد بداخله؟ فأجابه وعيناه مطرقتان: «قلب الآثم؟ لماذا تسألني عن قلب الآثم؟ أنا لي قلب صالح ومع ذلك يوجد بداخله كل الشياطين».

كم من السنين بقيت مختبئة في دخيلته مغلولة بخشية الله؟

لهذا السبب إذن كان ينحت طوال الليل بقلق يشبه قلق القديسين. ولهذا السبب كان يخاف الأحلام ولا يحب أن ينام. كان يستطيع أن يدفع بالصلوات هذه الرغبات الغامضة حتى نهاية حياته. كان يستطيع أن يموت تفوح منه رائحة القداسة. لكن لم يكد ينزاح الغطاء، حتى انفلتت نفسه في لحظة واحدة، وانتهزت الشياطين الحبيسة الفرصة فقفزت خارجه..

كان العرق يسيل على وجه الأب ياناروس. وشعر فجأة بأن حرارة الجو حارقة لا تحتمل.. وفتح الباب ووقف على عتبته. وأنعشه نسيم الليل، ثم تذكر ضيفه الجريح فأغلق الباب وعاد يجلس إلى جانبه. وقال:

- قل لي المزيد عن الأب أرسنيوس لا تخف أن تؤلمني قل لي كل شيء.

وأجاب الشاب في قسوة:

- إذا كنت تتألم إلى هذه الدرجة من أجل نفس واحدة، فلماذا لا تتألم بهذه الدرجة أيضًا من أجل النفوس الأخرى؟ أنا أعتقد... على كل حال، لقد أتيت من أجل هذا.

وقال الأب ياناروس في عناد:

- لست سوى إنسان. وإذا لم أكن حيوانًا. فلست مع ذلك ملاكًا. وما دمت إنسانًا لا أكثر، فأنا أستطيع إذن أن أتألم من أجل نفس. نفس واحدة. المهم الآن، ماذا حدث للأب أرسنيوس؟ أريد أن أعرف؟

- تزايد جنونه شيئًا فشيئًا. وبدأ يخرج عاريًا تمامًا تحت أشجار البرتقال ويتمرغ على الأرض ويصيح. وحضر أحد الرهبان يرتل ليطرد الشيطان، لكن الشيطان لم يخرج. فنزع الرهبان أحزمتهم وضربوه دون شفقة حتى أدموه. ومع ذلك لم يخرج الشيطان. فحبسوه في غرفته ووضعوا له ماء وخبزًا يتجددان كل صباح. لكنه لم يلمس شيئًا. ولا بد أنه قد مات الآن.

وصاح الأب ياناروس:

- كفى! كفى! هل هذا هو سرك؟

- لا. ليس هذا سري يا أب ياناروس. لكنك سألتني فأجبتك وقد سكنت أنا أيضًا عدة شهور في غرفة مجاورة لغرفته. وكان يستشعر في نفسه كل هذه الشياطين السوداء ويتعجل الموت قبل أن ينفتح الباب فتندفع خارجة. وأنا متأكد أنه كان يرهف أذنه إلى كل دقة من دقات قلبه وهو ينحت صور الملائكة والقديسين على الخشب، يتسمع خطوات عزرائيل ليحرره. وإذ ذاك كان يبتسم في سعادة. وسألته يومًا وكان وجهه كله مشرقًا: «لماذا تبتسم دائمًا يا أب أرسنيوس؟».

وأجابني: «ولماذا لا أبتسم يا أخ نيكوديم؟ لماذا لا أبتسم وأنا أسمع في كل ساعة وفي كل لحظة خطوات الموت تقترب؟».

وأضاء وجه الراهب الشاب في جمود. وكان صوته هادئًا لكنه مفعم بالانفعال المكتوم وعيناه تشتعلان. ونظر إليه الأب ياناروس في قلق. فلم يكن يحب هذا الوجه الجامد ولا هذا الصوت. كان يرى في هذه النفس نارًا ملتهبة تشتعل ولا تنطفئ.

ولمس الشاب كتف الأب ياناروس لمسة خفيفة:

- اسمع الكلمات الأخيرة التي قالها الأب أرسنيوس قبل أن تغلبه الشياطين:

«سوف تموت قريبًا يا أخ نيكوديم. فابحث عن الأب ياناروس الذي حدثتك عنه كثيرًا. ابحث عنه وقل له سرك. فهو يستطيع أن يحمله، أما أنت فأضعف من ذلك. وقل له أيضًا إني لازلت أعيش ولا زلت أكافح: أكافح الرب في الأعالي والشياطين في الأسافل. هذان هما شقا الرحا اللذان يطحنانني. قل له هذا».

وعندما اقتربت منه وضع يديه على رأسي يباركني وكأنه يودعني.

وقد فهمت بعد ذلك أنه كان يودعني فعلًا.

وصمت لحظة ونظر إلى الغرفة الصغيرة وابتسم وهو يقول:

- وها قد حضرت.. أنا حضرت لأنقذك.. من أجل هذا أرسلني الأب أرسنيوس.

وابتسم الأب ياناروس في مرارة:

- تنقذ جسدي أم تنقذ روحي؟

- هذا وذاك. فأنت تعرف يا أب ياناروس أنه على قدر ما نعيش يظل هذان الوحشان مجتمعين لا ينفصلان.

وقال العجوز في عناد:

- أما أنا فأفصل بينهما!

- ولهذا السبب تتردد، ولا تدري أين تذهب. لا تقطب جبينك يا أب ياناروس. فقد سمعت الكثير عنك أنت شريف وفقير. وأنت فظ، لكنك طيب. وأنت مكافح قديم تعطف على الشعب. ومع

ذلك لم تتخذ قرارك بعد. فأنت متردد.

وأجاب الأب ياناروس:

- إن أساس وجودي هو بالدقة أن أتردد. ومن يدري، ربما يكون الله قد كلفني بهذه الرسالة فلن أتردد عنها.

ورد الراهب الشاب:

- ما أتعس النفس التي تموت دون أن تنطق بحسم كلمة نعم أو لا! قد يكون من الممكن في بعض الأحيان أن تتسكع بعيدًا ولا تدخل حلبة الرقص. لكننا نعيش عصرًا رهيبًا يا أب ياناروس. ألم تدرك ذلك؟ هذا عصر رهيب، ومن العار أن تعقد فيه ساعديك.

وتعب من الكلام فشرب جرعة ماء واستند على الوسادة وصمت. وملأ الأب ياناروس كوب نبيذ وأحضر قطعتين من البقسماط وجدهما عنده، وقال:

- لا بد أنك جائع. اغمس البقسماط في النبيذ ليريح جسمك. فأنت يا ابني تحتاج إلى قواك إذا كنت تريد أن تتكلم.

وعاد ينظر إلى الشاب في عطف. كان شديد الشحوب. وغمس الأب ياناروس بيده البقسماط في النبيذ. وكما تفعل الأم الرؤوم أطعمه إياه، كأنما يناوله، وكأن هذا الخبز وهذا النبيذ هما جسد الرب ودمه حقًا، يتحولان في جسد الإنسان إلى قوة. وعاد إلى خدي الشاب لون خفيف، فقال:

- شكرًا يا أبي. الآن ارتحت. فهل لديك القوة أنت يا أب ياناروس لتسمعني؟ لا تنس أنك أيضًا جريح، بل وجرحك أشد خطورة من جرحي.

- أنا لا أنسى هذا. لكن عندي القوة لأسمع أي شيء تقول فتكلم.

- ألا تسألني من أنا؟ سأتكلم باختصار لأني متعجل. كنت شماسًا شديد الحماس في أسقفية، وكنت سأصبح أسقفًا. لكنني رأيت. انفتحت روحي ففهمت. فرسالة المسيح قد هانت، وانمحت آثاره المقدسة من الأرض. فنحن لا نتبع إلا آثار المنافقين ذوي اللحى. الآثار التي تركتها في الوحل حوافر الشيطان. لقد قلبوا كلمات المسيح فجعلوها: «طوبى للقساة بالروح لأن لهم ملكوت الأرض. طوبى للمتكبرين لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاشى إلى الظلم. طوبى لمن لا يرحمون. طوبى لمن لهم قلب دنس. طوبى لصانعي الحرب». هؤلاء هم الذين يسمونهم اليوم مسيحيين.

وصاح الأب ياناروس:

- أعرف، أعرف.. أعرف هذا كله، فاستمر.

- هكذا إذن نفضت عن نعلي تراب الأسقفية، واعتزلت على الجبل المقدس. ولكن حتى في هذه العزلة التي تحتاج إلى التقديس، وجدت كل أهواء الدنيا، بل أشد شراسة وأشد دناءة. نتيجة عجزها عن الظهور والخروج بسهولة. فالبشر كما تعلم ثلاثة: الرجال والنساء والرهبان. وفي

أحشاء الراهب تشتعل كل الأهواء سرًا ودون أمل. أنت تعرف يا أب ياناروس أنه ما أشقى هؤلاء الذين يعيشون في العزلة ويذكرون الدنيا! لهذا إذن أغلقت على نفسي غرفتي لكي أقرأ في الخفاء المؤلفات الدنيوية التي كنت قد أحضرتها معي.

- كتب! إذن فأنت أيضًا سحبت وراءك في العزلة كل شياطين الدنيا!

- أنت على حق يا أب ياناروس، وهذا ما فهمته متأخرًا. وفي الحقيقة أنا لم أذهب إلى الدير لأتقشف، لكن لكي أستجمع روحي التي تبددت، وأجد نقطة ارتكاز أستطيع أن أقفز منها. فأنا لا أستطيع أن أعيش دون يقين.

وتنهد الأب ياناروس قائلًا:

- ولا أنا أيضًا، ولا أنا أيضًا. ولهذا السبب أتألم كثيرًا.

لكن الشاب لم يسمع شيئًا. فقد استدارت عيناه وأذناه إلى الداخل فلم يعد يرى ولا يسمع إلا نفسه. وأسرع في كلامه لأن الجرح عاد يؤلمه فلم يعرف ما إذا كان سيجد الوقت لإتمام اعترافه. قال مرة أخرى:

- أنا لا أستطيع أن أعيش دون يقين. ولم أعد أثق في كهنة المسيح. ومن ناحية أخرى كانت آلام المقهورين تملأ قلبي بالاستنكار. فأين يكون مكاني؟ هل إلى جانب المسيح الذي يمتهنه الأساقفة، أم إلى جانب هؤلاء الذين يريدون أن يرفعوا صرح عالم جديد، عالم عادل، عالم بلا مسيح؟ ذهبت إلى الكنيسة وصمت وصليت وصرخت نحو الرب، لكن عبثًا. لم يكن الرب يجيبني. ومع الزمن فهمت. لم يعد طريقي في الصلاة وفي العزلة. كان هذا هو الطريق في الماضي: يصعد من الأرض نحو السماء. لكنه لم يعد اليوم صحيحًا: فهو يبعدنا عن الأرض ولا يقربنا نحو السماء، فنبقى في منتصف الطريق في الفضاء. وقلت لنفسي لا بد لي من طريق جديد. ولكنني لم أصل إليه. وترددت أنا أيضًا مثلك أيها الأب المبجل، وشعرت باليأس مثلك.

ورد عليه الأب ياناروس وقد بدأ يثور:

- أنا لست يائسًا. أنا يا صديقي أعرف مكاني، وهو المسيح، ولا يهمني ما يفعل الأساقفة. ألا يكفي المسيح لشخصك المبجل؟

ولمس الفتى ركبة الشيخ وقال له في توسل:

- لا تغضب يا أبي. المسيح لا يكفيني بالحالة التي جعلوه عليها، بملابس الذهب والقصور التي يقيمون فيها الحفلات في المساء مع سادة هذه الدنيا. أنا أتحرق شوقًا إلى مسيح فقير حافي القدمين جائع مقهور، شبيه بهذا الذي لقيه الحواريون على طريق قرية عمواس. مسيح عمواس: هذا هو الذي بحثت عنه فلم أجده. ولهذا السبب كنت أتألم. هل فهمت يا أب ياناروس؟

وأخذ الأب ياناروس إذ ذاك يشرب بعينيه هذا الوجه الشاحب. وشعر بقلبه يدق في استسلام. وسأل نفسه: «من هو إذن هذا الضيف الذي أتى على غير انتظار؟ من أرسله لي؟ الله أم الشيطان؟ لا أستطيع أن أحدد».

وبدا عليه أنه مصدوم. فما أكثر ما كابد في أعماقه من قبل هذا الذي يقول الشاب، حتى تمزق قلبه!

قال:

- ربما تعتقد أنني من كبر السن بحيث لا أفهم؟ فلتعلم أنني أعرف أيضًا كل آلام الشباب رغم أنني في السبعين من عمري. استمر! هل وجدت إذن هذا المسيح الذي تبحث عنه؟ وكيف وجدته؟ هل هذا هو سرك؟

وأجاب الفتى وهو يبتسم:

- الآن أنت الذي تتعجل يا أبي، أما أنا.

ولم يتم كلامه، فقد شعر بالعطش. وأعطاه الأب ياناروس كوب ماء فاستأنف الحديث:

- دخلت الدير إذن محملًا بهذه الكتب السعيدة. وكان الآباء يسألونني: «لماذا تترك مصباحك مشتعلًا طول الليل؟ - أنا أصلي - ألا تستطيع أن تصلي في الظلام؟ وأقول لهم: أشعر بالخوف، فلا أكاد أطفئ النور حتى تظهر الشياطين»، وكنت أرى الأب أرسنيوس من حين لآخر وأتبادل معه كلمتين. كان يكلمني عن الخشب الذي ينحته ويقول إنه ليس خشبًا لكنه روحه. وكنت أنا أكلمه عن المسيح حافي القدمين. وفجأة في إحدى الليالي- ليلة مباركة- في هذه الليلة..

وقال الأب ياناروس وأنفاسه معلقة بشفتي الشاب:

- رأيت نور الحقيقة؟

- وكيف عرفت ذلك يا أبي؟

- أراه في عينيك يا ابني، ثم ماذا؟

- رأيت نور الحقيقة. فخرجت من غرفتي. كان ذلك في أعياد القيامة، والرهبان على الموائد يأكلون اللحم ويشربون النبيذ. فحطمت طبقي وقلبت نبيذي وصحت: «قفوا! أنتم جالسون هنا سواعدكم معقودة والعالم يجري نحو الضياع! قال الرب: ليس بخورًا أريد ولا صلوات ولا لحمًا! فافتحوا مخازنكم ووزعوا الخبز على الفقراء! وانتشروا في الأرض لتعلنوا كلمة المسيح: المحبة والعدالة والسلام!».

- ثم ماذا؟

- أمسك بي راهبان قويان، هما بنيدكتوس وآفاكوم، وحملاني بين أيديهما وحبساني في غرفة. وفي اليوم التالي وضعوني في مركب وطردوني من الجبل المقدس.

وشد الأب ياناروس على يد الشاب قائلًا:

- تقبل بركاتي. أنت سعيد أنهم لم يصلبوك. ثم ماذا؟

- أرجو ألا تخاف يا أب ياناروس.

- أنا لا أخاف حين يهبط المسيح في الأيقونة ليكلمني، فلماذا أخاف الآن إذن، ثم ماذا بعد ذلك؟

- بعد ذلك لجأت إلى الجبل.

وصاح الأب ياناروس وهو يتراجع على المقعد وقد أصابه الذهول:

- مع الأنصار! شيوعي!

وقال الشاب في مرارة:

- ها أنت تخاف. نعم. رأيت نور الحقيقة فالتجأت إلى الجبل والتحقت بالأنصار.

وصاح الأب ياناروس:

- لكنهم لا يؤمنون بالله! لقد خلعوا الرب عن عرشه وزعموا أنهم يتربعون مكانه. وبدون الرب لا يخلق العالم ولا يحكم.. وأنت ذهبت معهم! هل هذا هو السر الكبير الذي جئت تكشفه لي؟ خير لي إذن أن أتردد.

وأمسك الراهب بيد الأب ياناروس وقبلها قائلًا:

- لا تنفعل يا أبي. صحيح أنني ذهبت مع الأنصار وأنا أعرف أنه بدون الله يفقد العالم أساسه. لكن العالم بدون عدالة لا يمكن حكمه. أعرني انتباهك لأقول لك السر الكبير. لقد أنقذني وسوف ينقذك أيضًا، وربما ينقذ كثيرين غيرك. بل من يدري ربما ينقذ أيضًا المثل الأعلى الذي يقاتل الأنصار ويموتون من أجله. هدئ روعك يا أب ياناروس واصبر واسمعني.

وقال الأب ياناروس، وكان لا يزال يشعر بأنفاس الراهب التي لفحت يده كأنها نار حارقة:

- حسنًا، حسنًا، أنا أسمعك.

واشتعل وجه الشاب وصار صوته عميقًا مؤثرًا كأنما يخرج من أحشائه. فقد جاءت اللحظة الحرجة، أصعب لحظة في الاعتراف.

قال في رقة:

- أنت تذكر يا أبي أن المسيح قبل أن يصعد إلى السماء وعد الحواريين وعدًا كبيرًا ليخفف من لوعتهم فقال: «سأرسل لكم معزيًا. وأما متى جاء ذاك- روح الحق- فهو يرشدكم إلى جميع الحق»[3].

وتوقف الراهب ليسترد أنفاسه. وانحنى ينظر إلى الأب ياناروس في عينيه وسأله مرة أ خرى:

- هل تذكر ذلك؟

فأجاب الأب ياناروس في عصبية:

- ومن ذا الذي لا يذكر؟ ما الذي تريد أن تصل إليه؟

وامتلأ صوت الراهب إذ ذاك برنين الخوف والرقة، وانحنى على أذن الأبياناروس يقول:

- اسمع إذن يا أب ياناروس. هذا هو السر الكبير أنقله لك..

وارتعد الأب ياناروس وشعر بالخوف.

- لقد وصل المعزي.

وتراجع الأب ياناروس كأنما رأى أسدًا ينتصب أمامه فجأة، وصاح:

- وصل؟ وصل إلى الأرض؟

- وصل إلى الأرض في جسم إنسان وباسم إنسان.

- وما اسمه؟

والتصق الراهب بالأب ياناروس حتى كادت شفتاه تلمس أذنيه وهمس:

- لينين.

وأمسك الأب ياناروس صدغيه بكلتا يديه، وضغط عليهما بشدة كأنما يمنعهما من الانفجار. وأخيرًا سأل وهو يرفع يديه عن وجهه في بطء:

- لينين؟ لينين؟

ونظر إلى الراهب في رعب شديد. وكان هذا قد قام فجأة وانحنى بقامته فوقه مبتسمًا يردد في هدوء:

- لينين.

وفتح الأب ياناروس فمه ليجيب. لكن الراهب مد يديه نحوه في توسل:

- لا تتعجل الرد يا أبي. اسمعني أولًا. فالنور قد أذهلني مثلك تمامًا أيها الأب المبجل. وأنت تعرف أنه هكذا النور دائمًا: رمح يصيب قلب الإنسان. وقد أصابني وجرحني. وتمردت. حاولت أن أدافع عن الحقائق التي كنت أؤمن بها حتى ذلك الوقت. لكن النور صعد شيئًا فشيئًا في روحي، ففهمت..

ولم يدعه الأب ياناروس يستمر، فصاح وأنفه ينتفخ غضبًا:

- لينين هو المعزي؟ هو الذي سينقذنا؟ هو؟

- هو أيها العجوز. لا تصرخ. أنا أرى النور يصيبك أنت أيضًا كالرمح. اسمعني. سأكلمك بهدوء وبوضوح، وأنت ستفهم. لقد عشت بين الأساقفة والرهبان، فكنت وحيدًا. وعشت بين الأنصار، فجرى لي نفس ما جرى لي هناك..

وسأل الأب ياناروس في سخرية:

- وهل وجدت المعزي عند الأنصار؟

وأجاب الراهب في هدوء:

- وجدت المعزي عند الأنصار، لكنهم لا يعرفون من الذي أرسله. ويسمونه لينين، لكنهم لا يعرفون رسالته. وهم يؤمنون بأنه أتى يخلق عالمًا جديدًا، عالمًا أفضل. لكنه لم يأت ليخلق، بل أتى ليدمر. ليدمر هذا العالم الفاسد، من أجل أن يفتح الطريق لهذا الذي يجب أن يعود..

- من؟

- المسيح. لأنه سيعود يا أب ياناروس. سيعود ويقف على رأس الأنصار. ولن يصلب مرة أخرى. ولن يبرح الأرض مرة أخرى ويتركنا يتامى مستسلمين للظلم. فالسماء والأرض ستصبحان شيئًا واحدًا.

- وهذا أيضًا ما أريد. وهو أيضًا ما كنت أطلب طوال حياتي: أن تصبح السماء والأرض شيئًا واحدًا. لكنني لا أعرف الطريق، ولهذا أتعذب.

- ولهذا جئت يا أبي لأرشدك إلى الطريق. اغفر لي أن أكون شابًا في هذه السن وأصبح مرشدًا لك. لكن لست أنا الذي يرشدك، بل هو الشباب. الشباب يدخل غرفتك هذه الليلة ويناديك: تعال معنا!

وخفض الأب ياناروس رأسه وهو يغمغم. كان يغلي، لكنه لم يتكلم. وانحنى عليه الشاب، حتى شعر بلفح أنفاسه الحارقة في رقبته وأذنه. وقال الراهب بصوت هادئ ناعم:

- تعال معنا. نحن لا نزال قلة صغيرة. فهكذا تكون الخميرة: حفنة، لكنها تكفي لترفع العجين كله فيصبح خبزًا.

ورفع الأب ياناروس رأسه وقال:

- هل أعلنت ذلك على الأنصار؟

- في أول الأمر لم أتكلم. كنت أشعر بالخجل، وأخاف من كشف سري للجميع. كنت أعيش معهم وأقاتل معهم وأقتل أيضًا، لأساهم على قدر طاقتي في تدمير هذا العالم الفاسد وإعداد الطريق أمام الرب. لم أكن أتكلم إذن، بل حفظت في نفسي هذا السر الذي كان يمزق أحشائي. ولكن في صباح يوم ما ارتفع من أعماقي صوت يصيح: «هؤلاء الناس يمتلئون بالكراهية. وهم يقتلون ويموتون ويأملون، دون أن يعرفوا لماذا. أما أنت فتعرف. فانهض وكلمهم». ونهضت واعتليت صخرة. والتف حولي نحو خمسين فتى ملتحمين ومدججين بالسلاح تغطي صدورهم شرائط الرصاص. ورسمت علامة الصليب، فانفجروا ضاحكين. وشددت قلبي وبدأت أتكلم لأفتح عيونهم. فلم أكد أقول كلمتين حتى انفجرت عاصفة من الضحك والصفير والشتائم: «الدين؟ إنه مستنقع، إنه أفيون الشعب! - يا خائن! يا مرتزق! - اخرج! اخرج!»، وضربوني ضربًا مبرحًا، وهربت، وذهبت إلى جبل آخر. وحدث نفس الشيء: الشتائم والضرب والتهديد بالموت. لكن الله ساعدني وهربت. ومع ذلك، فهذا المساء..

كان العرق يسيل من جبهة الأبياناروس. ونهض يسند رأسه على حديد النافذة لينتعش. كان الليل عميقًا يفيض بالأصوات الغامضة، صوت طائر ليلي يضرب جناحيه برفق. أو عواء كلب بريٍّ سعيد أكل حتى شبع. ورفع الأب ياناروس عينيه ورأى شريطًا من السماء تظهر فيه ثلاثة نجوم كبيرة. وكان القمر مرتفعًا فشجب ضوء النجوم الصغيرة.

وسأل:

- هه، حسنًا؟

وخبا ضوء المصباح. لم يكن فيه ما يكفي من الزيت، فبدا الفتيل يحترق شيئًا فشيئًا. وأظلمت الغرفة. لم يعد المصباح الصغير يضيء إلا القديس قسطنطين ويلقي ضوءًا ضعيفًا على قدميه اللتين ترقصان ومن تحتهما الجمر الملتهب. ونظر الأب ياناروس إليه فتثبت قلبه وانزاح عن صدره ثقل. وضحك قائلًا وهو يشير إلى الأيقونة:

- أنت أيضًا من إخوان الأنستنار يا أخ نيكوديم. نحن جميعًا مثل أبو جلامبو فوق الجمر نرسل الصفير: نغني أو نصرخ لا أعلم. أنت تسمي هذا نورًا، وأنا أسميه جمرًا. لكنه نفس الشيء.

وقطب الراهب الشاب جبينه. كان ينتظر جوابًا، لكن خيل إليه أن الأب ياناروس يسخر منه. فقال له:

- لست رجلًا طيبًا، لست رجلًا طيبًا، يجب أن تشفق على الناس. وغضب هذا وقال:

- وهل تعتقد إذن أيها الشاب أن الخير الأعلى هو الطيبة؟

- نعم، الطيبة.

- لا، بل الحرية. أو بعبارة أدق الصراع من أجل الحرية.

- أليست المحبة؟

وتردد الأب ياناروس ثم قال أخيرًا:

- لا. الصراع من أجل الحرية.

- إذن لماذا تبشر دائمًا بكلمة: المحبة! المحبة!

- الحب بداية لا نهاية. أنا أصيح: المحبة! المحبة! لأنه يجب أن نهز الناس ليبدأوا الحركة. ولكن عندما أتكلم وحدي أو مع الرب، لا أقول المحبة، بل الصراع من أجل الحرية.

- هل تريد أن تتحرر حتى من المحبة؟

وتردد الأب ياناروس مرة أخرى وصعد الدم إلى صدغيه، فصاح:

- لا تسألني!

لكنه شعر بالخجل لأنه لم يرد، فقال في رقة:

- وحتى من المحبة.

وانتفض الراهب مذعورًا:

- إذن ما هو الهدف الذي ترتبط به الحرية؟

وأجاب الأب ياناروس بصوت مرتعش:

- الحرية لا هدف لها. ونحن لا نجدها على الأرض. لن نجد على الأرض إلا الصراع من أجل الحرية. نحن نصارع من أجل شيء لا يمكن بلوغه، ولهذا السبب لم يعد الإنسان حيوانًا، لكن كفى! فالمعزي لينين، والمسيح حافي القدمين، والمسيح على رأس الأنصار، كل هذا يختلط في رأسي فتضل روحي.

- وقلبك؟

- اترك القلب - هذا الطائش الجموح - لا تدخله في أسئلتك الصعبة. إنه يسير دائمًا على عكس الروح. ولكي نسير خلفه، لا بد لنا من أقدام راسخة. وهذا شيء لا يتوافر لي.

وسكت لحظة ثم أضاف:

- سأحكي كل هذا إلى الرب. وسنرى ماذا يقول.

وأجاب الراهب:

- أما أنا فقد سألته من قبل، فوافق.

_ إن الرب يزن كل نفس على حدة، ويعطي كل واحدة منها الجواب الذي ينقذها. فلننتظر ماذا سيكون جوابه لي أنا الأب ياناروس. فإذا وجدت أنا أيضًا طريقي فأقسم أن أتبعه حتى النهاية.

وسأل الراهب بنبرة جارحة:

- حتى الحرية؟

وقال الأب ياناروس وهو يشعر بالعرق يغطي جبينه مرة أخرى:

- حتى العرية، أعني حتى الموت.

واستدار الراهب نحو الباب قائلًا:

- سأرحل.

ونظر إليه الأب ياناروس. كانت عيناه الزرقاوان الواسعتان تلمعان في الضوء المظلم. وكان يمسك جرحه بيده ويبدو عليه الألم. وشعر الأب ياناروس مرة أخرى بالحنان والعطف والتقدير نحو هذا الشاب الذي يشبه إخوان الأنستنار. وقال في نفسه: «هذا هو، هذا الذي كان يجب أن يصبح ابني، وليس الآخر».

وسأله:

- أين تذهب؟

- لا أدري. حيثما يقودني الطريق.

- هم يطردونك من الأديرة، ويطردونك من الجبال، ويضطهدونك في السهول.. فأين تذهب إذن؟

- عندي يا أبي قلعة منيعة. وفيها أسكن.

- أي قلعة؟

- المسيح.

واحمر وجه الأب ياناروس لأنه سأل عن القلعة كأنما نسي المسيح.

وأضاف الراهب ضاحكًا:

- هل يجب إذن أن أخاف؟

فأجاب الأب ياناروس:

- لا.

وانحنى الشاب فقبل يده، وفتح الباب واختفى في الظلام.

ووقف الأب على عتبة الباب فرآه يذوب في الظلام. لم يفكر في شيء. ظل فقط يستنشق هواء الليل في عمق. لم تكن به رغبة في النوم. كان اليوم الأربعاء المقدس. وليس في هذه الليلة قداس، فهو إذن غير مشغول. وأرهف أذنيه يسمع خطوات الراهب على الحصى تتباعد.

وفجأة شعر كأنه تلقى خنجرًا في صميم قلبه. وأراد أن يصيح:

«ابعد عني يا شيطان» لكن فمه كان جافًا. فقد احتال على روحه شك حائر: هذا الرجل، هذا الراهب، ألا يكون هو الغواية نفسها؟

فالأب ياناروس يعرف أن الشيطان يتخذ آلاف الصور المختلفة ليخدع الناس. في الماضي كان يراه على جبل آتوس يتسكع حول الأديرة في شكل غلام ممتلئ الخدين. وها هنا في كاستللوس يراه في ملامح امرأة جميلة تمشي إلى العين وعلى كتفها جرة ماء.. فقد مضى العصر الذي كان الشيطان يظهر فيه بوجهه الحقيقي: بقرنيه وشعره الكث واللهب يحيط به. تقدمت وسائله هو أيضًا. وفي هذا المساء بالذات دخل غرفته في صورة راهب مخلص يسكن الرب روحه وعلى صدره صليب من حديد.

وبدأ يسترجع كلماته في غضب وحيرة: لينين هو المعزي. عندما بدأ الظلم يفيض من العالم أرسله الله ليعد الطريق. كيف؟ بتدمير العالم. بذلك يشق الطريق أمام مسيح الغد.

وصاح الأب ياناروس في الظلام:

- لا، لا. لا أستطيع أن أقبل هذا. الشيطان يستخدم براعته في خلط الحقيقة بالكذب لكي يتمكن من خداعنا. صحيح أن العالم مليء بالظلم. وصحيح أنه خرج من يد الرب وسقط في يد الشيطان. وصحيح أنه لا بد من القضاء عليه.. لكن من الذي يدمره؟

وسالت مرة أخرى حبات العرق على تجاعيد جبهته، فتنهد قائلًا:

لن أصل. لن أصل إلى التمييز بين الصواب والخطأ. فقد شاخ رأسي وشاخ جسمي. ولم أعد أحتمل. لأدع إذن مهمة التفكير العميق في آلام العالم لمن هم أكثر شبابًا مني.

وظهرت أمامه في الفضاء صورة جانبية لجبل آتوس كأنه أيقونة قديمة، تظهر السماء في أعلاها بلون الذهب لا باللون الأزرق، وفي أسفلها يمتد حقل أخضر تنتثر فيه نجوم من زهور الأقحوان الصغيرة، ويرتفع في وسطه دير أبيض له أربعة أبراج تعلوها بيارق تخفق في الهواء: في الأول صورة ملاك، وفي الثاني نسر، وفي الثالث ثور أبيض، وفي الرابع أسد. وفي فناء الدير تظهر شجرة مزهرة، وتحت الشجرة ذات الأزهار راهب رأسه مرفوع وجفناه مغمضان وأذنه ممدودة. فكل فرع من الفروع المزهرة يحمل عصفورًا أبيض ذات طوق أحمر. وكلها تفتح مناقيرها وتغرد. ومن مناقيرها يخرج شريط لازوردي يحمل الكلمة التي تغنيها: «العزلة. العزلة. العزلة. العزلة..» ولا كلمة أخرى.

وتنهد الأبياناروس وعقد يديه وقال هو أيضًا هامسًا دون أن يشعر: العزلة، العزلة، العزلة.

«يا للجمال! يا للصفاء! يا للرضا الكامل! فالرب يأتي، وأنت تراه، ويجلس إلى جنبك كما يفعل الأب الذي يغيب فترة طويلة ثم يعود إلى بلاده آخر الأمر، ويداه تمتلئان بالهدايا».

وأغمض الأب ياناروس عينيه ليحتفظ برؤياه.

«الهدوء! والحلاوة! هكذا يجب أن يكون الرب، وهكذا يجب أن تكون الحياة. لماذا نتساءل؟ ولماذا نكافح؟ أليس الرب فوق رؤوسنا؟ ألا يمسك دفة العالم؟ هو يعرف الطريق ويعرف إلى أين نذهب. أما أنت أيها الإنسان فلست شريك الرب، لكنك خادمه: فاتبعه إذن».

ولم يكد ينتهي إلى هذه النتيجة حتى هز رأسه ساخرًا ثم صاح وهو يبصق: «ارجع عني يا شيطان! إن مركزي هنا في كاستللوس. ها هنا أقاتل كإنسان بين الناس. فقد انتهى الزمن الذي يجد فيه الإنسان خلاصه في الصحراء. واليوم أصبحت الدنيا هي الدير الذي نلجأ إليه. الشجاعة يا أب ياناروس! فالرب مكافح. والإنسان كذلك. إذن قاتل إلى جانبه».

- 5 -

طلع الفجر يوم الخميس الكبير. اليوم ذهب المسيح من بيت عنيا إلى قيافا رئيس الكهنة، مهانًا مضروبًا بالسياط وعلى رأسه إكليل من شوك. وإذ ذاك دق الحدادون مسامير الصلب، وانحنى الملائكة على حافة السماء يرقبون استشهاد البار، وكبير الملائكة جبريل كان قد نزل من السماء يحيي العذراء ذات الولد، فلم يلبث أن طوى جناحيه وامتلأت عيناه بالدموع.

جلس الأب ياناروس على المقعد الحجري على باب الكنيسة. طوال الليل لم تغمض عيناه وظل قلبه حزينًا مهمومًا. كان يشعر بالخجل من قلبه الذي تلوث. حتى خيل إليه أنه أصبح مدنسًا تمامًا. لهذا لم يجرؤ على الاقتراب من الهيكل ليقدم تقريره أمام تمثال المسيح كما يفعل كل يوم.

وفي ساحة الكنيسة ارتفعت أعواد هزيلة من الأقحوان بين المقابر التي تحللت بداخلها جثث قساوسة القرية السابقين. وحاول الأب ياناروس أن يستنشق بأنفه المرتعشة رائحة الموتى. ونظر إلى قبره هو. كان لا يزال خاليًا. وفي ضوء الشمس استطاع أن يقرأ الحروف الحمراء الكبيرة التي نحتها فوقه: «أيها الموت أنا لا أخافك». لكن قلبه لم يشعر هذه المرة بالفخر ولا بالراحة. فقد تحول إلى قطعة من اللحم تمتلئ بالدم لا بالراحة الإلهية. قطعة من اللحم تتألم وتصرخ. وقال هامسًا:

- يا إلهي، اغفر لقلبي الذي يصرخ. فهو لا يعرف ماذا يريد. لكن كيف تريد له أن يعرف؟ إنه شقي يمشي في عماء. وفي هذا العماء يفقد صوابه.

وفي هذه اللحظة ظهرت أمام قرص الشمس فراشة حطت على إحدى زهور الأقحوان. كانت تتشمم هي أيضًا رفات الموتى. وبدأت تطير حول شارب الأب ياناروس، فكتم أنفاسه كي لا يزعجها. كان واضحًا أنها حديثة الولادة تحلِّق لأول مرة تحت الشمس، أطراف جناحيها لا تزال ملتوية. ولونها أبيض تتخلله نقط صفراء. وشعر الأب ياناروس بمشاعر رقيقة حلوة تتسلل إلى صدره، فانقشع ألمه فجأة. هذا الأنستناري الفظ يحب الفراش أكثر من أي شيء آخر ويستمد منه الشجاعة. سألوه يومًا عن سبب ذلك فأجاب: «لأن الفراش يدخل الأرض دودًا، ويخرج منها في الربيع فراشًا. فما هو الربيع؟ الربيع هو الديونة الأخيرة».

وتحرك الأب ياناروس فذعرت الفراشة وطارت وشعر العجوز بالندم حين تركه الجناحان الصغيران وحيدًا على مقعده تحت الشمس. لكن هذه الالتفاتة الصغيرة بددت الكابوس الذي أناخ على صدره طول الليل. فقرر أن يدخل الكنيسة ليعد زينة الصليب. كانوا قد أحضروا له من براستوفا بعض الزهور البرية ليزين بها الصليب والمذبح، ففتح الباب ليلقي نظرة عليها. وأضاء النور تمثال المسيح على يمين الهيكل.

فاستطاع أن يميز الوجه الجليل واللحية الشقراء واليدين تحملان الكرة الأرضية بأصابع نحيلة. وأغلق الباب مرة أخرى بسرعة. وشعر بالخجل أنه ظهر أمام المسيح بهذا الشكل، فعاد

يجلس على المقعد..

وسمع شخصًا يمشي في الطريق، وأحس بالسعادة لهذه التسرية الجديدة، فانحنى ينظر. رأى امرأة عجوزًا بدينة تسير حافية القدمين في أسمال ممزقة، لها شارب واضح، تحمل حزمة من الخشب، وتلف خصلات شعرها الذي خطه الشيب بشريط أحمر عريض كما تفعل الفتيات الصغيرات، وخلفها يجري ولدان يقذفانها بالحجارة ويصيحان:

«أريد الليلة رجلًا! أريد الليلة رجلًا!».

وكانت العجوز المسكينة تنحني على قطع الخشب التي تحتضنها، وتحدق بعينيها في الأرض لا تحركهما ولا تجيب.

وهز الأب ياناروس رأسه بقلب حزين:

- مسكينة بوليكسني. إن عدم زواجها أفقدها الصواب وجعلها أضحوكة القرية. وها هي الآن تضع على رأسها شريطًا أحمر كالمتزوجات. كم هي مسكينة..

كان الوقت بعد الظهر، وأهل القرية يقضون القيلولة في بيوتهم ويعدون أنفسهم لقداس الليلة. السكون الشامل لا يسمع فيه صوت إنسان ولا كلب ولا عصفور. لم يكن يسمع سوى طنين يشبه طنين النحل المحتشد يتردد خافتًا رتيبًا من هذا البيت أو ذاك. فالزوجات والأمهات والأخوات اللاتي قتل رجالهن يوم الثلاثاء الكبير أول أمس، كن لا يزلن يبكين القتلى بصوت مرهق ضعيف.

ومرة أخرى جثم الكابوس على صدر الأب ياناروس: كلمات الراهب تتردد داخل نفسه تمامًا كما سمعها في الليلة السابقة. وكلما فكر في هذه الكلمات، ازداد يقينه بأن الشخص الذي أتى إليه في ثوب راهب والصليب الحديدي على صدره لم يكن إنسانًا. والأنين الذي سمعه والجرح الذي رآه وذلك الاختفاء الصامت في قلب الليل، كل هذا لا يصدر إلا عن الشيطان. المسيح الدجال هو وحده الذي كان يستطيع أن يقول مثل ذلك القول الخادع. ذلك أنه ما من شيء يتمناه الأب ياناروس أكثر من أن يتحول هذا العالم الحقير الظالم إلى تراب. ما من شيء يتمناه أكثر من ذلك في أعماق أحشائه التي لا يراها أحد وبرغبة لا تقاربها رغبة. لكن بشرط أن يحدث على يدي المسيح.

وما أكثر ما أدار هذه الكلمات في نفسه. فكانت تبدو له بعض الأحيان صادقة سليمة، وأحيانًا أخرى يستشعر في داخله شيئًا ما يعترض قائلًا:

«لا، لا. هذه اللغة الجديدة التي يتكلمها الأنصار لا يمكن أن تكون من عند الله. فلو كان المعزي على رأسهم حقًا لما تكلموا بهذه الطريقة عن الأمور المادية: ماذا نأكل؟ كيف نتقاسم المنافع؟ كيف نقتل الأعداء؟ ثم لماذا لا يتكلمون أبدًا عن السماء؟ إن عيونهم لا تحملق إلا في الأرض. يفكرون قبل كل شيء في أن يملأوا البطن الكبير، أن يملأوا كل بطون العالم، ثم ينظرون بعد ذلك إلى أي شيء آخر. لا يهم سوى البطن، لا القلب ولا الحياة الأبدية. فما أغرب هذا المعزي إذن!».

وتنهد الأب ياناروس. كان من عادته أن يغرق في التأمل حين يجد نفسه وحيدًا بين القبور في أرض الكنيسة. في عقر هذه القرية الصغيرة كان يتحايل على استخدام ذلك المخ الضخم الذي وهبه الله إياه لكي يجد حلًا لسر الحياة والموت. كان يسأل كل شيء يراه ويترقب الجواب. واليوم، تعذبه كلمات الراهب فيئن دون صوت وهو جالس على المقعد الحجري والعرق يسيل على جبهته، وأخذ يفكر هامسًا:

- هل هذه هي الحقيقة؟ هل هذه هي الحقيقة؟ لو كان الأمر كذلك فانهض يا أب ياناروس وتقدم! احمل أشرطة الرصاص وتسلق الجبل. اذهب إلى المعزي وحارب إلى جانبه!

لكن الصوت الآخر يرد صائحًا:

- لا، لا. لا تتحمس هكذا بسهولة. إن البطن حين تمتلئ تطلب المزيد. فهل تستطيع النفس بعد ذلك أن تفلت من ملذات المعدة؟ إن مسرات الدنيا لا تؤدي أبدًا إلى السماء. والنعيم مصيدة الشيطان. والفردوس على الأرض لن يكون إلا من صنع إبليس. كم من المرات أكررها لك يا أب ياناروس؟ إن الشيطان هو أمير السعداء المرتاحين الشبعانين. أما المسيح فهو أمير التعساء المتعبين الجوعى. فاحذر يا أب ياناروس.

لكنه لا يكاد يدير رأسه سعيدًا بالإفلات من مصيدة الغواية، حتى يقفز إلى ذاكرته- ربما نتيجة غواية أخرى- حديث جرى منذ سنوات عديدة بينه وبين صياد عجوز على شاطئ البحر الذي كان قريبًا من قريته. جرى ذلك في شهر أغسطس صبيحة يوم رائع يشبه يومه هذا. كان البحر ينشر رائحته خلال النسيم، وفراشتان تتلاحقان وتلهوان على حصى الشاطئ. لونهما أبيض به نقط صفراء. وسار الأب ياناروس على الرمال حافي القدمين قميصه مفتوح يغني بصوت قوي نشيدًا كان يحبه إذ ذاك كثيرًا، تقول كلماته: «لك أنت النصر، يا عذراء يا سيدة المعارك». وكان هذا النشيد يتردد في الزمن الماضي في احتفالات الانتصار التي تقام في الكنائس البيزنطية عندما كانت العذراء الحارسة قائدة القادة في الجيوش تطير لتساعد الإمبراطورية وتنقذها من أيدي البرابرة.

كان الأب ياناروس يغني هذا النشيد عندما وصل إلى كهف يسكنه شقيقان يسميهما الناس «الشخص الواحد» لأنهما لا ينفصلان. أحدهما صياد سمك والثاني صانع فخار، يعجن طين الفخار ثم يديره على عجلة الفخار ليعطيه الشكل الذي يريده. وكان الأب ياناروس متعبًا فجلس يثرثر مع الشقيقين. كان الكبير لا يزال يعجن الطين، والآخر يصلح شباكه قبل أن يخرج إلى الصيد. وجلسوا يتكلمون عن البحر والحرب والفقراء ومحصول التين وكيف سيكون هذا العام. وفجأة التفت الصياد إلى الأب ياناروس قائلًا:

- يا أبي. أريد أن أسألك عن شيء، فلا تؤاخذني. هل تستطيع أن تخبرني كيف قابل المسيح أول حوارييه؟

فأعاد الأب ياناروس عليه ما ورد في الكتاب المقدس. لكن الصياد العجوز هز رأسه قائلًا وهو ينحني على شبكته ويبتسم:

- أنا وحدي أعرف الجواب. لقد صنع المسيح معجزات عديدة، وقال كلمات عظيمة، لكن أحدًا لا يعرفها. لا تصدق ما تقوله الكتب عن ذلك. سأقول أنا يا أبي كيف اصطاد المسيح تلميذه الأول.. ماذا كان اسمه إذ ذاك؟

- أندراوس.

- بالضبط، أندراوس. تخيل عاصفة هوجاء ورمالًا وأمواجًا ثائرة. والصيادون يقاومون العاصفة دون جدوى، فيضطرون إلى الرجوع يائسين أيديهم فارغة. وفجأة يرون شيئًا خلف إحدى الصخور. نارًا تتراقص ظلالها متزايدة حينًا ومتناقصة حينًا آخر. ويشير إليها أحد الصيادين قائلًا في جوع: «يبدو من شكلها أنهم يشوون عليها شيئًا. فلنذهب لنرى» ويجري نحو النار المشتعلة على شاطئ البحر..

وقاطعه الأب يانا روس مصححًا:

- هذا لم يكن بحرًا، بل كان بحيرة، بحيرة طبرية.

فأجاب الصياد العجوز في غيظ:

- وما أهمية ذلك؟ أنتم أيها المتعلمون تتوهون دائمًا في التفاصيل. على كل حال، جرى الرجل نحو النار فرأى الجمر شبه منطفئ ورأى بقايا سمك، لكن صاحب النار كان قد اختفى. ونادى عليه كثيرًا فلم يظهر أحد.

وفي اليوم التالي اشتد هياج العاصفة. وعاد الصيادون مرة أخرى يائسين، شباكهم فارغة. ومرة أخرى رأوا النار والظلال فوقها كأنما هناك شيء يُشوَى عليها. وجرى الصياد نفسه نحو النار فوجد رجلًا يضع فيها مشواة بها سيخ يحمل صفًا من السمك. كان شابًا في الثلاثين من عمره. لوحت الشمس وجهه كوجوه الصيادين. وسأله الصياد:

- هيه يا أخ، ماذا تفعل هنا؟

- أشوي السمك كما ترى. اصطدته فترة العصر.

- وكيف استطعت أن تفعل والبحر بهذا الشكل؟ نحن لم نأكل منذ يومين اثنين.

- لأنكم لا تعرفون كيف تصيدون. أنا سأعلمكم.

وركع الصياد- واسمه أندراوس كما تقول- على قدمي ذلك الرجل الغريب قائلًا:

«مولاي، لن أتركك بعد ذلك قط».

وفي المساء حكى أندراوس لأخيه أنه تعرَّف على رجل يستطيع أن يصطاد السمك حتى في الأوقات العسيرة. وكرر الأخ هذه القصة على أشخاص آخرين وآخرين. وبهذه الطريقة استطاع المسيح- وهو طبعًا ذلك الرجل- أن يعثر على حوارييه الأوائل. بدأ يعلمهم كيف يصطادون السمك. ثم شيئًا فشيئًا ومن سمكة لأخرى، جعل منهم حوارييه دون أن يشعروا هم بذلك.

كان الأب ياناروس ينصت فاغرًا فاه. وبينما الصياد يتكلم، استرجع في ذهنه صورة حامل الإنجيل الضخم المحفوظ في الكنيسة ونقوشه المنمنمة الرائعة. كان منها رسم يمثل عيد أحد العنصرة: الروح القدس يهبط على الحواريين من أعلى الأعالي في خط رأسي مستقيم كأنه طير جائع من طيور الماء، ويشدهم من بطونهم بواسطة سنارات لها اثنا عشر خيطًا لونها أحمر، ويحاول الحواريون أن يتملصوا، لكن السنارات تشتبك بأعماق بطونهم لا تفلت منها. قال الأب ياناروس لنفسه: يا للذكاء. إن كلمة الله تصيب البطن أولًا وتدخل أعماقها، ثم تصعد بعد ذلك في خفة لتستولي على القلب والروح.

ونظر الصياد العجوز إلى الأب ياناروس سعيدًا بالمعجزة التي رواها، وقال:

- بهذه الطريقة يا أبي يعمل الرب، رغم ما تظنه أنت. فأنتم يا أهل الثقافة تقولون إن الرب فكرة أو شيء من نوع نادر ولا أعرف ما هو، أو إنه عجوز يجلس فوق السحاب. بل إن البعض يرسمون له الصور فوق السحاب! وهذا كله غير صحيح. لكن تصور أن هناك عجلة فخار، مثل هذه التي عند أخي، ونحن من الطين. والعجلة تدور أو تتوقف. وهو يتناولنا وينفخنا ويصنع منا ما يريد: بلاليص وأباريق وزهريات وقدور طبيخ ومصابيح. من هذه الأشياء ما يوضع فيه الماء أو العسل أو الخمر، ومنها ما يستخدم في المطبخ، ومنها ما يستخدم في الإضاءة... بهذه الطريقة يخرج البشر من بين يدي الرب. وحين يتحطم بعضنا، لا يكون في ذلك ما يثير الاهتمام. فهو يدير ويدير. ويصنع أوعية جديدة، لكنه لا يستدير قط لينظر إلينا. فما جدوى ذلك؟

وقال القسيس ليحرج الصياد:

- لكن لماذا هذا كله؟ ولماذا صنعني؟ وما دام قد صنعني فلماذا يحطمني؟ أنا أرفض ذلك.

وأجاب العجوز بضحكة جافة ساخرة:

- إيه، لا بأس! ارفض!

ثم أضاف:

- وهل يطلب أحد رأينا؟

كان الأب ياناروس مغمضًا عينيه يسترجع صورة الشاطئ البعيد الغارق في النور وكلمات الصياد العجوز تتوارد على ذهنه متميزة كلمة كلمة. ربما كان هذا العجوز الأمي على حق؟ ربما يتجه الرب أولًا إلى بطن الإنسان فيتشبث بها، ثم يرتفع بعد ذلك شيئًا فشيئًا إلى القلب والمخ والروح؟ وربما كان الأنصار أيضًا على حق في أنهم يرتكزون على الأرض.

الطعام أولًا، وإشباع الجوع، وتغذية الجذور المغروسة في الأرض، ثم بعد ذلك تتفتح زهور الشجرة..

ماذا يفعل روث البهائم حين يوضع في الأرض؟ يتحول في الفاكهة إلى عسل وعطر ولب طازج. إذن ليكن مباركًا هذا الروث. ولتكن مباركة بطن الإنسان.

كان الأبياناروس يتخبط هكذا بين المسيحيين والشيوعيين عندما حضر إليه منادي القرية كرياكوس. هناك شخص آخر يموت خلف الأسلاك الشائكة ويطلب مناولته. ونهض الأب ياناروس. ومد جسمه وأطرافه. فشعر بالألم في ركبتيه وفي جنبه وفي كل مفاصله. وقال لنفسه: «أنا أزداد شيخوخة. أنا أزداد شيخوخة ولم أصل بعد إلى قرار».

والتفت إلى المنادي قائلًا:

- متى يتوقف هذا يا صديقي المسكين كرياكوس؟ متى؟

فأجاب المنادي مرتاعًا:

- لا أدري يا أبي.

- متى يتوقفون عن صلب المسيح؟

فهز كرياكوس كتفيه قائلًا:

- ومتى يتوقف المسيح عن القيام من الموت؟

ولم يجب الأب ياناروس. دخل إلى الهيكل وأحضر كأس المناولة وغطاه بقطعة من المخمل القرمزي وانطلق إلى الطريق.

وفي طرف القرية كان القومندان المكلف بالدفاع عن كاستللوس قد ألقى نحو خمسين من العجائز والنساء في حفرة كبيرة محاطة بالأسلاك الشائكة، لأن لهم أولادًا أو أزواجًا التحقوا بالمتمردين. كانوا يقفون متزاحمين فوق بعضهم وعظامهم بارزة. النساء رؤوسهن حليقة، والرجال مدموغ على جباههم بالحديد المحمي كلمة: «خائن».

واجتاز الأب ياناروس القرية بخطوات سريعة يرفع بيده الكأس عاليًا. ها هو يذهب مرة أخرى ليناول رجلًا يموت. وها هو يحمل جسد المسيح ودمه كما يفعل كل يوم، وأحيانًا مرات عديدة في اليوم الواحد، لكي يساعد الناس على مواجهة الموت. وهم يموتون هادئين، بينما الأب ياناروس يستقبل أناتهم الأخيرة ونظرة الذعر التي ترسلها عيونهم في آخر لحظة، ثم لا يجد هو الهدوء. فالألم يغادر هؤلاء الموتى ويستمر في داخله.

كان القومندان ينتظر الأب ياناروس أمام الأسلاك الشائكة يروح ويجيء بوجه عابس، ضئيل الحجم نحيفًا لفحت الشمس بشرته. في خده الأيمن ندبة غائرة. له حاجبان عريضان منفوشان يحيطان بعينين صغيرتين مستديرتين مثل عيني القنفذ. وكان يتجول وهو يقضم شاربه ويتفحص مسجونيه طويلًا الواحد تلو الآخر. كل شيء فيه ينذر بالشر: عيناه وشفتاه وشاربه. وأخذ يدق بطرف السوط على حذائه المرتفع ذي الكعبين المكحوفين ويغمغم وهو يقضم شاربه في غضب شديد:

- يا عصابة الخونة، يا عصابة الخونة! يا أوساخ! يا مرتزقة!

والتفت جندي صغير له شارب مقصوص إلى الجندي المجاور له وقال له خلسة:

- اسمع يا إبراهام، حلمت الليلة بنبات الخشخاش الأحمر. وهذا نذير دم. فماذا سيحدث لنا؟ قل لي يا ليڤي.

وكان ليڤي هذا شاحبًا ذا وجه مريض شفتاه دقيقتان كحد السكين وشعره خفيف في لون الذرة. ابتسم ساخرًا وقال:

- يا صديقي المسكين يانوس، كم مرة أقول لك؟ ما دام الرب قد تناقص إلى هذه الدرجة، فقد أصبح الشيطان أملنا الوحيد. إنه هو الذي يحكم اليوم هذا العالم، فمن أجله هو يجب أن نشعل الشموع. أما إذا اعتمدنا على مسيحك الذي يمد خده للصفع دون ملل، أو على إلهي أنا «يهوه» الذي لم يشبع منذ أقدم العصور من أرواح البشر، فلن نجد قط مخرجًا. لهذا السبب أشيح بوجهي عن السماء وأقبّل قرنيك يا إبليس يا رئيس الشياطين!

كان النازي قد قبضوا عليه في سالونيكا وأرسلوه إلى «داخاو» ليعزف هناك على الكمان، ويبدو أن الأوامر كانت قد صدرت بأن يتم إحراق اليهود على أنغام الموسيقى، فأصبح على ليڤي أن يقف أمام مدخل المحرقة ويعزف الكمان عند دخولهم إلى الفرن. ومن ذلك الحين أصبحت متعته الوحيدة أن يرى الدم يسيل.

ولم يعلق يانوس على كلمات الكفر هذه. فقد تصور إبليس بقرنيه فانكمش في جلده كالدجاجة والتفت إلى جاره من الناحية الأخرى يطلب المساعدة:

- ماذا ترى في ذلك يا فاسوس؟ هل سمعت كلام اليهودي؟

لكن فاسوس المسكين لم يكن يسمع شيئًا. كانت روحه قد سرحت بعيدًا، إلى منزل فقير مع أربع شقيقات يطلبن الزواج. أهلك نفسه في العمل لكي يدبر لهن مهرًا، لكن عبثًا كان يكدح، فلم ينجح حتى في تزويج كبراهن أرستيا.

قال:

- ماذا؟ أنا لم أسمع.

وأخذ الجنديان يضحكان:

- إنه يفكر في أخواته، هذا الحمل الوديع!

واستدارا إلى الخلف يكلمان زميلًا آخر:

- ماذا تقول في ذلك أنت يا ستراتيس؟ افتح فمك مرة واحدة، فمنذ ثلاثة أيام لم تنطق بحرف.

وستراتيس شخص ضئيل نحيل، مقدمة وجهه تشبه بوز الفأر. لم يلبث أن دمدم قائلًا:

- أنا لا أحب الثرثارين. اذهبا إلى الشيطان!

وقال ليڤي متضاحكًا:

- إنه لم يهضم بعد، موت رفيقه ليونيداس. يا صديقي المسكين ستراتيس، لم تعد هناك مشكلة بالنسبة له، فهو لن يرجع. أصبح الدور الآن علينا نحن.

وسالت دمعة من عين ستراتيس، فأدار رأسه دون أن يتكلم. واقترب منهم الجاويش متجهمًا:

- بماذا تهمسون كالبلهاء؟ القسيس وصل ومعه القربان المقدس. اصمتوا، كل الصفوف!

وفرك ليڤي يديه قائلًا في همس:

- أنا يهودي، فليس في ذلك ما يهمني.

وظهر الأب ياناروس في نهاية الطريق يرفع كأس المناولة أمامه بطريقة عسكرية كأنه راية حرب. كان يسير عاري الرأس وشعره مشعث يدق الحصى بحذائه الثقيل، فيقرقع. ومن الكأس تشع قوة شديدة خفية تمتد إلى يدي العجوز وذراعيه وجسمه كله بدرجة تهز كيانه.

ولم يكد المسجونون يميزونه حتى لمعت عيونهم وتعلقت كل آمالهم بالكأس الذي يحمله. بالجسد والدم المقدسين اللذين يرقدان بداخله. وإلا فمن أين كان لهم إذ ذاك أن ينتظروا الخلاص؟ هل من الناس؟ كل ما يفعله الناس معهم هو التعذيب والقتل. فلم يبق بعد ذلك سوى المسيح. فإذا لم يكن لديه الخلاص. فاللعنة إذن على الساعة التي رأوا فيها النور، واللعنة على الأيدي التي صنعت هذا العالم.

وبمجرد وصول القسيس وقفت امرأة صفراء في لون الليمونة كانت ترضع طفلها، فرفعته فوق الأسلاك الشائكة وصاحت:

- ماء! من أجل حب الله ماء!

ومد عجوز نحو القائد يدًا متهرئة، فزمجر فيه الضابط قائلًا:

- ماذا تريد؟

فأجاب العجوز بصوت يحتضر:

- الحرية.

- اسكت! ابنك مع الخونة.

فعاد العجوز الضئيل يقول هامسًا:

- الحرية!

وكان صوته ضعيفًا متوسلًا كأنما يستجدي لقمة خبز.

ولم يكن القائد رأى القسيس يقترب، فزمجر فيهم قائلًا:

- سأعلقكم جميعًا كتلة واحدة في طرف البندقية. سأبدأ بهذا الخائن المسمى الأب ياناروس، وبعد ذلك يأتي دور المدرس المصدور، ثم أخيرًا يأتي دوركم أنتم. فلا بد من تطهير هذه القرية

تطهيرًا جيدًا.

واستدار إلى الجاويش قائلًا:

- خذ رجلين واذهب غدًا لتحضر معلم المدرسة مع زوجته وابنه. أحضرهم إلى الأسلاك الشائكة!

وتوقف الأب ياناروس واهتز الكأس في يديه. وهمس قائلًا:

- يا إلهي! حتى متى تترك عبيدك في أيدي الوحوش؟ ألا توجد إذن في هذه الدنيا نهاية للظلم والألم؟ متى تقرر يا إلهي أن تسلح الحب أيضًا؟ ألا تسمع هؤلاء؟ ها هم المسجونون والحراس والقومندان. ألا يثير ذلك عطفك؟ اصنع معجزة!

وسمع القائد صوتًا خلفه فاستدار. ورأى القسيس قصيرًا ضخمًا، عيناه تشعان لهبًا يتحدى. وقطَّب جبينه وركع على إحدى ركبتيه وهو يشيح بوجهه. كان يكره هذا القسيس ذا السبعين عامًا ويشك فيه. وكان يجد في نظرته قوة صامتة تحاول إذلاله. فهذا الكاهن ذو اللحية، بكأسه وأناجيله وبطرشيله ومزاميره وتراتيله، يملك قدرات خفية يخاف منها القومندان رغم شجاعته ودق الأرض بقدمه.

- لماذا تنظر لي هكذ يا أب ياناروس؟

ورد العجوز بصوت متحرج ومتحفظ:

- ألا تخجل؟ ألا تخاف الله إذن أيها القومندان؟

وقبض القائد على سوطه ورفع يده كما لو كان يريد أن يضربه. لكن الأب ياناروس استمر يدنو منه. وفي صوت أجش عاد يقول وقد وصل إلى حيث لمست لحيته وجه القائد:

- هل أنت إنسان لا تزال؟ الناس على حق حين يسمونك الجزار. لكن ألا تعرف على الأقل من هذه الحملان التي تذبحها؟ افتح عينيك وانظر يا تعيس. إنهم إخوتك وأخواتك.

وزمجر القومندان وأمسك القسيس من كُمِّ ردائه ليدفعه وهو يصيح:

- سأضعك لصق الحائط أيها التيس العجوز! خذ حذرك فسيأتي دورك!

- بل أتى دوري بالفعل أيها القومندان فلتضعني لصق الحائط فأنا أخجل من الحياة.

- أنا الذي سأقرر متى أقتلك ولست أنت. انطلق.

- لن أنطلق، بل سأصيح بأعلى صوتي!

واستدار نحو الجنود يرفع كأس المناولة إلى أعلى ما يستطيع ويصيح:

- كفى دمًا يا أبنائي، كفى!

واندفع القائد نحوه وأمسك بلحيته وسد فمه:

- اذهب وقل هذا لابنك البلغاري الخائن، كابتن الأنصار.

لكن الأبياناروس، أفلت من قبضة القومندان وأخذ يصيح في الجنود مرة أخرى:

- يا أبنائي. لا تنصتوا إلى هؤلاء الذين يأمرونكم بالقتل. ارفعوا رؤوسكم وقولوا «لا!» لا تخافوا شيئًا. إن من يخضع لأمر الله حر، ومن يخضع لأمر الناس عبد. الحرية! الحرية يا أبنائي!

وارتمى القومندان على القسيس وقد رفع سوطه. لكن الجاويش الطبيب ميتروس منع الضربة وسحب العجوز جانبًا، بينما تدخل الجنود ليفصلوا بين الاثنين. وكان الأب يصارع ليتخلص منهم ويصيح:

اتركوني. أنا خجل من الحياة، أريد أن أموت. فليذبحني الجزار خيرًا من أن يهين الله!

وقال له الجاويش بصوت خافت:

- اصمت يا أبي، اصمت. السلاح هو الذي يحكم هنا.

وتأمله الأب ياناروس في ألم شديد، وقال له:

- أنت أيضًا يا ميتروس يا ابني؟ أنت أيضًا؟ هل وصلت إلى هذه الدرجة؟ ثم كيف استطعت أن تقتل النساء السبع يوم أول أمس؟

وقال الجاويش وهو يخفض صوته:

- فليغفر لي الله. فهو الذي يعلم أن ذلك لم يكن بإرادتي ولكن فرضته الضرورة.

وقاطعه الأب ياناروس قائلًا:

- هو يعلم أنك جبان، وأن النفس أقوى من الضرورة. ما أتعسك يا ميتروس. إن الله لا يغفر.

وفي هذه اللحظة ارتفعت حشرجة شخص يحتضر، فقفز الأب ياناروس ورسم علامة الصليب قائلًا:

- اغفر لي يا ربي، فقد نسيت آلام عبدك..

ورفع عاليًا جسد المسيح ودمه. وهبط إلى الحفرة الكبيرة.

- 6 -

كان الأب ياناروس يقول لنفسه وهو عائد إلى الكنيسة وكأس المناولة في يده: «إلى أي مدى يصل الشر في قلب الإنسان؟ الحقيقة أن الرب أشاح بوجهه عن العالم فسقط في الظلام، هذا خسوف لله! هذا خسوف للرب!».

كان يردد هذه الكلمات وهو يذرع الأزقة الضيقة التي تثير الغثيان.

لم يكن يرى في كل مكان سوى الأطلال والأبواب التي خرقتها طلقات الرصاص والبقع الملطخة بالدم. وكانت الكلاب الجائعة تتشمم الأرض بحثًا عن قطعة من جيفة. وشد الأب ياناروس يده على الكأس وشعر فجأة كأنه يمسك الرب بيده ويحمله عبر أزقة كاستللوس ليشهده على آلام البشر. وقال له:

- انظر. انزل من السماء فما جدوى وجودك هناك في الأعالي؟ إنه ها هنا نحتاج إليك أيها الرب في كاستللوس. انظر! إذا استمرت الحرب فترة أخرى، سيبتلع كل الناس بعضهم بعضًا. لم يبق فينا يا رب أثر للإنسانية. وجوهنا أصبحت متوحشة. الحرب جعلتنا وحوشًا.

يوم أول أمس فقط، ألم يهجم الأب ستاماتيس- العمدة المعروف بهدوئه وحكمته- على الترزي ستليانوس يحاول أن يلتهم أذنه؟ والقومندان يزداد كل يوم سوءًا، لدرجة أنه لم يعد إنسانًا بل نمرًا متعطشًا للدم! حتى متى؟ حتى متى يا رب؟ إن وجه الشيطان ليظهر في كل مكان بدلًا من وجه الرب. فلتساعدني يا رب على أن أعيد وجهك إلى هذه القرية التي استودعتني إياها!

واستمر يسير في الطريق يمخر في روحه عباب بحر من الظلام وقال لنفسه: «في هذا العالم لا يمكن أن تكون إلا واحدًا من اثنين: حملًا أو ذئبًا. الحملان تؤكل والذئاب تأكل. أفلا يوجد يا إلهي حيوان ثالث يكون قويًا وطيبًا في نفس الوقت؟».

ومن أعماق نفسه ارتفع صوت يجيب: «يوجد يا أب ياناروس. فاصبر. مضت آلاف السنين على هذا الحيوان وهو يتطور ليصبح إنسانًا. لم يصل إلى ذلك بعد. فهل أنت متعجل؟ الرب لا يتعجل يا أب ياناروس».

وتوقف الأب ياناروس أمام المعسكر. كانت ركبتاه ترتعدان. فقد رأى مجموعة من الصبية تحتشد حول كومة من القاذورات تنقب في النفايات طمعًا في بقايا الطعام. بطونهم منتفخة وسيقانهم رفيعة كأعواد الغاب. كثيرون منهم يقفزون على عكازات، وبعضهم بين الثامنة والعاشرة من العمر نبتت لهم في ذقونهم لحى. كان الأب ياناروس يود لو استطاع أن يقترب منهم. لكن ماذا يقول لهم؟ لقد أصبحوا وحوشًا صغيرة مفترسة، وليس لديه ما يصلح لهم. لهذا تسمَّر في مكانه يرقبهم دون أن ينطق بكلمة.

كان ينظر إليهم والدموع في عينيه حين مرت عجوز هزيلة حافية القدمين تسير بخطى واسعة وشعرها منفوش تحمل طفلًا ميتًا في حوالي السنوات الثلاث ملفوفًا في قطعة قماش. كانت تحمل فأسًا على كتفها وتسير بعينين جاحظتين لا تدمعان وتطلق الصراخ الهستيري. وعرفها الأب ياناروس. فهي العجوز آريتي قابلة القرية. والطفل حفيدها. عندما رأت الأب انفجرت تضحك في وحشية وتصيح:

- مات يا أب ياناروس. مات. اذهب وقل هذا لمولاك؟ ألم تكن لديه قطعة خبز صغيرة يعطيه إياها؟

ولم يجب الأب ياناروس. ونظر إلى الجسد الصغير الذي يشوبه الاخضرار وبطنه المنتفخة كالطبلة. الجسم هيكل عظمي، والرأس مشوهة لا تظهر فيها سوى عظام.

وحملقت العجوز في وجهه بكراهية شديدة وشفتاها ملتويتان.

وضحكت كالمجنونة، ثم بدأت فجأة تصيح:

- قل لي يا أب ياناروس، لماذا يترك هو الأطفال الصغار يموتون جوعًا؟

وتوسل إليها العجوز قائلًا:

- اصمتي يا آريتي، اصمتي. لا تكفري بالله.

وصرخت العجوز:

- لكن لماذا؟ ما الذي أخشاه؟ ماذا يستطيع أن يفعل بعد ذلك؟

وأشارت إلى الطفل الميت وعادت تقول:

- ماذا يستطيع أن يصنع بي بعد ذلك؟

ومد القسيس يده إلى الطفل كأنما يريد أن يباركه، لكن العجوز سحبته فجأة وهي تصيح:

- لا تلمسه.

- أين تذهبين به يا آريتي؟

- أدفنه في حقلي. وهذا هو الفأس.

- بدون صلاة؟ سآتي معك.

وكشرت العجوز وأرغت حتى امتلأ فمها:

- صلاة؟ أي صلاة؟ هل تستطيع أن تقيه من الموت؟

لا تستطيع. إذن دعني وشأني.

وضمت حفيدها بين ذراعيها وانطلقت بسرعة نحو الحقول.

وطأطأ الأب ياناروس رأسه وضم الكأس إلى صدره وتردد في نفسه سؤال: «بماذا ترد على هذه العجوز يا إلهي؟» وكاد يلقي هذا السؤال على كأس المناولة، ولكنه شعر بالخوف فصمت. واستأنف السير إلى الكنيسة مطأطئ الرأس عبر أزقة القرية.

وانفرج باب منخفض عن فتحة أطلت منها رأس عجوز مقوسة الظهر. ورأت الكاهن فرسمت علامة الصليب وهمست:

- إن الله هو الذي أرسله لي! سوف أسأله، وسيوضح لي كل شيء.

ابنها ذهب إلى الجبل مع رجال البيريه الأحمر. ويبدو أنه يريد أن يهبط إلى القرية في إحدى الليالي ليذبح الجنود. لماذا؟ ماذا فعل له الجنود المساكين؟ قلبت العجوز هذا السؤال طويلًا في رأسها لكنها لم تفهم شيئًا. ولكن الحمد لله أن رأت الأب ياناروس يسير في هذه اللحظة بالذات. ستسأله وسيشرح لها كل شيء. وهكذا أوقفته في عرض الطريق، وانحنت تقبل يده قائلة:

- الله هو الذي أرسلك لي يا أبي. فانتظر لحظة، عندي سؤال أريد أن أسألك إياه.

وأجاب القسيس:

- تكلمي يا جدتي لكن بسرعة، فأنا متعجل.

- لماذا يذبحون بعضهم بعضًا يا أبي؟ لماذا يحارب ابني؟ يقول إنه يريد أن يذبح هؤلاء الجنود المساكين. وأنا لا أستطيع أن أنام لأني أقلب هذا في رأسي مرة ومرات دون أن أصل إلى شيء.

وأجاب العجوز:

- هل تعتقدين أنني وصلت إلى شيء يا أمي العزيزة؟ أنا مثلك أسأل الله أن يشرح لي ذلك لكنه لا يجيب وقلبي يتأرجح لأنه لا يجيبني فلا أستطيع أن أتخذ جانبًا من الجانبين. الصبر إذن يا جدتي وسوف نرى!

وهزت العجوز رأسها ورفعت يديها إلى السماء تريد أن تقول شيئًا. لكن ماذا تقول؟ دخلت بيتها وأغلقت الباب.

واستأنف الأب ياناروس طريقه يتنفس في ألم. كان الهواء ثقيلًا مشبعًا بالروائح النتنة لم يدفنوا الموتى في أماكن عميقة بدرجة كافية، فانتشرت العفونة من الجيف.

في الحقول المحيطة بالقرية كانوا يعثرون أحيانًا على أقدام بارزة من الأرض أو على جمجمة منزوع لحمها. فكلاب القرية تنبش الأرض نهارًا، وبنات آوى تلتهم البقايا ليلًا. فإذا أمطرت السماء، برزت من الأرض في اليوم التالي رؤوس وأقدام أخرى.

وتوقف الأب ياناروس بالقرب من خرائب بيت لا تزال الرائحة النتنة تصعد منه. وسد أنفه. أصحاب هذا البيت هلكوا تحت الأطلال أول أمس عندما نزل رجال البيريه الأحمر إلى القرية كان الأب ياناروس يعرفهم جيدًا ويحبهم: مانولا كيس العجوز وزوجته والأم كاليو. كانوا جميعًا مرضى ضعفاء لم يتمكنوا من الفرار وانهار البيت على رؤوسهم. أسرة طيبة تخاف الله ليس

عندهم أطفال. في طول القرية كلها كانوا وحدهم يحتفظون في فناء بيتهم بأصيص به ريحان. وفي أمسيات الصيف كانوا يجلسون على عتبة البيت- تمامًا حيث يقف الآن الأب ياناروس- ويتبادلون الأحاديث المرحة مع المارة. واليوم لم يبق منهم سوى رائحة نتنة.

وخرج من الخرائب يهمس:

- يا إلهي، ماذا أفعل؟ ساعدني وأجب! في كل يوم أقدم لك تقريرًا عما يحدث. وأنت تعرف كيف أصبحت القرية. لم يعد لدينا ما نأكل. نحن ننهار. وكل يوم يفر جندي جديد ويلجأ إلى الجبل.

وابني المرتد كابتن الحمر يرسل إلينا الرسائل من قمة النسور «سلموا، سلموا! وإلا فالحديد والنار!»، ماذا نفعل؟ وماذا أفعل أنا؟ ها أنت سمعت منذ لحظة آريتي وهي تكفر. الحقيقة أننا لم نعد نحتمل. كيف ننقذ الأطفال الذين يموتون جوعًا! دبرني يا يسوع. هل أسلم القرية إلى الأنصار في الجبل لأنقذها من الدمار؟ أم أعقد ذراعي وأنتظر رحمتك؟ وا أسفاه. فنحن بشر لا نستطيع أن ننتظر. ورحمتك تأتي على مهل. وغالبًا ما تصل إلينا بعد الموت في الحياة الأخرى. ولكني أريدها هنا في الحياة الدنيا.

وصمت لحظة، ثم أضاف فجأة بصوت مرتفع:

- مهما يحدث، فيجب أن تأتي رحمتك هنا في الحياة الدنيا!

كان يبدو عليه أنه اتخذ قرارًا، فأسرع الخطى. وقبيل الكنيسة، توقف أمام باب منخفض.

ها هنا يسكن مدرس القرية، ينتظر الموت مريضًا بالسل. أخذت السجون والسوط كثيرًا من صحته لكن الأب ياناروس كان يحبه لأن له رأسًا عميقًا. في أحد أيام الأحد وكان لا يزال قادرًا على الخروج دعاه الأب بعد القداس ليشرب القهوة في غرفته في أول الأمر ظل المدرس قليل الكلام نافرًا. كان واضحًا أن تبادل الحديث مع القساوسة شيء لم يخطر على باله لكن شيئًا فشيئًا انفكت عقدته وأخذ يتكلم عن المسيح كما يتكلم عن صديق لا يزال يعيش في الدنيا فقيرًا مصدورًا مثله فهو يزور المدن الكبيرة حيث ينتشر تلاميذه، بعضهم يعملون في المصانع وآخرون في مناجم الفحم، ومنهم أيضًا تلاميذ ومدرسون فقراء جوعى.

وقال الأب ياناروس مأخوذًا:

- أنت تراه إذن؟ أنت تراه؟ إنك تتكلم عنه كما لو كنت تعرفه.

فأجاب المدرس وهو يبتسم:

- أحيانًا أراه.

ورسم القسيس علامة الصليب قائلًا:

- يا إلهي، أنا لا أفهم شيئًا.

لكن الأب ياناروس لم يلبث أن فهم. في إحدى المرات بعد أن خرج المدرس، أدرك أنه كان يتحدث عن لينين.

توقف الأب لحظة أمام الباب المنخفض: هل يدق الباب؟ أم لا؟ كان المدرس راقدًا على سريره ينظر إلى زوجته وهي تنحني لتشعل النار. وكان ابنه الطفل ديمتراكي جالسًا على مقعد صغير يردد حروف الهجاء، طفل شاحب معتل الصحة قدماه متورمتان وعيناه منتفختان.

وبجوار المدفأة ربض قط يقرقر. لونه أسود تتخلله بقع برتقالية اللون وفي جسده قروح. وفي الخارج نبحت الكلاب وتخبطت الأبواب.

ومن بعيد أتى صوت الأحذية الثقيلة تدق الأرض. أما في المنزل فكان السكون مخيمًا لا يتخلله سوى صوت الولد الصغير يردد حروف الهجاء.

وأغمض المدرس عينيه، وفجأة شعر بالخوف من سكون البيت. كان يعرف أن أيامه الباقية معدودة. عندما يسعل يحاول أن يدير وجهه حتى لا يخيف زوجته، ويبصق الدم في منديل أحمر يخفيه تحت مرتبة السرير. ومع أنه كان يترقب الموت. فالسكون في المنزل بعث الخوف في قلبه قال لنفسه: «هذا غير ممكن. لا بد أن مصيبة كبيرة تدبر لنا في مكان ما...».

ونظر إلى زوجته التي أصبحت عجوزًا قبل الأوان. وجهها متألم صامت تلفه تلفيعة سوداء. منذ سنوات طويلة مضت وهما يكافحان البؤس والخوف والمرض. ونقل الرجل عينيه إلى ابنه الوحيد الشاحب وإلى قدميه المتورمتين من الجوع. ومزق هذا المنظر قلبه. «ترى هل يستطيع أولادنا على الأقل أن يحصلوا على شيء من السعادة؟ لقد ملأنا الهوة بأجسادنا كي يتمكنوا هم من العبور. فهل يستطيعون؟ هل يصل ابني ديمتراكي يومًا إلى إتمام حروف الهجاء؟ هل يدعونه يفعل؟ إنهم يقتلون النساء والأطفال كل يوم في كاستللوس.. في كاستللوس وفي اليونان وفي العالم كله. هذه نهاية العالم القديم، وبداية العالم الجديد.

لهذا وجد جيلنا جسمه وروحه بين شقي الرحى يطحنانه. لتكن قادرًا على أن تولد في الأوقات الحاسمة! هذه حكمة صينية. وعلى أكتافنا نحمل عبء هذه اللعنة، ومهمتنا أن نحولها إلى نعمة وهي مهمة شاقة وجهد قاتل. فيا أيتها الفضائل التي يفاخر بها الإنسان، القداسة والإصرار والبطولة، ساعدينا!».

وأغمض المدرس عينيه وتاه في أفكاره. منذ كم من السنين يتذبذب قلبه بين القلق والأمل؟ سنوات في قلق وسنوات في أمل حتى متى؟ وفتح عينيه ونظر إلى زوجته وطفله ونظر إلى القرية وإلى اليونان، وحمله الخيال إلى العالم كله. كم من القلق وكم من الأمل في كل مكان! هل كان الوضع كذلك دائمًا، أم أن الشقاء البشري زاد منذ بدأ العالم ينهار؟

واستعاد في ذهنه تلك المدينة التاريخية التي ابتلعتها الكارثة. إن العالم الحديث يشبهها وارتعد المدرس بالخوف والفرح، وهو يذكر مرحلة بعد مرحلة، كيف تولد المدنيات ثم تتضخم ثم تصيبها الشراهة، وفي النهاية تسقط.

كانت مخازن بومبي تفيض بالمؤن. ونساؤها مشدودات مكتملات الزينة عقيمات ورجالها تجار سائحون لا يتقنون الكتابة، لكنهم بارعون ساخرون. وكان للمدينة طاقم كامل من الآلهة يشمل كل القطيع الإلهي الخاص باليونان ومصر والشرق، تضامنوا معًا في مجموعة واحدة، تشبه اتفاق

اللصوص، يتقاسمون في خبث هبات الناس ونفوسهم. وكانت المدينة الراقدة أسفل بركان فيزوف تضحك من المستقبل.

واليوم أصبحت الأرض كلها مدينة بومبي قبيل ثورة البركان: فماذا سيحدث للنساء البائسات، والرجال الذين لا يحكمهم دين ولا قانون، والمصانع والأمراض؟ ولماذا يعيش كل هؤلاء التجار البارعين؟ ولماذا يكبر الأطفال المدللون جدًا، إذا كان مصيرهم هم أيضًا أن يجلسوا في المسارح والكباريهات والخمارات؟ هذا كله يخنق الروح. الأجيال التي سبقتنا صرفت كل روحها في النظريات والتحف الرائعة في العلم والمشروعات، لتبني مدينة جديدة. لكن هذا كله أصبح الآن مستهلكًا، فلم يبق إلا أن يتلاشى فليتقدم البرابرة ليفتحوا للروح منازل جديدة! اندفعت حشود الجوعى تهاجم المائدة التي انكفأ عليها السادة ناعسين متخمين بالطعام. لحظة عصيبة! واستيقظ السادة على الضوضاء فالتفتوا ضاحكين، لكن سرعان ما شحبت وجوههم. فقد انتفض العبيد: العمال والحرفيون والمربيات والطباخات والخادمات! لحظة عصيبة! إن أعظم الآثار في الفكر والفن والبناء هي نتاج هذا النوع من الاندفاع العاصف في الإنسان. هناك كائن غامض يكافح من أجل الحرية. من الجماد إلى النبات، ومن النبات إلى الحيوان، ومن الحيوان إلى الإنسان. وكل عصر يراه في وجه جديد، أو بالأحرى في قناع جديد، لأنه يظل هو نفسه دائمًا خلف مظاهر شتى. ووجهه اليوم هو وجه رئيس هذه الجماهير الرهيبة التي تقفز إلى الهجوم.

نهضت زوجة المدرس من أمام الموقد. كانت كلما رأت زوجها غارقًا في التفكير حاولت أن تشغله بحديث يلهيه. فقالت:

- اليوم أول أمس حضر من جبل آتوس راهب يحمل حزام العذراء في صندوق من الفضة أخبرتني بذلك جارتنا أم ليناكي.

لكن المدرس ثار:

- اصمتي يا زوجتي. إنك تجعلين الدم يغلي في عروقي! هؤلاء المتاجرون بأجراس الكنائس الذين يصطنعون القصص! متى تفتح البشرية عيونها؟

وغلبه السعال، وبصق في منديله الأحمر، وارتمى على وسادته قائلًا:

- كفى كلامًا فأنا متعب.

وظل نائمًا على ظهره عدة دقائق، يتنفس في مشقة. ولكن فجأة استعاد قواه فجلس في السرير قائلًا لنفسه: «تعال يابن جودا، تعال يابن جودا، ساعدني!».

وتنهد قائلًا:

«ترى هل يمتد بي العمر لأرى التحرر؟ لأرى العدل على الأرض؟».

ومرت أمام ذهنه حياته كلها فيما يشبه الومضة الواحدة. عندما كان مدرسًا في جانينا، قبضوا عليه وألقوه في السجن. وتضعضع جسمه من السوط والجوع والرطوبة، فخرج من السجن حطام إنسان. وعاد إلى قريته ليموت فيها. كل يوم يمر عليه كان قطعة جديدة من العذاب.

لكنه يتذكر بن جودا، فيمسك روحه بأسنانه ويرفض الموت مثله حتى يشهد اليوم الموعود. هكذا يكون الإيمان بالمبدأ. وعندما يفزع أصدقاؤه من زرقة الموت التي تكسو مظهره، يفكر في بن جودا ويبتسم قائلًا:

«كيف يمكن أن أموت وأنا أحمل في نفسي هذه الفكرة الكبيرة؟ لا تخشوا شيئًا؟».

وأصاخ المدرس السمع فقد سمع صوت شخص يقف أمام الباب. وقفزت زوجته. ترى من ذا يكون هذا؟ وخرجت حافية القدمين إلى الفناء واختلست النظر من شق الباب. رأت اللحية والثوب الكهنوتي فعرفت صاحبهما قالت بصوت خافت:

- هذا الأب ياناروس، هل أفتح؟

وأجاب المدرس:

- لا، لا تفتحي. سيتحدث كالمعتاد عن الله. وأنا متعب. لا أحتمل.

وكتم الاثنان أنفاسهما حتى سمعا الأب ياناروس يدب بحذائه الثقيل مبتعدًا.

قال المدرس:

- يا للخسارة! إنه أيضًا مدان مثلي.

ومد يده تحت الوسادة واستخرج دفترًا صغيرًا معجونًا في بعضه، أحضره سرًا بالأمس الجندي ستراتيس قائلًا: «ليونيداس هو الذي طلب مني أن أسلمك هذا. وأنت تعرف إلى من ترسله بعد ذلك.».

واغرورقت عينا ستراتيس بالدموع، فانسحب مسرعًا.

وهز المدرس رأسه قائلًا: «فقيد جديد، يا للخسارة! وليته من أجل فكرة كبيرة».

وليونيداس هو ابن خالته من بعيد، من ناحية أمه التي ولدت في ناكسوس. كان قد انضم إلى جنود البيريه الأسود. ومع ذلك ظل يأتي خفية في بعض الأحيان ليتبادل الحديث مع المدرس. كان مراهقًا صغيرًا تغطي البثور وانفعالات الحنين وجهه. يحب إحدى الفتيات ويحمر وجهه خجلًا حين يتكلم عنها كانت طالبة مثله. وفي اليوم الذي توثقت فيه معرفتهما ذهبا إلى الريف وظلا يقفزان مثل جديين صغيرين. كانت الأعشاب قد أصبحت طرية، وتفتحت أزهار اللوز، وتضوَّع الجو برائحة الراتنج وسخونة الحجر، وظهرت في الأفق التباشير الأولى لعصافير السنونو. واشتدت حرارة الجو عند الظهر، فخلعت الفتاة بلوزتها. وهب النسيم ومن بين عمودين أثريين ظهرت قطعة من الخليج. البحر. حبيب الإنسان منذ الأزل. اجتمع الشباب والحب والبحر في تركيب ساحر. وعندما نظر ليونيداس إلى البحر وهو يمسك يد فتاة لم يكن يعرفها بالأمس، أدرك أن قلبه ذاب في العشب والبحر والخلود واكتشف لحياته معنى. وبدا له العالم رائعًا جديدًا. ونظر إلى الفراشات الكبيرة تنتشر أمامه وشعر بأن الأرض تفوح برائحة الجسد وأثاره جانبا الجبل كأنهما عجيزة امرأة.

أخذ المدرس يقلب صفحات الدفتر الصغير بيد مرتعشة. وخيِّل إليه أنه ينبش قبرًا لم يجف بعد. أول أمس فقط أصابت الطلقة قلب الشاب فسقط على قدمي ستراتيس. وحمله ستراتيس على كتفه حتى لا يقع في أيدي الأنصار وفي كاستللوس دفنوه وفي جيبه وجد ستراتيس هذه المذكرة كانت مكتوبة بخط دقيق بعض فقراتها بالحبر والبعض الآخر بالقلم الرصاص وفي بعض أجزائها كانت الحروف غير متميزة لا تكاد ترى: يبدو أن دموعًا سالت عليها وصفحات كثيرة منها كانت مخضبة بالدم.

أمسك المدرس بالدفتر الصغير ورفع رأسه قائلًا لزوجته:

- إذا طرق أحد الباب، لا تفتحي.

٢٣ يناير:

هذا الصباح وجدنا في أحد مجاري السيول ثلاثة جنود موتى متجمدين. كان الجليد يغطي أجسادهم فلا تبرز سوى أقدامهم. ولولا ذلك ما اكتشفناهم. وجدنا معهم أيضًا واحدًا من الأنصار يرتدي على اللحم ملابس الفرقة المصنوعة من التيل، بدون ملابس داخلية، حافي القدمين، ساقاه مصابتان بالجروح. يبدو أنه سقط معهم. وكان الأربعة جميعًا متماسكين ملتصقين يحتضنون بعضهم بعضًا محاولين أن يتبادلوا الدفء.

٢٩ يناير:

حبيبتي. رأيت الليلة حلمًا مختلطًا هو أغرب الأحلام التي رأيتها في حياتي. لم أستطع أن أجد له معنى. لكنه رغم ذلك قلب كياني.

خيل لي أنني في أعماق البحر أسمع سمكة من نوع البيكاريل تخاطب الرب في غضب شديد. رأيتها تفتح فمها وتغلقه دون أن يخرج منه صوت، لكني كنت أفهم ما تقول، تمامًا كما نفهم إشارات البكم. بل كانت كلماتها تزن في رأسي ثائرة عنيفة. زعانفها الشوكية القبيحة تهتز في سخط وهي تصيح:

«إذا كنت عادلًا يا يسوع، فيجب أن تعطي القوة لمن هم على حق لا لمن هم على باطل!».

ويبدو أنها كانت تشكو سمكة أخرى أكبر منها، ولهذا لجأت إلى الله. ورد عليها الله، لكني لم أسمع صوتًا. فقط رأيت المياه تفور وتمور حول السمكة فتدور ضائعة في دوامة الماء. ثم يهدأ البحر، فترفع السمكة رأسها مرة أخرى، وتتردد في روحي نفس الكلمات: «إذا كنت عادلًا يا يسوع، فيجب أن تعطي القوة لمن هم على حق لا لمن هم على باطل!».

ماريو حبيبتي. أشعر بأني لو بقيت طويلًا في هذه الجبال، فسوف يختلط عقلي. لابد أن أفكر فيك يا حبيبتي ليل نهار حتى لا أصاب بالجنون.

أول فبراير:

قضيت النهار كله معك يا ماريو. وطوال النهار امتلأ أنفي بعطر خفيف، كأنما أزهرت في داخلي شجرة لوز يفوح عبيرها. أنت تذكرين أنه في مثل هذا اليوم تعارفنا، منذ عام كامل، وقمنا بتلك الرحلة إلى سونيون لنزور معبد بوزايدون. كنا نحمل خبزًا وبرتقالًا كثيرًا، ونحمل هوميروس. وأزهار اللوز قد تفتحت. والأعشاب الرقيقة تغطي الأرض. ولعبنا مع الجديان. وتضوعت أشجار الصنوبر بعطر حلو كالعسل. وفوق رؤوسنا أشرقت الشمس - الأم الحنون -

تلفنا بالدفء. كم كانت تتباهى بمنظرنا ونحن نسير على قطع الحجارة كأننا حشرتان صغيرتان سعيدتان! وكنت أنت ترتدين بلوزة بنفسجية وتضعين على رأسك بيريه من المخمل الأبيض، أفلتت من تحته خصلتان نافرتان. ومشينا مسرعين. كم كنا صغيرين في ذلك الوقت. ولكن، كم تقدم بي السن في عام واحد فلم أكن شاهدت من قبل جثثًا، وها أنا أجلس الآن على أكوام مكدسة من الموتى وقد تحول قلبي إلى قطعة من الحجر. كنا نتكلم عن هوميروس. هل تذكرين؟ وأشعاره الخالدة تحملنا كالموج. كم كنا سعيدين! الكلمات المقدسة انتفضت فجأة فأصبحت شيئًا حيًا في قلبينا. هوميروس، إنجيل شعبنا العريق! كنا نشعر به يضحك في نفوسنا ويدوي كأمواج البحر تيتيس تمتطي السحاب وتصعد من الكهوف في أعماق المحيط تحمل لابنها أسلحة ذات بريق.

كنا ننشد الأبيات الخالدة، ويدانا متشابكتان، نتأمل من خلال أشجار الصنوبر شمس الإغريق تداعب البحر:

«صنع أولًا درعًا عظيمًا متينًا

صاغه من كل جوانبه.

وأحاطه بحاشية مثلثة

وجعل له محملًا من فضة.

كان الدرع من خمس صفائح متشابهة

نحتت عليها يد بارعة ألف تحفة.

ظهرت فيها الأرض والبحر والسماء

والشمس التي لا تكل ولا تمل

والقمر في اكتماله. وكما يوجد في الطبيعة،

تاج النجوم

والثريات الصغيرات هياديس

والمعلقات السبع بلياديس، والجوقة

والعذراوات السبع، وتسمى أيضًا العربة، التي

تدور حول نفسها ولا تهبط في المياه أبدًا.

ظهرت فيها أيضًا مدينتان جميلتان من مدن البشر

الأولى حافلة بالمآدب الجليلة

وأعراس الزفاف. كانوا يزفون الفتاة

خلال الشوارع بعيدًا عن منزلها

في موكب من القناديل وأغاني الفرح

والغلمان يرقصون في حلقات

على أنغام المزامير والقيثارات

والجارات يخرجن لينظرن

كل واحدة منهن تجري إلى عتبة منزلها».

لم نكن نشبع من هذه الأبيات الخالدة لجدنا العريق. هل تذكرين؟ نشدو بها تحت أشجار الصنوبر فيخيل إلينا أنها تجري وتتدافع كالنهر يسعى إلى البحر.

حبيبتي كم كان من الممكن أن تصبح الحياة جميلة بسيطة طيبة، فماذا حدث؟ كنت معك ذلك اليوم - ذلك اليوم الخالد - أفيض بالحب نحو كل شيء، حتى نحو أحقر الديدان الصغيرة. واليوم أقف على أرض إيبير العريقة أحمل بندقية وأقتل أقراني. لا لم نصبح بعد جديرين بأن نسمى بشرًا. نحن لا نزال في وسط الطريق بين القرد والإنسان. بل نحن أقرب إلى القردة منا إلى البشر. شيء منا، بين الاثنين. ومع ذلك يا عزيزتي ماريو، أشعر بقلبي يذوب في ذكراك ويتفتق مثل زهور اللوز، لا يكاد يتذكر هوميروس، حتى يدرك ما هو الإنسان وما هو الخلود.

3 فبراير:

عندما استيقظت، كانت شجرة اللوز لا تزال تفتح زهورها داخل نفسي، والدماء تنبض في عروقي بإيقاع موسيقي مفعم بالروح والحزن والحنين. اسمك يا ماريو العزيزة يخطر برقة على قطرات دمي كما يخطر طير البحر على صفحة الماء. آه! كم أود لو يتاح لي الوقت - الوقت والقوة - فأصوغ هذا الإيقاع في كلمات وأنقله في قصيدة شعر!

على شفتي طافت أغنية، فقلت لنفسي. آه! لو يتركوني اليوم وحدي ومعي ورقة وقلم؟! لكن البروجي أطلق إشارة الخطر، فحملنا بنادقنا. كان المتمردون قد أطلوا بوجوههم من فوق قمة النسور حيث تحصنوا منذ عدة شهور دون أن نتمكن من إزاحتهم. وكان معنى ذلك أننا سنتبادل الذبح مرة أخرى. وفي هذه الساعة، أكتب لك بعد أن عدنا، وقد هبط الليل، منهكين مخضبين بالدم. من كلا الجانبين سقط عدد غير قليل من الضحايا، دون أي نتيجة لنا أو لهم.

جرت الدماء دون جدوى..

عندما يصف لنا هوميروس معارك الآخيين والطرواديين، وعندما نقرأ ما يحكيه عن آلامهم، نستشعر نوعًا رقيقًا من السرور، وتصبح أرواحنا ذات أجنحة، لأن مبدعًا عظيمًا استطاع أن يستخرج من هذه المذبحة غناء لا مثيل له. ها هنا يبدو كأن هؤلاء الضحايا ليسوا بشرًا، لكنهم قطع من السحاب ذات أشكال بشرية، لا تحس بالألم، تتلاقى في معركة وهمية خلال الأثير الذي لا يصيبه سوء. دماؤهم المراقة تبدو مثل غسق المساء القرمزي. ففي الشعر، ليس ثمة فارق بين الإنسان وقطعة السحاب، ولا بين الموت والخلود. أما حين يحدث ذلك على الأرض بين متحاربين

لهم أجساد حقيقية تتكون من لحم وعظم وشعر وتجري فيها الروح، إذن كم تصبح الحرب يا حبيبتي شيئًا بالغ الوحشية.

نبدأ القتال ونحن نفكر في أننا لا نكره أحدًا، وأننا قادرون على كبح جماح أنفسنا والتمسك بإنسانيتنا حتى خلال المعركة. لكن لا نكاد ندرك أن المسألة أصبحت دفاعًا عن الحياة، حتى نشعر بوحش أسود كثيف الشعر من أجدادنا الغابرين، ينتفض في أعماق نفوسنا. وسرعان ما نفقد وجهنا الإنساني ونحمل بدلًا منه قناع غوريلا. ويتحول رأس الإنسان إلى كرة من الدم مختلطة بالشعر ونأخذ في الصياح. «إلى الأمام جميعًا! سنغلبهم!» لكن هذه الصيحات ليست صيحاتنا، رغم أنها تخرج من أفواهنا. إنها ليست صيحات بشر. حتى الكائن الشبيه بالقرد يفر مذعورًا إذا سمع صياح هذا الجد الغابر جدًا: الغوريلا.

في بعض الأوقات يتملكني حنين أن أقع قتيلًا لأنقذ ما تبقى لي من إنسانية وأنجو من الوحش الذي يلبسني. لكنك أنت، أنت تجعلينني أتمسك بالحياة. وهكذا أصبر. وأقول لنفسي. لا بد حتمًا أن تتوقف المذبحة في يوم ما، فأستطيع أن أنسلخ من جلد الغوريلا: ملابس الفرقة والحذاء الثقيل والبندقية. ثم نعود يا ماريو العزيزة إلى سونيون، يدك في يدي، نردد أشعار الإلياذة الخالدة.

١١ فبراير:

انهمر الثلج طوال النهار. وكان البرد يخترق عظامنا، وليس عندنا من الخشب ما نستدفئ به. لم يسمح لنا الأنصار بلحظة نغمض فيها عيوننا. كان الرعب يبعد النوم عن جفوننا ليل نهار. البنادق في أيدينا طول الوقت. حالة الخطر استمرت دون انقطاع، والآذان مرهفة. لا تكاد تتدحرج قطعة حجر أو يتحرك حيوان، حتى يبدأ على الفور إطلاق النار في الظلام. القلق الدائم والحرمان من النوم لم يتركا من أجسادنا سوى الظلال. ثم يا ليتنا واثقون من أننا نحارب لفكرة كبيرة..

عندنا قومندان فظ جدًا. شخصيته قاسية. دائمًا غاضب ثائر هناك مصير محتوم يدفعه، وسوف يبتلعه، ولا بد أنه يدرك ذلك، وهذ ما يجعله سيئًا إلى هذه الدرجة. لكنه عاجز عن المقاومة، ينحدر مطأطئ الرأس نحو الهاوية. هذا القومندان يبدو لي مثل بطل تراجيدي، ولهذا أحمل له نفس الاحترام والإشفاق اللذين نشعر بهما عندما نرى أوديب يصارع الحقيقة، أو أغا ممنون يدخل الحمام ليقتل. لكنه منذ عدة أيام على وجه التحديد لم يعد قط إنسانًا. أصبح وحشًا مفترسًا. تركته زوجته والتحقت بالأنصار على الجبل. كانت قد أتت من مدينة جانينا في عيد رأس السنة. امرأة رائعة! على الأقل هذا هو الانطباع الذي تركته فينا في هذا الجو الموحش. كانت مثل فجر طلع في ظلام دامس! لم نكن رأينا امرأة حقيقية منذ عدة شهور ونحن مشردون وسط الجبال لا نعرف النظافة ولا الحلاقة ولا النوم. وظهرت هذه الجنية الساحرة. هذه المرأة ذات الشعر الأشقر والقوام الممشوق وطابع الحسن. مشيتها! وفوق ذلك كله، العطر الذي تتعطر به والبودرة الزهور التي تتحلى بها، فتترك خلفها خطًا من العبير.

في أول الأمر أصبحنا نرى القومندان يضحك. لم يعد وجهه كما كان. وأصبح ينظر إلينا كبشر. وفي كل يوم كان يحلق ذقنه، ويرتدي أحسن ملابسه، ويلمع حذاءه. وتغير حتى صوته

وطريقة سيره. لكننا لم نر زوجته تضحك أبدًا.. وبمرور الأيام كانت تزداد اكتئابًا. وإذا نظرت إلينا تبدو نظرتها قاسية باردة مليئة بالكراهية. وفي إحدى الليالي، فتحت الباب وفرت إلى الجبل. وأتى ستراتيس الخبيث ذو الساقين المعوجتين، ونقل إلينا الخبر وهو يتلوى من الضحك. وألف أغنية انتشرت بسرعة في المعسكر، تقول «العصفورة تركت القفص، وطارت بأقصى سرعة، بأقصى سرعة..» وقال صديقي فاسوس هامسًا:

- لقد ضعنا جميعًا. الآن لن يتركنا قبل أن نسقط كلنا قتلى. سوف يستمر القتال ليل نهار!

وصمت لحظة يفكر، ثم قال لي بصوت منخفض لا يسمعه أحد آخر:

- أقسم لك يا ليونيداس إنه لا يهمني أن أقتل، بشرط واحد، هو أن أعرف لماذا أو من أجل من. لكني لا أعرف. فهل تعرف أنت؟

وكيف لي أن أعرف يا حبيبتي؟ وبماذا أرد عليه؟ هذا هو الشيء الذي يسبب لي أشد العذاب.

١٣ فبراير:

بروجي خطر في الفجر. ضربنا حصارًا حول القرية كي لا يهرب أحد. صدرت الأوامر باعتقال كل من له أب أو ابن أو أخ أو زوج مع المتمردين، والتحفظ على الجميع خارج القرية في حفرة كبيرة محاطة بالأسلاك الشائكة. وهكذا دخلنا البيوت وسحبنا الزوجات من مراقدهن والعجائز والشيوخ. وبدأ الناس يصرخون ويتعلقون بالأبواب والنوافذ والأحواض. وكان علينا أن ننتزعهم. كان الجنود يضربون على أيديهم بالعصي الغليظة، ويمزقون ملابسهم ويجرونهم. وجرح الكثيرون أثناء صفهم لإنزالهم إلى الخندق المعد لاعتقالهم. في أول الأمر شعرت بالرغبة في البكاء. أثارني هذا الظلم ولم أستطع أن أحتمل صراخهم. و كانت العجائز تشتمني وأنا أدفعهن بالقوة، فكنت أشعر بالرغبة في أن أضمهن بين ذراعي وأبكي معهن. كن يصرخن:

«ماذا فعلنا؟ لماذا تضعوننا وراء الأسلاك الشائكة؟».

وكنت أقول لهن.

«لا شيء قط. هذا ليس ذنبنا. هيا أمامي!».

ولكن شيئًا فشيئًا، اندمجت في اللعبة. ما هذا الوحش الخطير الكريه الذي يسمونه إنسانًا؟ في أول الأمر حاولت رغم أنفي أن أسلك كما لو كنت متوحشًا، فكانت النتيجة أن أصبحت متوحشًا. وبدأت أقتحم الأبواب وأجذب النسوة من شعورهن وأدوس على الأطفال الصغار.

14 فبراير:

الثلج يتساقط. الجبال كلها بيضاء ناصعة والبيوت مكسوة تمامًا بالثلج. شيئًا فشيئًا تنكرت كل الأشياء القبيحة في القرية تحت قناع سحري حتى الخرقة الممزقة المعلقة على حبل، أصبحت ذات

منظر ساحر رائع. والمهر الذي بنفق تحت الثلج تتحول جثته إلى مجموعة من النتوءات اللطيفة والألوان الجميلة: لون وردي في الصباح، وأزرق بعد الظهر، وبنفسجي في المساء. والدنيا كلها تسبح في صفاء ناصع كالقمر. قولي لي يا ماريو. كم كانت تصبح سعادتنا لو لم تكن الحرب قائمة وانطلقنا نحن الاثنين نتنزه على الجبل تحت قطع الثلج بحذاءين كبيرين، نرتدي البلوفر والطاقية الصوفية حتى الأذنين، وفي المساء نذهب إلى بيت صغير به حمام دافئ ومائدة معدة في ركن بجوار النار وعليها أطباق الحساء يتصاعد منها البخار! ترى من هو هذا الفاتح المشهور الذي تنهد ساعة موته وقال: «ثلاثة أشياء تمنيتها طوال حياتي: بيت صغير، وزوجة طيبة، وأصيص به ريحان. لكنني لم أصل إليها أبدًا».

ما أبسط الحياة يا حبيبتي إذا تأملنا حقيقتها! وما أقل ما يلزم الإنسان من أشياء كي يكون سعيدًا! لكنه يفضل أن يضيع جريًا وراء أمجاد وهمية. أكثر من مرة، تملكتني الرغبة في أن ألقي البندقية وأرحل، وأظهر فجأة على عتبة غرفتك يا ماريو! غرفة الطالبة. وإذ ذاك أمسك بيدك دون أن أتكلم. فقط لأشعر في يدي بحرارة يدك. أنا واثق يا حبيبتي أنه ما من سعادة أعظم من أن أضغط على راحتك. لكنني لن أفعل قط، وسأبقى هنا والبندقية على كتفي، أحارب حتى يأمروني بالعودة لماذا؟ لأنني خائف. لأنني أشعر بالخجل. وحتى لو لم أكن خائفًا، فلن أفر من الحرب. فهناك الواجب، والوطن، والشرف، والفرار من الجندية، هذه الكلمات الكبيرة الرهيبة التي تقيد بالأغلال روحي المسكينة وجسدي، وتصيبني بالشلل.

16 فبراير:

يكفي أن أعرف شيئًا واحدًا لأحتمل كل ما أفعل وكل ما أرى هنا. شيئًا واحدًا! لماذا. لماذا نحارب نحن الجيش الوطني - أو رجال البيريه الأسود كما يطلقون علينا - لماذا نحارب لننقذ اليونان بينما أعداؤنا رجال البيريه الأحمر يحاربون ليبيعوا اليونان ويقسموه؟! لو أستطيع فقط أن أعرف ذلك! لو أستطيع أن أعرفه عن يقين! إذن لأصبحت كل جرائمنا مقبولة - كل ما صنعناه وكدسناه من شقاء نتيجة أعمال القتل والإحراق والانتهاك. إذن لقدمت روحي - لا أقول بسرور، طالما أنك موجودة يا ماريو - لكن على الأقل باستسلام، ولقبلت أن أضيف عظامي إلى عظام أجدادي، ما دامت الحرية كما يقول النشيد الوطني ثمرة أكوام من الهياكل العظمية.

كنت قد أمسكت بامرأة من رقبتها وركلتها لأدفعها إلى الصف. واستدارت تنظر إليّ. لن أنسى نظرتها مدى الحياة أبدًا، أبدًا. كل ما يمكن أن يتاح لي من خير أفعله لا يكفي ليهبني الراحة بعد هذه النظرة. لم تفتح المرأة فمها. لكنني سمعت في داخلي صرخة عظمى. «ألا تخجل يا ليونيداس وقد سقطت إلى هذا المستوى من الانحطاط؟» ووقفت مشلولًا. وهمست: «أنا أشعر بالخجل. أشعر بالخجل. لكنني جندي. لم أعد أملك حريتي. لم أعد إنسانًا. اغفري لي» لكن المرأة لم تجب. رفعت رأسها شامخة عالية، وضغطت بذراعيها على ابنها الرضيع ودخلت في الصف. وقلت لنفسي. «لو استطاعت هذه المرأة لأشعلت النار في المعسكر وأحرقتنا جميعًا. وابنها الرضيع لن يرضع لبنًا بعد ذلك، بل كراهية واحتقارًا وانتقامًا. وعندما يكبر سيذهب ليلتحق بالمتمردين. وسيفعل هو ما لم يستطع أن يفعله أبوه وأمه. وسندفع غاليًا ثمن الظلم».

والغريب أن هذا التفكير خفف عن نفسي هل تصدقين يا حبيبتي؟ قلت لنفسي: إن مظالمنا وتصرفاتنا الوحشية وأعمال الإذلال التي نلحقها بهم لن تضيع هباء ستعود مرة أخرى. ستجعل قلوب ضحايانا قاسية.

كان من الممكن أن يظل هؤلاء القرويون راضين بالعبودية طوال حياتهم لا يرفعون الرأس أبدًا. لكن من حسن الحظ أننا متوحشون. لا نترك عبيدنا نيامًا في استسلام الجبن، بل نوقظهم بركلات الأقدام. وهم يستيقظون فعلًا. وسرعان ما نرى بعد ذلك فرق الجبال تهبط لتسحق فرق السهول! وإن شاء الله هذا الطفل الرضيع سيكون على وجه التحديد قائدهم. الرضيع الذي تحتضنه اليوم ذراعا أم صامتة ذات كبرياء...

١٧ فبراير:

الحرب، دائمًا الحرب، والثلج والبرد والجوع والغربان. والهدوء الذي يسبق العاصفة. ثم مرة أخرى البرد والجوع والغربان. الليل، ودوريات المرور والطواف في الصقيع. أحد الزملاء لم يرجع. خرجوا يبحثون عنه بالكلاب. وجدوه في حفرة متجمدًا وعيناه مفقوءتان. فالغربان تبدأ دائمًا بالعينين. وفي كل مكان بالجبل ترقد جثث البغال والجياد التي نفقت نتيجة الجوع والبرد والمدفع. قال لي فاسوس اليوم: «أنا لا أتحسر على البشر فنحن نستحق ما يحدث لنا. لكن ما ذنب البغال والجياد؟».

٢٣ فبراير:

لماذا ومن أجل من نحارب؟ في كل يوم يتزايد في نفسي الشك، ومعه القلق. وقد وصلت بي الحال إلى حيث أصبحت أخف اللحظات التي أستطيع احتمالها، هي تلك التي أقبض فيها بيدي على البندقية. وهذه حقيقة أرتعد لها. لكن في تلك اللحظات لا يكون لدي من الوقت والقوة ما يسمح بالتفكير، فلا يبقى إلا أن أحارب كحيوان يدافع عن جلده. ثم لا تكاد العاصفة تهدأ حتى أواجه مرة أخرى هذا السؤال الرهيب ينتفض أمامي وينفخ رقبته كالأفعى: هل نحن الذين نحارب للباطل والظلم واستعباد اليونان وإنقاذ المجرمين؟ هل نحن المرتزقة والخونة؟ وهل رجال الجبل يمثلون قطاع الطرق والمتمردين في ثورة عام 1821 [4]؟ كيف أستطيع أن أكتشف القضية العادلة التي تستحق أن أضحي بالحياة من أجلها؟ لا أظن أن المحارب يواجه سؤالا يعذبه أكثر من هذا. صباح اليوم، أمر القومندان بإطلاق النار على خمسة صبية، خمسة فتيان مفعمين بالحياة، لأنهم رفضوا التجنيد في الجيش الوطني وأصروا على ذلك. وطوال النهار كنت أتساءل: هل يمكن ألا يكون عادلًا هذا الهدف الذي يصنع مثل هذه البطولة ومثل هذا الاستهتار بالموت؟ لكنني لم أستطع أن أصل إلى جواب. فأنا أعرف من رجال البيريه الأسود من تصرفوا في المعسكر الآخر بنفس هذا القدر من البطولة. كان الأنصار بعد أن يأسروهم يسألون:

«هل ترغبون في الانضمام إلينا على الجبل؟ - لا، لا نريد، - سوف نقتلكم رميًا بالرصاص. اقتلونا لقد ولدنا يونانيين وسنموت يونانيين».

ويطلقون عليهم الرصاص. ويموتون صائحين. «عاشت اليونان، عاشت الحرية!».

البطولة والإيمان لا يصلحان إذن معيارًا حاسمًا للحكم. فكيف تميز الحق من الباطل؟ كم من الأبطال والشهداء ضحوا بأنفسهم من أجل هدف باطل؟ فالرب والشيطان: كل واحد من الاثنين له قديسوه وشهداؤه. فكيف تميز بين النوعين؟

أول مارس:

السماء تختلط بالجبال، فلا نستطيع أن نميز شيئًا. الضباب يلفنا والثلج يسقط قطعًا كبيرة. ومنذ الصباح نعمل على إزاحة الجليد. اليوم لا حرب. لن يهبط رجال البيريه الأحمر، ولن نذهب نحن للبحث عنهم. تدخل الرب بيننا وبينهم ليعطينا فترة قصيرة نتنفس فيها. حوالي الظهر حضر ستراتيس لزيارتنا. كنا نجلس ملتصقين في أحد أركان المعسكر. أنا، ومعي صديقي فاسوس، وبانوس وهو راعي غنم ساذج جدًا، وليڤي وهو يهودي شيطان، وقال لنا ستراتيس.

- تعالوا. أنا في حاجة إليكم.

وتبعناه خلال الثلج المتراكم نخوض فيه حتى الركبتين، وكل منا يحاول أن يسير في آثار من يسبقه. ودفع ستراتيس باب أحد البيوت الخالية. كنا قد أتينا هذا البيت منذ عدة أيام واعتقلنا صاحبيه - الرجل الشيخ وزوجته العجوز - ووضعناهما وراء الأسلاك الشائكة، لأن لهما ابنين معروفين بالشجاعة يعملان مع المتمردين.

وجدنا في أحد الأركان منضدة، ووجدنا بلطة، فكسرنا المنضدة إلى قطع صغيرة من الخشب لنشعل النار. وبعد المنضدة، حطمنا أريكة متداعية.

وارتفعت النار وتراقصت في المدفأة. وتلاصقنا حولها نمد أيدينا لنستدفئ، وشيئًا فشيئًا عاد الدم يجري في عروقنا ولمعت وجوهنا. وتبادلنا النظرات. إن أقل الأشياء تكفي لتبعث الفرح في نفس الإنسان. كانت أيدينا تمتد نحو اللهب كأننا نصلي، وكأن النار أصبحت مرة أخرى إلهًا - أقدم الآلهة وأحبها وأعظمها في خدمة البشر. حرارتها جعلتنا إخوة متلاصقين، كالفراريج تحت جناح دجاجة واحدة.

كنا خمسة. ليس منا واحد يحمل نفس أفكار الآخر أو يمارس نفس عمله أو يؤمن مثله بنفس الهدف في الحياة. خمسة عوالم مختلفة.

ستراتيس عامل في مطبعة، وبانوس يرعى الماشية، وفاسوس نجار، وليڤي تاجر، وأنا طالب. ومع ذلك كانت الحرارة في هذا الوقت تجمعنا في خليط واحد، وتجعلنا شخصًا واحدًا. ذابت عروقنا وقلوبنا معًا.

أقدامنا ممتدة في صف واحد أمام المدفأة، يتصاعد منها ارتياح سعيد يصل إلى الركبتين والظهر ثم إلى القلب والرأس. وكان بانوس هامد القوى تمامًا، فنام. ونظرت إليه في حسد، وتملكتني رغبة في أن أغمض عيني لأعوض الليالي التي فاتتني فيها النوم. لكن ستراتيس لكزني:

- أنا أحضر كم إلى هنا لتناموا؟! افتحوا عيونكم يا حثالة. عندي شيء مهم سأقرؤه لكم.

وسحب من جيبه رسالة وقال:

- أقسم لكم يا أولاد، أنا لا أعرف كيف وصلت هذه الرسالة إلى جيبي. لابد أن معنا جاسوسًا يوزع أحيانًا مجلة «الراديكالي» وأحيانًا المنشورات الشيوعية والرسائل. المهم أنني وجدتها في جيبي هذا الصباح. وقرأتها مرة ومرتين. ولم أصل إلى رأي فيها. فدعوتكم لنقرأها معًا ونناقشها. نعم يا عساكر. هل نحن بالفعل آدميون، أم قطيع من الخراف نسير مستسلمين إلى المجزر نثغو. ماء، ماء - أي: اذبحونا آمين! اذبحونا آمين!

وغمز له ليڤي بعينه ساخرًا:

- قل لي إذن يا ستراتيس يا أخبث الماكرين. هل هذه مصادفة أنك تصاحبني؟ يقال إن اليونانيين يغلبهم اليهود، واليهود يغلبهم الأرمن. وفي حدود معلوماتي، أنت لست أرمنيًا. أليس كذلك؟ إذن لن تغلبني. إنك أنت الذي كتبت هذه الرسالة. احذروا يا أولاد..

ودافع ستراتيس عن نفسه قائلًا:

- مهما كان الثعلب ماكرًا يا عزيزي إبراهام، فهو يكشف عن نفسه بأرجله الأربع خذ الرسالة وانظر الخط والتوقيع. ها هي.

وأخذ ليڤي الرسالة وانحنى بها على النار. وصاح:

- لكن هذا الكلام من أليكوس الأعرج! إذن فهو حي لم يقتل؟ يا خسارة الدموع التي سكبتها عليه!

كان أليكوس جنديًا ماكرًا كالشياطين، عمل معنا طباخًا. وقبل الحرب كان صاحب محل حاتي في بريفيزا. شخص سمين أعرج له شارب كثيف. كنا نجد دائمًا في الحساء شعرات من شاربه. وفي أحد الأيام قيل إنه قتل وأكلت بنات آوى جثته. ووزعنا فيما بيننا مخلفاته: بعض الصيديريات والأحذية وأربع سكاكين من الفضة كان قد سرقها.

وتصايحنا جميعًا:

- هل هو حي؟ هل هو حي؟ اقرأ يا ستراتيس. من أين يكتب؟ وماذا يقول؟ حتى هذا الأعرج؟

وسأل ليڤي:

- لمن يكتب؟

وأجاب ستراتيس:

- ليس لأحد. أو بعبارة أخرى، لكل الناس. هذه بالفعل رسالة عامة كما يقول بنفسه. ستسمعون. هيه يا بانوس. أيها الراعي العزيز، استيقظ. افتحوا آذانكم جميعًا!

واقترب ستراتيس من النار وبدأ يقرأ مضخمًا صوته:

«أصحابي الأنفار وعساكر المشاة. تحياتي لكم يا أولاد! أنا الشبح أليكوس الأعرج. هذه ليست رسالة عادية، لكنها عامة فافتحوا عيونكم. مضى شهر تقريبًا منذ رحلت من هذا المجزر حيث كانوا يسدون فمي، وحضرت لألحق بالشجعان على الجبال الحرة. يا جماعة الحمقى، لا تسمعوا ما يهرف به الأوساخ الذين يحشون أمعاءكم بالأكاذيب. يزعمون أننا هنا جوعى، وأننا نقتل الأسرى ونتعامل مع البلغاريين والألبانيين. إنما ترفرف هنا الراية اليونانية وحدها يشهد على ذلك شاربي الذي أطعمتكم منه شهورًا عديدة وعندما نقبض على رجل من البيريه الأسود نخيره بين أمرين. هل تريد أن تأتي معنا؟ إذن مرحبًا. هل تريد أن ترحل؟ إذن مع السلامة وإذا أردتم أن أرد عليكم بنفس الطريقة يا أولاد، فأنا أقول: عاش الأمريكان، الذين يرسلون لكم شحنات اللحم المحفوظ والشاي والسكر والمربى. إن التهمة تنقلب عليكم ونحن الذين نتهمكم. ولو كان الأمريكان يدعون بعض الأشياء تسقط عندنا، لأصبحنا في خير وفير. لكن من حسن الحظ أن الأب ترومان يعرف ماذا يفعل. ويبدو أنه سيرسل لكم إمدادات جديدة للصيف، ومعها مدافع وسيارات. ندعو الله أن تصل سريعًا حتى يتهيأ الناس قبل حلول هذا الفصل الجميل!

«وديني وإيماني، أنا أفكر فيكم كثيرًا، وأتألم لكم. حتى متى تستمرون في الانحدار والتدهور، يا بلاليص؟ ألم تدركوا بعد أنكم خسرتم المباراة؟ إننا نعيش مرة أخرى أحداث ثورة 21 - يا أصحاب الأمخاخ التركية! الأتراك هم أنتم، والمتمردون وقطاع الطريق الذين يحاربون من أجل الحرية هم نحن.

«قال لنا الكابتن يوم أول أمس. دائمًا تحارب من أجل الحرية صفوة قليلة، ولا تلبث دائمًا أن تكسب الجماهير. فإذا أردتم نصيحة أيها الحملان الصغيرة، فاقفزوا من فوق سور الحظيرة. افعلوا مثلي. فأنتم لستم عرجًا! أليس كذلك؟ اقفزوا من فوق السور وانضموا إلينا وإلا فسوف تضيعون يا صغاري الأعزاء ولن يبقى بعد ذلك إلا أن أنوح عليكم. ما أخبار الجزار قومنداننا السابق؟ ما أخبار الجاويش السابق ميتروس الأحمق الطيب ذي الرأس المصنوعة من شحم الخنزير؟ ما أخبار زميلنا السابق ليونيداس، الولد الصغير الطيب وأوراقه وأقلامه؟ العالم يمكن أن يحترق في أي وقت دون أن يشعر هو بشيء. إنه يغني على الجمر كالقواقع. وما أخبار زميلنا السابق إبراهام؟ ألا يزال الشيطان يلبسه كما كان دائمًا؟ وستراتيس؟ ألا يزال يسير بنصف قامته وساقاه كالطوق المستدير؟».

«انهضوا أيها الموتى بحق الشيطان! لا زال في الوقت متسع اخرجوا من قبوركم يا أولادي المساكين. تعالوا عندنا، على الجبل، نشرب ماء الخلود. هذا أنا الذي أكتب لكم أليكوس ذو القدمين الخفيفتين، الذي فر من المجزر، الطباخ ذو البيريه الأحمر!».

وطوى ستراتيس الرسالة وأعادها إلى جيبه قائلًا:

- هذا هو الموضوع. والآن يا أولاد، يجب أن نناقشه فليقدم كل واحد رأيه.. فإذا كان ما يقوله صحيحًا..

لكن أحدًا لم يتكلم. كنا ننظر إلى النار وهي تنطفئ، وتنطفئ معها قلوبنا. وأخيرًا قلت أنا:

- ما جدوى المناقشة يا ستراتيس؟ دعنا أولًا نهضم في عقولنا كل هذا، ثم نتكلم بعد ذلك..

وعلق ستراتيس في تهكم:

- هل أنت خائف؟ هل تخاف أن تقع وتقتل بالرصاص إذا حاولت الفرار من الخدمة؟

وأجبت:

- لست خائفًا من أن أقتل بالرصاص. لكني لا أحب أن يكون ذلك من أجل لا شيء. أنا لم أدرك بعد في أي الجانبين توجد الحقيقة وفي أي الجانبين يوجد الكذب.

ووجه ستراتيس السؤال إلى اليهودي:

وأنت يا مختون؟ لا جدوى من غمز العين. ليس هناك أسرار على الآخرين. تكلم على المكشوف.

وقال ليڤي وهو ينظر لي ساخرًا:

- في نظري أنا، لا تساوي الحقيقة درهمًا. كل أنواع الخنازير لها خرطوم واحد. وقد رأته عيناي كثيرًا. فليذهب الجميع إلى الجحيم. الجميع، الجميع..

وبصق في النار ثم أضاف:

- أنا لا أريد سوى شيء واحد. أن أعيش. وأنا الآن أعيش كملك: معي بندقية والبوليس يبيح لي أن أقتل. فماذا أطلب أكثر من ذلك؟ ليت الحرب إذن تستمر إلى الأبد! أما أن أعرف من أقتل ولماذا، فهذا شيء لا يشغلني لحظة واحدة.

ونظر إليه ستراتيس في وجهه قائلًا:

- ولكنك فاشستي!

وشحب وجه ليڤي، ومد يده نحو النار التي كادت تنطفئ وقال في همس:

- كيف تستطيع أنت أن تفهم يا صديقي المسكين ستراتيس؟

وساد الصمت مرة أخرى. كان يبدو لي أن ستراتيس يريد أن يقول شيئًا. ونظر إلينا الواحد تلو الآخر، لكنه لم يلبث أن ابتلع الكلمات التي تعلقت على طرف لسانه.

واستيقظ بانوس، ونظر إلى الجمر وتثاءب. ثم رسم على شفتيه علامة الصليب وبدأ يتكلم.

- قولوا لي يا أولاد. ماذا لو كان لدينا موقد ومعه قوالب فطير بالجبن وطبق به عسل وزجاجة عرقي و...

واستأنف فاسوس الكلام وهو يتنهد:

- وماذا لو لم تكن هناك حرب، ولو لم يكن لدينا أخوات يطلبن الزواج، ولو كنا قد أتينا هذه الجبال كرفاق رحلة لمجرد أن نطارد الخنازير الوحشية بدلًا من أن نطارد البشر..

3 مارس:

ليس هناك ما يثير الحزن أكثر من أن تحب، لأنه في الحب يمكن أن ينفصل الإنسان عن حبيبه. وليس هناك ما يثير الفرح أكثر من أن تحب، لأنه في الحب يمكن أن يعود الإنسان إلى حبيبه. الأيام والأسابيع تمضي، أحيانًا كعاصفة هوجاء من الجنون والدم، وأحيانًا أخرى ثقيلة كجثث الموتى. وأنا أمضي مع الأيام، لكن عيني تظلان ثابتتين عليك يا ماريو، وكل جهدي أن ألغي المسافة التي تفصل بينا. أنا أنظر إلى السحب تسير نحو الجنوب، فأسترجع في ذهني الأغاني الشعبية التي تستودع السحب والرياح والعصافير رسائل الحب لتحملها إلى المحبوبة. والفتاة تجلس إلى النافذة تنظر إلى السحاب وتفتح ذراعيها لتتلقى المحب الذي ينزل إليها مع المطر اسمعي.

«حبيبي الجميل. ليتك سحابة تطير حتى تصل عندي.

ليتك تغني ريحًا لينة تلامس سطح منزلي».

٧ مارس:

الحرب. مرة أخرى الحرب..

الأيام تزداد رقة، لكن قلوبنا نحن تزداد قسوة. المتمردون نزلوا، وصعدنا نحن لملاقاتهم. وحدث الاشتباك في منتصف جانب الجبل. بدأنا بالبنادق، ثم السنكي، ثم تصارعت الأجساد. ليس هناك أشد هولًا من أن تشعر فوقك بجسم إنسان يحاول أن يقتلك.. تشعر بأنفاسه واللعاب الذي يسيل من فمه وخوفه الذي يختلط بخوفك. ثم هذا الغضب الذي يثور داخل نفسك لتقتله، ليس لأنك تكرهه، لكن لمجرد أن تمنعه من أن يقتلك هو. أعتقد أن الوصول إلى القتل دون كراهية، بل بدافع الخوف فقط، هو أسوأ درجات التدهور.

كنت مشتبكًا مع فتى أشقر لا يزال صغيرًا جدًا، حافي القدمين، يرتدي - بدلًا من البنطلون - نوعًا من القماط يلفه حول وسطه كما كان يفعل الإغريق القدماء. وغرز أسنانه في عنقي. لكنني في تلك اللحظة لم أشعر بشيء، وقبضت على وسطه وانحنيت عليه أحاول جاهدًا أن ألقيه أرضًا. لم ينطق واحد منا بكلمة. فقط كنا نحن الاثنين ننصت إلى صدرينا يلهثان وعظامنا تئز. كم من الوقت تصارعنا؟ لا أذكر سوى شيء واحد هو أن ركبتي انهارتا وأن الفتى الأشقر أمسكني بإحدى يديه ورفع خنجره باليد الأخرى. وفجأة أطلق صرخة حادة وتدحرج تحت قدمي. انغرزت في ظهره سكين. كان أحدهم قد تدخل. ستراتيس؟ فاسوس؟ بانوس؟ لم أستطع أن أحدده، لكنني سمعت فقط صوتًا يقول: «اطمئن يا ليونيداس!» ورأيت السكين يبرق فانهرت أنا أيضًا. كان الدم يسيل من عنقي، وجسمي يتألم.

وعدنا بعد أن هبط الليل. ولحق بي فاسوس قائلًا:

- هل رأيت؟ لقد أصبته تمامًا. لو كان ذلك تأخر لحظة، لكنت الآن مع عزرائيل.

وأسرنا ثلاثة: الفتى الأشقر الصغير الذي أصيب بجرح في كتفه فقط، واثنين آخرين عملاقين كانا قد خرجا إلى الحرب لا يحملان سوى زمزمية ماء على أمل أن ينتزعا بأيديهما سلاحًا وكلفوني مع اثنين من الزملاء أن نحرسهم أثناء الليل. وأعطيناهم قروانة لوبيا مسلوقة وقطعة خبز جافة وانكفأ العملاقان على الطعام يأكلان على الأرض كالكلاب. أما الفتى الأشقر فكان يتألم والدم يسيل منه، فلم يقبل على الأكل. وفتحت الحديث معه قائلًا:

- من أين أنت يا زميل؟ وما اسمك؟

- من باراثيا في منطقة أيبير أنا نيكوليوس الأفيف.

- ألا تعرفني؟

- لا يا عمي الصغير. لماذا؟ هل أعرفك؟

- لكننا تصارعنا معًا هذا المساء عندما كنت تعض رقبتي. ماذا تحمل في نفسك ضدي؟

- أنا؟ وماذا يمكن أن أحمل ضدك يا زميل؟ أنا لم أرك قط ولا أعرفك. وأنت؟ هل تحمل في نفسك شيئًا ضدي؟

- لا، أبدًا..

فقال وهو يطرف بعينيه كأنما يفكر في هذا الموضوع لأول مرة:

- وإذن؟ إذن لماذا أراد كل منا أن يقتل الآخر؟

ولم أجب. واقتربت منه أكثر.

- هل تشعر بألم؟

- طبعًا أشعر بألم. وأنت ما اسمك؟

- ليونيداس.

- أشعر بألم يا ليونيداس. أشعر بألم. ماذا سيصنعون بي الآن؟ هل سيقتلونني؟

- لكن لا لاتخف يا نيكوليوس. نحن - أقصد هنا - لا يوجد قتل.

- إذن قل لي، هل إذا حاولوا قتلي تحميني أنت يا ليونيداس؟ أنا أثق فيك. ولا أعرف عندكم أحدًا آخر. قل لي هل تحميني؟ نحن صديقان؟

وقلت له وأنا أحمر خجلًا:

- لا تهتم يا نيكوليوس. سأفعل ما أستطيع.

وهل يتوقف الأمر على إرادتي؟ كيف أستطيع، أنا العسكري النفر، أو الطالب الصغير، أن أذهب لأقف كاللوح أمام القومندان، بل أن أخطو أمامه خطوة واحدة، لكي لا يقتل نيكوليوس؟

وفجأة تذكرت الحلم الذي رويته لك منذ عدة أسابيع - سمكة البيكاريل التي تشكو إلى الله: «لو كنت عادلًا يا يسوع، فيجب أن تعطي القوة لمن هم على حق لا لمن هم على باطل.»، وا آسفاه! هذه السمكة هي أنا!

٨ مارس:

هذا الصباح أعدم الثلاثة معًا. عندما وضعوهم لصق الحائط، استدار الجريح لينظر إليّ. كيف أستطيع أن أنسى نظرته؟ كان ينتظر أن أتدخل. أن أقترب من القومندان وأدافع عنه وأنقذه! لكني وقفت ثابتًا لا أنطق. ومع ذلك كنت أرتعد تألمًا واستنكارًا. ونظر إليّ نيكولويوس الأفيف نظرة مفعمة بالعتاب حتى شعرت بقلبي يتمزق. وأغمضت عيني حتى لا أرى.

ومر الجاويش ليخرج فرقة التنفيذ. وغاصت ركبتاي. ماذا يحدث لو استدعاني أنا؟ لو قال: «تقدم قليلًا يا ليونيداس، أيها المعلم، لنرى ما إذا كنت لاتخشى الدم!» ماذا كنت سأفعل في هذه الحالة؟ هل كنت سألقي بالبندقية وأصرخ: «اقتلني أنا أيضًا فلم أعد أحتمل»؟

لا، لا. فهذه الشجاعة لم تكن ستتوافر لي أبدًا كنت سأطيع الأمر يا ماريو لأنك موجودة وأنا أريد أن أراك مرة أخرى وأعود لأضمك بين ذراعي. كم من أعمال الجبن ارتكبت هنا من أجلك يا ماريو، وكم من أعمال البطولة صنعت. أنت وحدك منذ عرفتك تسيطرين على أفكاري وأعمالي.

على كل حال، الحمد لله أن الجاويش مر من أمامي دون أن يشير لي، وأخرج ثلاثة آخرين. وأغمضت عيني وانفجرت الطلقات. وارتطمت بالجليد أجساد ثلاثة صدر عن ارتطامها صوت مكتوم وفتحت عيني مرة أخرى. كان نيكوليوس الأفيف قد تدحرج على الأرض وانغمر شعره الأشقر في بركة من الثلج الأحمر.

١٢ مارس:

أصبت بالحمى منذ ثلاثة أيام. وكان ستراتيس يرعاني. خلال الأيام الثلاثة كنت سعيدًا لأني لا أدرك أين أوجد. نسبت الجبل والحرب، وخيل لي أنني في ناكسوس عند أسرتي في الجزيرة. لكني لم أكن وحدي، بل كنا نحن الاثنين معًا. قال لي ستراتيس إنني طوال فترة الهذيان لم أتوقف عن ترديد اسمك وأنا أضحك. هل تعرفين ماذا رأيت؟

كنا قد حصلنا نحن الاثنين على الدبلوم - أنا وأنت - واصطحبتك إلى الجزيرة لأقدمك إلى أمي وأبي قائلًا: «ها هي زوجتي. زوجتي. هل تباركان زواجنا؟».

ونزلنا في الميناء الصغير البائس الذي تفوح منه رائحة الحمضيات الفاسدة والليمون. وقبل أن آخذك إلى والدي، ذهبت أريك على الشاطئ صخرة معبد ديونيزوس وبابه الأثري الضخم. انتزع إله الخمر حبيبته آريان واصطحبها إلى هنا، وفوق هذه الصخرة اتحدت روحاهما لأول مرة.

وجلسنا بين قطع الرخام. وأمسكتك من خصرك. لم أعد أذكر ماذا قلت لك. أذكر فقط أنني كنت أشعر بنفسي إلهًا. تملكني سكر سماوي وأنا في حالة الهذيان كان يخيل إلى أن العالم كله يسقط في أعماق الموج، فلا تبرز منه سوى هذه الصخرة الأبدية الراسخة، ونحن فوقها سعيدان متلاصقان نتأمل البحر الذي يمتد إلى غير نهاية. وعاد الإله إلى الأرض. ديونيزوس عاد إلى الأرض وانتزع ابنه مينوس مرة أخرى، وجلس الاثنان هنا متلاصقين كأنما لم يتغير منهما شيء سوى اسميهما: أصبح ديونيزوس يسمى ليونيداس، وآريان تسمى ماريو.

وبعد ذلك - بعد ذلك أو في نفس اللحظة - أصبحنا في حديقة جدي في إيجاريس، القرية الجميلة الخضراء التي تبعد نحو ساعة عن المدينة كان ساعدي يحيط دائمًا بخصرك ونحن نتنزه تحت الشجر، ونرى أشجار الورد والتفاح والبرتقال محملة بالثمار. وكان الوقت ظهرًا، وفراشتان كبيرتان في حجم الكف تتطايران حول شعرك وتسبقان خطواتنا مثل ملاكين. وفي كل لحظة تدوران وتنظران لتعرفا ما إذا كنا نتبعهما، ثم تطيران أمامنا مرة أخرى. وسألتيني أنت وقد التصقت بي في شيء من القلق:

- إلى أين تذهبان بنا؟

وضحكت قائلًا:

- ألم تُخمني؟

- لا.

- إلى الفردوس.

وبقيت في الفردوس ثلاثة أيام بلياليها. ثلاثة أيام بلياليها في هدوء وانتعاش وسعادة هكذا يجب أن يكون الحب، وربما الموت أيضًا.

أما اليوم فقد هبطت الحمى. وفتحت عيني مرة أخرى: المعسكر والبنادق والسناكي، وستراتيس ينحني علي في عطف.

١٣ مارس:

لم أستطع اليوم أن أنهض. أشعر بإرهاق مريح. فأنا لا أستطيع أن أحمل بندقية مهما قال الجاويش. أما الآخرون فقد رحلوا منذ أول النهار ليستأنفوا القتال. وكانت الانفجارات تدوي في منعطفات الجبل دون توقف. ومن حين لآخر كانوا يأتون بمجموعة من الجرحى.

وامتلأ عنبر النوم بالأنين. لكنني كنت منهكًا، حتى خُيِّل لي أن هذا كله حلم ولم أشعر بأي شيء في العالم. كان كل ما يحيط بي أنين وصراخ وتوجع. لكنني لم أكن أفكر إلا فيك يا ماريو وفي الشعر. خلال اليوم كله كانت تحلق فوق رأسي في عنبر النوم الذي يثير الغثيان أبيات شعرية أربعة لأفلاطون، تشبه الفراشتين اللتين رأيتهما في الحلم. الأبيات التي كنا نحبها كثيرًا، هل تذكرين؟

«خذي مع قلبي هذه التفاحة الحمراء.

وإذا رضيت بقلبي، فأعطيني يدك..

وإلا فامضغي التفاحة التي في لون بشرتك لأنها لن تبقى حتى غد».

١٨ مارس:

منذ فترة تأتي عندنا امرأة تلف رأسها بمنديل أحمر، وتتجول حول المعسكر من حين لآخر تظهر وتختفي دون أن نتمكن من اصطيادها. وفي كل مرة تظهر، يكون معنى ذلك أن حدثًا سيقع. مرة تنفجر عربة نقل، ومرة يسقط جسر، وفي مرات أخرى وجدنا اثنين أو ثلاثة من زملائنا صرعى. وفي كل ليلة، بل وأحيانًا في وضح النهار ظهرًا، يرن في جنبات الجبل صوت غض، في الغالب صوت غلام، يصيح خلال بوق مكبر للصوت: «أيها الإخوة، كونوا إخوتنا! أيها الإخوة، كونوا إخوتنا!».

ويرتعد الراعي الطيب بانوس ويرسم علامة الصليب ويهمس: «ليس هذا صوت إنسان. إنه بوق الملاك يعلن حلول الدينونة الأخيرة!» ونضحك نحن في مرارة. ونسأله:

- والمرأة ذات المنديل يا بانوس، من تكون؟

ويجيب في تردد وبعد أن يرسم علامة الصليب أكثر من مرة:

- ربما تكون سيدتنا العذراء.

- إذن فالعذراء تقتل؟ وترمي القنابل اليدوية وتضع الديناميت تحت الجسور؟

- الحقيقة يا بانوس أنت تكفر وسوف تصيبك اللعنة!

ويفحم بانوس، ويهرش رأسه قائلًا في همس:

- وهل أعرف أنا يا أولاد؟ العذراء هي التي تفعل ما تريد؟

ويتكلم ليڤي ليغيظه:

- أما أنا فأقول لك إنها أم الشيطان.

ويجيب بانوس:

- ربما، ربما.. كل شيء يحدث. أنا لا أعرف سوى شيء واحد.

- وما هو يا بانوس؟ ما هي نبوءتك الجديدة إذن؟

- الشيء الذي أعرفه هو أننا وقعنا بين يدي الشيطان.

وانتفض ستراتيس. وستراتيس موجود دائمًا وفي كل مكان، ويسمع كل شيء، ويثير الجنود. ولهذا أطلقنا عليه اسم «البصلة» أو «جرس المنبه». صاح:

- إذن لماذا لا تذهب مع المتمردين يا بلاص؟

- لأنهم أيضًا بين يدي الشيطان.

- وأين الرب إذن؟ هل ترك الأمر؟

- من المؤكد أنه نام.

وانفجر الجميع ضاحكين. ولكني قلت:

- إنك أنت النائم يا بانوس. فهل ينام الرب مثلك؟

- بديهي. ألم تسمع هذا من قبل؟ ماذا تعلمت إذن؟ نعم ينام. وعندما ينام يستيقظ الشيطان ويفعل ما يريد. وهكذا بالدور. هل فهمت؟ وعندما ينام الشيطان يستيقظ هو. والآن الرب نائم، ولهذا السبب سيطر الشيطان علينا. هذا كلام مفهوم.

25 مارس:

هبت ريح دافئة حتى أحسست بالخضرة تنمو في رأسي. وامتلأ قلبي بزهور حنك السبع. اليوم العيد القومي. ألقى علينا القائد محاضرة. علق خارطة لليونان على حائط المعسكر، وأشار إلى الحدود الشمالية وشرح لنا لماذا يريد المتمردون أن يسلموا مقدونيا وإيبير للسلاف والألبان.

كانت عيناه تشتعلان، وإصبعه يرتعد على حدود اليونان، وضغط بيده على إيبير ومقدونيا والتراس، كأنما يريد أن يمسك بها. وصاح بصوت عنيف:

«منذ آلاف السنين عجن اليونانيون هذا التراب بالدم والعرق والدموع. فهو ترابنا! ولن ندع أحدًا يمد إليه قدمه، وإلا فالموت أهون من ذلك! لهذا السبب نحن هنا الآن يا أبنائي.. ولهذا السبب نحارب في إيبير. الموت للخونة! لا مهادنة! المتمرد الذي يقع بين براثنا، ليس له سوى الموت! الغاية تبرر الوسيلة. وغايتنا هي إنقاذ اليونان.

هذا الرجل لا يثير التعاطف قط. فهو فظ حقود ضيق الأفق، تسيطر عليه قوة غامضة قاتلة. في داخله وحش متغطرس مجروح استطاعت امرأة أن تدلل هذا الوحش وتهدئه بالكلمات الحلوة. لكن هذه المرأة رحلت، فأصابته بجرح آخر. ومع ذلك أشعر نحوه باحترام غير مفهوم، وأشعر نحوه بالخوف والشفقة فهو شجاع وشريف وفقير، وهو يؤمن بالمعركة التي يخوضها، وهو مستعد في كل لحظة للموت في سبيل اليونان. وعندما نكون معه، لا نكون على يقين أننا سنفلت من الموت، لكننا نكون على يقين أننا لن نفقد سمعتنا فالقومندان هو أحد الرجال القلائل في هذا العصر المتدهور الذين يضعون مثلهم الأعلى فوق مصلحتهم وفوق سعادتهم الشخصية ربما يكون هذا المثل الأعلى صحيحًا أو خاطئا، لكن المهم أنهم يضحون من أجله بحياتهم.

اختتم القومندان حديثه صائحًا: «اليونان في خطر وهي تدعونا لنجدتها فيا أيها الأصدقاء المخلصون، لنتقدم كلنا معًا لننقذها!» وانهار صوته، وسالت دمعة من عينيه - عينيه الصغيرتين

الغائرتين في محجريهما بصورة غريبة..

ونظرت حولي. كان كثير من الجنود يبكون. وميتروس الرومي كان بعض شاربه، وبانوس ينظر إلى خارطة اليونان كأنها أيقونة مقدسة. ومن خلفي كان ستراتيس يتنحنح متهكمًا، وليڤي يبتسم في خبث ووجهه شاحب نحيل وعينه حولاء.

وهبط الليل، فتدثرت بمعطفي الثقيل ونمت مع الآخرين دون أن أنزع بندقيتي أو حذائي أو شرائط الرصاص. لكني لم أستطع أن أنام.

وفكرت. القائد له حق. فالمشكلة هي أن يجد الإنسان مثلًا أعلى يجعله الهدف الأوحد لوجوده. وإذ ذاك يصبح عمله نبيلًا، والحياة تكتسب معنى، والموت يتحول إلى خلود. هذا المثل الأعلى يمكن إعطاؤه أي اسم مقدس: الوطن، أو الله، أو الشعر، أو الحرية، أو العدالة. فالمهم شيء واحد، هو أن نؤمن به ونعمل من أجله.

ألم يقل الشاعر سولوموس: «إذا احتضنت في نفسك اليونان - أو شيئًا آخر - فسوف تشعر في داخلك، بخفقات المجد كله؟».

وعبارة «أو شيئًا آخر» تبين إلى أي درجة كان شاعرنا العظيم متقدمًا عن عصره.

لكني يا حبيبتي لم أجد بعد المثل الأعلى الذي أضحي من أجله بحياتي الصغيرة التافهة. فأنا أنتقل من هذا إلى ذاك. أحيانًا يغريني الشعر، وأحيانًا العلم، وأحيانًا الوطن. ربما لأني لازلت صغير السن ينقصني النضج. وربما لأني لن أجده قط. في هذه الحالة يكون ضياعي. فالإنسان لا يصل أبدًا إلى شيء عظيم في هذا العالم إذا لم يخضع حياته لسيد أعلى.

أول أبريل:

هذا الصباح دخل ستراتيس علينا في ساعة مبكرة كالزوبعة، يضحك ويرقص ويضرب على فخذيه ويرفع عقيرته بالغناء:

«حتى متى يا إخوتي

سنضرب الأماكن

التي تسكنها الأسود المفردة

في الجبال والصخور؟»

وانطلق كالإعصار بين السرائر يشاكس الجميع لكي يستيقظوا من النوم. وصاحوا فيه.

- ماذا حدث لك يا ستراتيس؟ هل شربت؟

- ومن أين كنت سأحصل على الخمر؟ يا مجموعة الأنفار الملاعين! عندي خبر هائل سأعلنه عليكم! وعندما تعرفونه ستقفزون إلى السقف وتضربون أفخاذكم أنتم أيضًا وترقصون

كالدراويش!..

وقفزنا كلنا وأحطنا به:

- هيا وحب الله، قل لنا يا ستراتيس هذا الخبر الهائل لنفرح نحن أيضًا.

- القومندان هو الوحيد الذي يعرفه، وهو يكتم سره. لكني حصلت عليه وجئت أعلنه لكم لتفرحوا أنتم أيضًا.

وتعلقت أنظارنا بشفتيه.

- هيا، قله لنا. أنت تقتلنا.

- منذ لحظة صعدت إلى غرفة القومندان وتسللت خلف الباب. كان هذا هو الوقت الذي يفتح فيه الراديو ليسمع الأخبار. وهتف في نفسي شيء ما أن هناك أخبارًا من أثينا. فأرهفت السمع، وإذا بي أسمع شيئًا لو قلته لكم لقتلكم الفرح!

- هل ترك رجال البيريه الأحمر قمة النسور؟

وصاح ستراتيس.

- بل أحسن من هذا، أحسن من هذا كثيرًا. لنسمع واحدًا آخر. أنت يا بانوس، قل أي كلام أيها الحمل!

وتكلم الراعي الساذج:

- ماذا أقول؟ هل استولينا على أريجورا كاسترو؟

- قلت لكم أحسن من هذا كثيرًا. تكلم أنت أيها العالم الكبير.

وأجبت وأنا أضحك، لكن قلبي كان يدق بشدة:

- الحرب انتهت؟

- لقد وجدتها! أحييك يا سليمان الحكيم! الحرب انتهت يا إخوتي! قادة الجبال من ناحية، والملك من ناحية أخرى مع وزرائه وجنرالاته، اجتمعوا كلهم في أثينا ليتصافحوا قائلين: «لماذا يقتل بعضنا بعضًا يا أولاد؟ ألسنا إخوة؟ وإذا نزعنا البيريهات الحمراء والسوداء، ألا تصبح رؤوسنا جميعًا يونانية؟ إذن كفى مذابح. أنتم شجعان ونحن شجعان.. فلنتصافح!» وبعد ذلك تصافحوا ووقعوا بعض الأوراق وتبادلوا الأحضان. كل هذا في نفس الليلة. وأعطوا التعليمات بإعادتنا إلى بيوتنا وبأن ينزل الأنصار من الجبال. وفي كل قرية سيقيمون الموائد ويحضرون الخمر ويرقصون ويقذفون بالبيريهات الحمراء والسوداء في الهواء. وفي اللحظة التي أكلمكم فيها، تمتلئ أثينا بالألعاب النارية وتدق الأجراس وينتشر الشعب في الشوارع وتفتح الكاتدرائية أبوابها للملك ليرتل «أنت يا رب».

وقفزنا جميعًا على ستراتيس لنعانقه، ثم بدأنا نعانق بعضنا ونطلق صيحات الفرح. كان بعضنا يبكي والبعض الآخر يرقص. والجميع يتعانقون. «المسيح قام». لا بد أننا كنا وحوشًا، ولا بد أننا كنا ملعونين، حتى يذبح بعضنا بعضًا طوال هذا الوقت. تحيا اليونان!

وقذف ستراتيس البيريه إلى السقف و صاح.

- لنخرج يا أولاد ونجتمع في موكب! سندق الجرس ونستدعي القسيس ليأتي ومعه إنجيله إلى المعسكر ليحتفل بهذه النعمة الإلهية.

وأسرعنا جميعًا إلى الخارج، إلى الطريق. وبدأنا ننشد النشيد الوطني. وتفتحت الأبواب والنوافذ وخرج أهل القرية.

- ماذا يحدث يا أولاد؟

انتهت الحرب يا إخوتي. ماتت! أخرجوا راياتكم، وأخرجوا براميل النبيذ لنشرب منها. فالحرب انتهت.

وأسرع القرويون إلى الشارع وهم يرسمون الصليب. ووقفت النساء والفتيات على عتبات البيوت يتصايحن.

- وداعًا يا أولاد، عودة طيبة.

وخرج الأب ياناروس من الكنيسة يجري فاتحًا ذراعيه. وهو شيخ يعقد شعره في مؤخرة رأسه لكنه صلب المراس، كان قد لعب دورًا بارزًا في الحرب الألبانية، ولا زالت آثار الجروح تغطي صدره وصاح الأب ياناروس:

- ماذا أسمع يا أبنائي؟ هل انتهت الحرب؟

وأجاب ستراتيس:

- ضع البطرشيل على كتفك يا أبي واحمل الإنجيل وهيا نهنئ القومندان. أنت تلقي خطبة ونحن نستصدر منه إعلان التسريح. الحرب انتهت. ماتت. اللعنة عليها!

وبدأ ستراتيس ينشد في سرور الموسيقى الجنائزية: «هيا نودع الوداع الأخير!» ورسم القسيس علامة الصليب وامتلأت عيناه بالدموع وقال:

- الصلح؟ الصلح؟! قولوا لي مرة أخرى يا أبنائي ليفرح قلبي!

وصحنا جميعًا بأعلى صوت:

- الصلح! الصلح! هيا البس البطرشيل.

وظهر ميتروس وهو يلهث وصاح:

- ماذا يحدث يا أولاد؟ ماذا أصابكم؟

- الحرب انتهت يا ميتروس العزيز! ستعود إلى سريرك الصغير مع مدام ميتروس.

وفغر ميتروس فاه وتوقف قلبه. وأخيرًا تكلم:

- أنتم جادون في هذا الكلام؟ هل حقًا انتهت هذه الحرب اللعينة؟ ومن أخبركم بذلك؟

- صفارات الإنذار.

وأخذ ميتروس يدق بيديه ويرقص ويصيح:

- تحيا أرض الروم! كل واحد يمسك يد الآخر أيها الإخوة، ولنرقص لنحتفل بموت عزرائيل.

وامتدت الأيدي، وتماسك خمسة جنود أو ستة وبدأوا يرقصون رقصة التساميكو.

وخلال ذلك وصل القسيس يرتدي البطرشيل ذا الأطراف المطرزة ويمسك حامل الإنجيل الفضي. قال:

- قدموا الشكر لله هذا هو البعث الحقيقي! سيروا!

وبدأنا السير ومعنا القرية كلها رجالًا ونساء. كانوا ينطلقون خلفنا ويدقون أبواب البيوت التي نمر عليها ويصيحون.

- تعالوا! تعالوا!

وكنت أسير إلى جانب ستراتيس، لكن أفكاري كانت تسبقني. تخيلت نفسي وقد وصلت إلى أثينا أدق باب حجرتك، وتفتحين الباب وتجدينني واقفًا على عتبته، فترتمين في حضني وأقبل عنقك وأقبل الشامة على خدك وأعجز عن الكلام، أختنق، لأني أجد في رأسي من الأشياء أكثر مما أستطيع أن أعبر عنه ونذهب إلى ناكسوس كما رأيت في الحلم، لنحصل على بركة أبي وأمي، ونعقد الزواج في حديقة جدي في إيجاريس، تحت أشجار البرتقال بين الورود. تخيلت ذلك كله في رأسي، وأفكاري تطير لتحلق حول شعرك كأنها فراشات.

وفجأة رفع ستراتيس يده وقال.

- قفوا يا أولاد. عندي كلمة أقولها لكم!

ووقف الناس جميعًا، فصاح وهو ينفجر بالضحك.

- هذه أكذوبة! هذه أكذوبة! كذبة أبريل؟

وذهلنا. فوقفنا متبلدين. وغاصت ركبتاي. وطأطأ القسيس رأسه وتنهد، ثم نزع البطرشيل ولفه حول حامل الإنجيل، واستدار دون كلمة عائدًا إلى الكنيسة.

كان حتى تلك اللحظة يدق الأرض بقدميه كالحصان، فإذا به الآن يجر قدميه محطمًا كشيخ عاجز وتفرقنا نحن في صمت. لم تظهر لنا الحرب في أي وقت مضى ثقيلة بهذه الدرجة التي لا

تحتمل. اختفى كل ما كان يملأ عيوننا: أمهاتنا وبيوتنا وزوجاتنا. وعدنا إلى المعسكر. إلى القاذورات والبنادق.

3 أبريل:

منذ أول أمس أصبحت الحياة بالنسبة لنا أثقل كثيرًا. فقد استشعرنا السعادة التي فرت منا، وأدركنا أن شيئًا واحدًا؛ شيئًا بسيطًا جدًا يكفي ليعيد إلينا آدميتنا لكن هذا الشيء لا يحدث، ولهذا نبقى وحوشًا. نحن ألعوبة في يد قوة غامضة لا أعرف اسمها. هل هذه القوة عمياء لا تحس ولا تشعر، أم أنها بالعكس واعية شريرة؟ فكرت في ذلك كثيرًا منذ أول أمس، أحيانًا يبدو لي أن هذه القوة هي القدر. وأحيانًا يبدو لي أنها الشيطان، وأحيانًا الرب. هذه القوة تحكم العالم وتنفذ أغراضها التي لا يعرف أحد ما هي وتستخدم في سبيل ذلك السلم والحرب على التوالي. واليوم تستخدم الحرب فالشقاء لمن يريدون السلام! ما أكثر ما أفكر وما أكثر ما أتساءل.

هل هي قادرة على كل شيء، واعية كانت أو عمياء؟ وإذا كانت كذلك، فكيف نستطيع أن نقاومها؟ أليس الأحرى إذن أن نتحالف معها ونتقبل مصيرنا القاسي دون معارضة، ونمارس الحرب بكل أجسادنا وأرواحنا، فنساعدها بذلك في حدود طاقاتنا وقوانا الضعيفة على أن تنفذ أغراضها؟ لكن إذا لم تكن قادرة على كل شيء، ألا يكون الأجدر إذن أن نقاومها؟ وأن نتبع الأغراض الصحيحة النابعة من قلوبنا، وأن نعيد للأرض حكم الطبيعة الذي هو حكم الإنسان؟ روحي تتأرجح في هذا المأزق عاجزة عن التحديد. ومع ذلك فإن سعادتي ونجاحي يتوقفان على عملية الاختيار هذه.

ويبدو لي أن الإغريق القدماء اختاروا الطريق الأول، طريق الانسجام مع القدر، ولهذا حققوا معجزات في الجمال. واتبع المسيحيون الطريق الثاني، فحققوا معجزات في الحب. فالطريقان يمكن إذن أن يدفعا الإنسان إلى المعجزات؟!

يا حبيبة قلبي. كلما تعمقت هذه الأمور ازددت تخبطًا في التناقضات لا أصل أبدًا إلى اكتشاف حجة ثابتة تتيح لي أن أتعلق بها لأجد الراحة.

ومع ذلك أشعر بأنني لو كنت قريبًا منك أمسك يدك في يدي، لوجدت جوابًا لكل هذه الأسئلة، جوابًا بسيطًا واضحًا. لكنك بعيدة، في آخر العالم! ويدي الممدودة لا تلقى سوى الفراغ، فأسقط غارقًا فيه. ماريو حبيبتي، أنا معذب جدًا وضائع جدًا. وأنا أحتاج بشدة إلى أن أضغط على يدك الصغيرة. لكني أمسك بندقية!

٧ أبريل:

الحرمان من النوم. الجوع. الحرب كيف يستطيع جسمنا المسكين أن يقاوم؟ إنه لم يصنع من خشب البلوط ولا من الحجر، لكن من اللحم فقط. ثم ليتنا كنا نملك الإيمان.

كيف استطعنا أن نصمد من قبل في ألبانيا في الجبال، بلا ملابس ولا أحذية ولا طعام؟ كيف استطعنا أن نحقق هذه المعجزة التي تسمى الحرب الألبانية؟ كثيرًا ما يحدث أن أفكر في سلالتنا الرومية التي كتب عليها القهر والاضطهاد والجوع، فتثير في نفسي الإعجاب والشفقة. منذ كم ألف سنة تشبثنا بهذه الصخور والحقول الضيقة لنقاوم زحف البرابرة؟! ولم نقنع بالمقاومة، بل وجدنا القوة والوقت لنقدم للعالم أحسن وأثمن شيئين: حرية النفس ووضوح الروح. اخترعنا المنطق والقياس وأدخلنا النظام إلى العماء والفوضى. وأنقذنا العالم من الخوف.

ولم يكن هناك البرابرة فقط، بل كانت الحرب الأهلية أيضًا تندلع دوريًا من فترة لأخرى منذ آلاف السنين فتخضب اليونان بالدم، حتى قيل إن الروح تحتاج إلى أن تنغمس في جريمة قتل الأخ لأخيه حتى تنتج هذه التحف الرائعة! وهذه في الحقيقة فكرة تثير الذعر. ومن يدري ربما كانت الحرب الحالية لازمة أيضًا لتعطي روحنا طفرة جديدة! وما أكثر الأرواح اليونانية التي انغمست في هذه الفورة اللعينة، فتشكلت وتصلبت. وعندما يجف الدم ويعود الهدوء، سوف تلد هذه الأرواح تحفًا رائعة، بدافع الاستنكار والعزة والحاجة إلى تخطي الشعور بالألم. فهل نبارك الحرب إذن؟ هذه فكرة تملأ النفس بالذعر. ومع ذلك، فهل هذه هي الحقيقة يا حبيبة قلبي؟ هل هذه هي الحقيقة؟

11 أبريل:

في هذه الأيام ننتظر أن يمر علينا الجنرال للتفتيش وننتظر أيضًا تدعيمًا عسكريًا للقيام بهجوم عام. فهم مهتمون بإزاحة المتمردين تمامًا من أعلى الجبل. القومندان قال لنا أكثر من مرة: «كاستللوس مركز استراتيجي، فمن يسيطر عليها يسيطر على مدينة جانينا.» وفي بعض الأحيان عندما يكون النهار شديد الصفاء، نستطيع بالمنظار المكبر أن نرى أطراف هذه المدينة الأسطورية على شاطئ البحيرة يحيط بها الضباب، وفي البحيرة ترقد كنوز علي باشا وجسد فيرافروسيني. الجسد الذي خلده الشعر، كما خلد جسد هيلين. مرة أخرى أشعر بأن الأب الأكبر لسلالتنا هوميروس عاد يملأ جوانحي. وتختلج في نفسي رغبة كأنها بذرة تنبت في أعماقي، رغبة كلمتك عنها كثيرًا يا حبيبتي. أن يعطيني الله القدرة يومًا على أن أغني هذا الالتقاء بين هوميروس وهيلين.

إن هيلين أصبحت اليوم عجوزًا، ذبل عنقها وتساقطت أسنانها وشعرها. ومات مينيلاس. أما الأبطال الذين حاربوا من أجلها، فقد مات بعضهم وانتكس البعض الآخر أطفالًا ولم يعد أحد يذكر هيلين، رمز الجمال اليوناني وابنة زيوس رئيس الآلهة[5] فهي تجلس وحيدة على شاطئ نهر بوروتاس تفكر في حياتها، وحولها أشجار الورد. لماذا ولدت؟ من أجل من؟ ضاعت حياتها هباء من أجل لا أحد. لمعت مثل ومضة خاطفة ثم انطفأت. النسيان يحيط بها، والأجيال الجديدة لا تذكر اسمها.

فهل ماتت إذن كأعشاب الحقول؟ وجسدها الذي كان يثير العالم، ألم يكن هو الذي اصطفاه القدر؟! ألم تكن روحها عظيمة لا تستطيع كل البحار أن تحتويها؟ وتتنهد هيلين تحت شجر الورد: يجب أن أهرب! يجب أن أرحل مرة أخرى إلى هناك! يبدو أن محبًا إلهيًا يجاذبها بالغناء من

شاطئ بعيد. «آه أذهب مرة أخرى، لأهرب من الموت!» وتهبط إلى مجرى اليوروتاس، وتنتقل من نهر إلى شاطئ حتى تصل إلى البحر وتخلع ملابسها وتغوص في الموج وتبدأ السباحة. يا للطراوة! يا للهناء! هذا هو ماء الخلود، البحر! وترفع رأسها وتسبح نحو آسيا بضربات واسعة وعلى شاطئ إيونيا يجلس شيء مهيب هادئ كأنه تمثال إله. أعمى، ولحيته في لون الثلج. يجلس بين حصى الشاطئ الأبيض مرتفع الرأس، يدير نحو اليونان ثقبي محجريه. ومن هناك تأتي نسمة منعشة، ويطلع النهار، ويشعر الشيخ بأن اللون الأحمر جرى في وجهه ويهمس. يا للحلاوة! يا للنسمة المنعشة! ما أجمل النغم في همسات الموج!

وفي هذه اللحظة يرتفع من الشاطئ غناء. ويرهف الأعمى أذنه ويمتلئ رأسه الأشيب بالموسيقى. ويمد يده نحو اليونان كأنما يمدها نحو شخص يغرق. وهيلين كانت قد سبحت طوال الليل، وبرزت من الأمواج رأسها. ولم تكد تقترب من شاطئ إيونا حتى استعاد شعرها لونه الأسود وتماسك ثدياها وأصبحا مشدودين، وعاد حاجباها يستديران كالقوس، واكتسب ثغرها ألوانًا جديدة. وعندما نظرت في خيوط الفجر الأولى فرأت الشيخ يمد يده، أدركت لأول مرة لماذا ولدت وإلى أين كانت تسبح. وهتفت:

- أبي؟ أبي؟

ونهض الشيخ وخاض في البحر، فأنعش الموج قدميه الحافيتين. وأجاب وهو يفتح لها ذراعيه.

- هيلين، ابنتي!

وعادت هيلين عذراء إلى الأبد، شابة إلى الأبد، ودخلت دائرة الخلود.

حبيبة قلبي، هل سأجد الوقت لأكتب هذه الأغنية عن هيلين؟ هل سأخرج من هذه الجبال على قيد الحياة؟ هل سأراك مرة أخرى؟ في بعض الأيام تطوف بروحي وساوس سوداء، لكنني أستمد الشجاعة منك. فالحب يغلب الموت.

13 أبريل:

تلقيت اليوم رسالة من عمي فيليساريوس، الأستاذ بالمعاش، دفعتني إلى التفكير الشديد رغم أنها أغاظتني كثيرًا. سأنقلها لك، كي تدركي إلى أي مدى يمكن أن تذهب البلاغة بالإنسان عندما يغلق على نفسه برجًا عاجيًا ويمسك بشعرة ليقسمها إلى أربعة. أنت تعرفين عمي، فقد ذهبنا معًا لزيارته. كان يدخن غليونه في المكتبة، ويحدثنا عن المشاكل الكبرى وعن المدنية والله والحرب، ويقطع الورق أثناء كلامه ليصنع منه لعبًا مختلفة يضمها أمامها في صف ويبتسم. هل تذكرين كيف سحرتنا كلماته، وكيف كانت عميقة ومؤلمة؟! لكنه في إحدى العبارات المؤثرة، بدأ يصنع لعبة جديدة من الورق وهو يتكلم، ثم توقف فجأة وأخذ يضحك. ولم نحتمل ذلك. إذ لم نعد نعرف هل كان مخلصًا فيما قال أم كان يسخر منا.

هكذا كنت أتصور دائمًا هؤلاء الأواخر الكبار في المدنيات العظيمة: أناس يتأملون البشرية من ارتفاع شاهق، حتى لتبدو مجموعة من الحشرات المحتشدة. أحيانًا حشرات مضيئة من نوع

فراشات الضوء، وأحيانًا حشرات مقززة من نوع صراصير البالوعات. والأرض كلها تبدو في نظرهم «قرعة جوز هند» تتقاذفها الأمواج. وهم يحلقون عاليًا فوق العواصف التي تجتاحنا، ثم لا يشعرون إزاء ذلك إلا بأننا مثيرون للتسلية، أو للشفقة الباردة المجردة. لكنهم لا يُحركون إصبعًا صغيرًا لينقذوا هذه الجوزة من الغرق. عندما كنت أكلمه عما ندرس في الجامعة، كان يبتسم بطريقة سيئة وسألته يومًا لماذا يسخر مني، فقال:

- عندما تكبر ربما تفهم فالوقت مبكر جدًا الآن بالنسبة لك، ولسوف تضيع كلماتي عبثًا. ثم جائز جدًا أنك لن تفهم أبدًا. أما أنا يا ولدي العزيز (وهو دائمًا يناديني بذلك عندما يريد أن يتهكم) فأنظر إلى المدنيات بعيني شاعر إنها غمامات تصعد وتتضخم وتنتفخ بالمطر والأعاصير والبرق. ثم تهب نسمة صغيرة فلا تلبث أن تتغير، وإذا هي تسح وتتفكك وتكتسب اللون الأحمر عند الغسق. ثم تهب الريح مرة أخرى، فإذا هي قد اختفت. هل تستطيع أنت في يوم من الأيام أن تنظر بهذه الطريقة إلى المدنيات والبشر والآلهة؟ في رأيي أن هذا عسير. ومع ذلك فلا بد أن تحاول يا ولدي العزيز تشجع!.

لكنني لا أنتهي عندما أتكلم عن عمي. فيجب أن أترك له القلم الآن.

يبدو أنه كان رائق البال يوم كتب هذه الرسالة. وسترين أنه يهاجم فيها ببراعة كل الناس وكل الأفكار. لكن لاحظي أيضًا كيف يبدو مسرورًا وهو يمضي في تلاعبه حتى النهاية.

«تحياتي إلى ابن أخي العزيز ليونيداس، الذي لا يتربع على عرش إسبرطة! يبدو أن شخصك العبقري يقاسي من هذا الأكال العقلي الذي يثير معظم المراهقين. فهم يخترعون المشاكل، ثم يعجزون عن حلها، فييأسون من الله ومن الشيطان ومن روح الإنسان. وبعد ذلك يطلقون صرخات الألم ويطلبون النجدة من عمهم. ولكن أي نجدة تنتظرها من بومة أثينية عجوز؟ أنت تصيح قائلًا: «هواء! هواء!» لكن ادخل في شوك المشاكل الأبدية التي تشبه القنافذ المخيفة! تعذب واجلس على أشواكها أنت أيضًا مثل كل الناس. أما إذا شعرت يومًا بأن الدم الذي تلعقه ليس دمهم ولكنه دمك أنت، فلتستسلم إذن دون قيد ولا شرط لتحصل على السلام. بل يجب أن تختار لنفسك شوكة كبيرة تجلس عليها.. أعني فكرة كبيرة تؤمن بها. ولديك أشياء كثيرة لتختار الوطن والدين والعلم والفن والمجد والشيوعية والفاشية والمساواة والأخوة.. فأنتم أيها الشباب لديكم فرصة كبيرة. فقد وصلتم في لحظة متأخرة. وفي أيامنا هذه توجد عشرات الأفكار الكبيرة.. لأنه لا توجد أي فكرة كبيرة. وهم يبيعون بالتخفيض. ولما كان الوقت قد تأخر كما قلت لك، فالأثمان تزداد انخفاضًا. فأنت تستطيع أن تحصل على فكرة كبيرة بقطعة خبز».

«عندما كنت أنا شابًا، أذكر أني رأيت في جزيرتنا مشعوذًا إيطاليًا يضع على رأسه قبعة بريشة، ويزعم أنه يعرف دواء كل داء. كانت له عربة تجرها حمارة مسكينة اسمها كارولين، ولا أعرف لماذا أعطاها اسمًا. وكان يسميها أيضًا كاروليتوس. وكانت جيوبه مليئة بالزجاجات الصغيرة والمساحيق والمراهم. فإذا كنت مريضًا، فهو يشفي كل شيء، ويخلع الأسنان ويبيع العيون الزجاجية والخطاطيف لذوي الأذرع المبتورة، والسيقان الخشبية وأحزمة الفتق. وعنده

أيضًا أوراق سحرية ضد آلام الحب. وعنده فأر أبيض يستطيع أن ينتقي بطرف بوزه التذكرة التي تحمل حظك مكتوبًا بالشعر».

«والروح البشرية يا عزيزي ليونيداس هي تمامًا مثل كارولينوس. قل لها عن ألمك وستجد لك على الفور الدواء الناجع وإذا كان لي أن أصدق بعض رسائلك، فأنا أظن أنك وجدت بالفعل دواء يبدو أن أثره سيكون خارقًا. تريد أن تعرف: من أين أتينا، وإلى أين نذهب، ولماذا، وكيف؟ هذا مرض خطير! لكن كارولينوس ستعثر على دواء له. بل أنا أعرف دواءه فعلًا، لأني أشبه كارولينوس إلى حد ما. دواؤك اسمه ماريو. ماريو ستزودك بجواب عن كل هذه الأسئلة. خذ كل مساء قبل النوم نقطتين أو ثلاثًا من النقط التي تسمى ماريو، وستجد الراحة. خذ أكثر من ذلك إذا استطعت وكلما تناولت منها أكثر، ارتحت أكثر أنت ستتصور أنني أهزل كالمعتاد، وأنني لا أريد أن أناقش معك الأمور بطريقة جدية. لكنك مخطئ يا ولدي العزيز. إنما أقدم لك هنا ثمرة خبرة طويلة. ولتعلم أنني لا أؤمن مطلقًا بقدرة الإنسان، ولا أصدق الأفكار الكبيرة التي تعذب المراهقين. فهي مجرد فورة طارئة. ذلك أن دماءهم ثائرة، وأتفه الأشياء تجعلها تغلي. هل العالم له بداية ونهاية؟ هل الوجود له هدف؟ هل البيضة سبقت الدجاجة أم الدجاجة سبقت البيضة؟ كل هذا يا ولدي العزيز ليس أكثر من مرض جلدي».

«وهم يظلون غائبين في القلق غارقين في التأملات العميقة، حتى يقابل الواحد منهم في صباح يوم جميل، فتاة قروية سمينة، أو حضرية عجفاء، كل واحد منهم وما يتفق مع ذوقه. وسرعان ما يفغر فمه. فقد وجد الجواب. يتزوجها ويهدأ بقية عمره».

«هذا ما أريد أن أقول لك عن الناس وقلقهم وأفكارهم الكبيرة. فأنا لا أصدقها، لأن عندي منها الكثير. والخطباء الذين يكلمونكم عن الحب، والساسة الذين يخرقون آذانكم بالحديث عن الوطن والشرف والعدالة، كلهم يثيرون الغثيان. وهم يمتهنون أي شيء يقتربون منه».

«كل الناس يعرفون ذلك، وهم يعرفونه قبل غيرهم، لكن أحدًا لا يجرؤ على أن يبصق في وجوههم».

«بدأت رسالتي بالابتسام، لكن الغضب تملكني عندما تذكرت هذه الأشياء التي تحيط بنا. الغضب والاشمئزاز. لا تتصور أنني شخص سيئ إذا لم أشاركك في مشاعر القلق الكبير. اعذرني إذا قلت لك إنك ترتكب بهذا إسفافًا يثير الأعصاب فأنا لم أحمل نفسي مشقة إرسال هذا الخطاب كمرهم للعلاج إلا لأنني أشفق عليك. فاقرأه كلما شعرت بالأكال في روحك، وسوف يهدئك! أما أنا فقد تلقيت مرهمًا آخر أصابني بالتسمم. فأصبحت نفسي كالحمارة كارولين تجر روحي التي تشبه المشعوذ. وأصبح العزاء لا يجدي مع هذه النفس، لأنها عرفت جيدًا أنواع اللف والدوران التي تتحايل بها الروح، وفقدت الثقة فيها تمامًا. لكنها لا تزال تجرها مع كل ما تحمل من أدوية، وتسمعها تتفنن في إلقاء المواعظ، فتهز رأسها في استسلام. ومع ذلك، فرغم أن مرضي هذا لا علاج له، فأنا أفضله على الطب الذي تعالج نفسك به. أنا أرفض أن أبحث عن مهرب وراء أي فكرة كبيرة. وفي هذا الإعصار أمشي خلال الريح وتحت المطر وفي الطرق المهجورة حافيًا

عاري الرأس. بدون بيريه أسود ولا بيريه أحمر، بدون أمل. أمشي وقد تصلبت رقبتي مثل الملك لير، لكن ليس لأن بناتي هجرنني، بل لأنني أنا هجرتهن».

«وحين أسقط في منتصف الطريق، أحب أن أنتهي كما انتهى أحد ضباط الجيوش المرتزقة في إيطاليا. واسمه ستروتشي. أنا أحبه كثيرًا مات في ٢٠ يوليه 1558، وهو تاريخ مقدس بالنسبة لي! ركع بجانبه صديق مخلص وهو يحتضر، وتوسل إليه ويداه مضمومتان:

- أنت آثم كبير، فأعلن توبتك! تب عن حياتك! فسوف تمثل أمام الله. ارسم علامة الصليب واذكر اسم الرب!

فزمجر ستروتشي قائلًا وهو يموت:

- اسم من؟! اللعنة! لقد انتهى الحفل».

«وبعد.. عندي أشياء أخرى كثيرة أريد أن أكتبها لك. لكنك أصغر كثيرًا من أن تحتملها.. ومن المؤكد أنني آلمتك بالفعل. فالوداع إذن. اقتل من إخوتك قدر ما تستطيع. هذا شيء قذر لكنك لست مسئولًا عنه. فلتحاول على الأقل أن تعود حيًا لتستكمل الدورة. طفولة سعيدة، ومراهقة تثير الأكال، زفاف، أولاد، عذاب، موت. أمسية سعيدة».

«عمك فيسباربوس

(خادم شيطاني للإله)

أو بنفس المعنى.

(خادم إلهي للشيطان)»

15 أبريل:

الأسبوع المقدس. الجرس يدق دقات الحزن. ذهبنا إلى الكنيسة نسمع آلام الرب. «هو ذا العريس مقبل.» الأب يانا روس هو الذي ألقى القداس.

لكنه لم يلبث أن ترك نفسه ينجرف. بدأ بالحديث عن المسيح، ثم خلط كل شيء بالتدريج، وأخذ يتحدث عن اليونان.

اليونان هي التي تتألم، وهي التي تضرب بالسياط وتصلب من أجل خلاص البشرية.

واغرورقت العيون بالدموع. فهذا الكاهن يملك قوة غامضة غير محدودة وإيمانًا لا يتزعزع. يملك شيئًا رقيقًا وحشيًا في نفس الوقت.

يفيض من عينيه ومن لحيته ألم عميق، يعطيه صورة تشبه موسى. وهو دائمًا ينطلق في المقدمة ويخترق القفار، لكننا نحن الجبناء لا نتبعه. عندما كان يتكلم، اختلطت في أرواحنا أيضًا صورة المسيح المصلوب باليونان. بيوتنا وأصدقاؤنا وحياتنا التي تضيع عبثًا.

كل واحد منا كان يرى المسيح في شكل مختلف: فهو مثلًا قطعة أرض بور غير صالحة، أو تكعيبة كرم مهملة، أو قطيع يفتك به الموت، أو بيت مهجور، أو امرأة شابة، أو طفل رضيع..

كل واحد كان يبكي في المسيح فقدان شيء عزيز عليه، فقد كنا نراه حقًّا على الأرض يرقد أمامنا فاقد الحياة، فنبكي جميعًا في انتظار قيامه.

وأنا أيضًا يا ماريو كنت أبكي ذلك اليوم وأنا أفكر فيك. اتخذ المسيح وجهك الحلو، فلم أستطع أن أمسك دموعي عندما انحنيت عليه أقبله في الكنيسة.

الإثنين المقدس، ظهرًا:

حبيبتي. انتشر الدفء اليوم وسطعت الشمس، وقفز قلبي عندما رأيت في الجو أولى عصافير السنونو!

حتى هنا في هذه الجبال القاسية، حل الربيع يا ماريو. والمسيح يقوم من الأرض في صورة نبات أخضر. والطيور المهاجرة تعود، وتبدأ على الفور في بناء أعشاشها. ويعود الأمل أيضًا كعصفورة السنونو بعد غيبة طويلة. يعود إلى عشه القديم - قلب الإنسان - ويتهيأ ليضع فيه بيضه.

اليوم، وبعد هذا القلق الذي استمر يتملكني طوال الشتاء، شعرت بقلبي يمتلئ بالبيض. كل شيء سيسير على ما يرام يا حبيبتي. فلا تقلقي. اطمئني سوف تتفتح الأزهار ويفرخ البيض، وتتحقق أحلامنا في الحياة: بيت، وابن وأغنية هيلين.

أنا أؤمن بالروح. أؤمن بأن لها أجنحة وأنها تطير وتستكشف الأشياء التي ستحدث قبل أن تراها العين. وهذا المساء طارت روحي يا ماريو، وشاهدتك في بيت صغير، بيتنا، تمسكين بين ذراعيك قطعة صغيرة من إنسان يشبهنا. اطمئني إذن يا حبيبتي. فكل شيء سيسير على ما يرام.

الإثنين المقدس، مساء:

«الموت يجثم على روحي..

كما المريض في دور النقاهة

يستعيد شيئًا فشيئًا طعم الحياة.

الموت يجثم على روحي..

أشم رائحته أحلى من زهور الشاطئ

عندما تهب على البحر من بعيد عاصفة.

الموت يجثم على روحي.

مثل ذكرى البيت البعيد

تسكن روح السجين على طول ما يحتمل العذاب.».

هنا انقطعت فجأة يوميات ليونيداس. فقد قتل يوم الثلاثاء المقدس.

وأغلق المدرس الأوراق المكتوبة التي يخضبها الدم. وانحنى يقبلها كأنما يقبّل جسد الولد المسكين نفسه.

لم تكن عيناه تدمعان. وقلبه أصبح قطعة من حجر بدت الحياة في نظره شريرة، ظالمة، لا قلب لها ولا عقل، كل شيء فيها خاضع للمصادفة.

وقف خمسة أو ستة من أهل القرية يوم الجمعة المقدس يتناقشون في ساحة الكنيسة. كان منهم ستليانوس النساج الذي عض العمدة أذنه، وأندرياس الحداد، وكرياكوس منادي القرية ذو الشعر المرسل المدهون بالزيت، وباناجوس الحلاق، وكان حافي القدمين حزينًا يلبس صديرية سوداء. وفي وسطهم وقف الأب مندراس، أكبر أصحاب الأملاك في القرية. وهو مرابٍ نحيف الجسم، أعجف كالعصا، له عينان صغيرتان خبيثتان.

أما شيخ أعيان القرية ويسمونه الحاج فكان يستدفئ على المصطبة بجوار الباب. كانت مفاصله الملتهبة تؤلمه بشدة، لكنه تحامل على نفسه حتى وصل إلى الكنيسة وهو يئن ويتوجع، أراد أن يحصل على بعض أعواد الريحان ونبات إكليل الجبل من فوق قبر المسيح، ليحرقها ويعالج نفسه بدخانها. أجداده منذ القدم يعالجون الروماتيزم بإحراق جذور النباتات المباركة فما حاجته إلى الأطباء إذن؟ هذا اختراع شيطاني لا يوثق فيه. والمؤكد أن الأعشاب المباركة أحسن وأكثر فائدة والحاج رجل لئيم جدًا. رحل في شبابه إلى بعيد ورأى بلادًا كثيرة ووصل إلى أثينا بل إلى بيروت. وانتهى إلى نهر الأردن. وهناك استحم في مياهه المقدسة ليصبح حاجًا. وكان يقول لنفسه: «مفيد جدًا أن تكون حاجًا. فاحترام الناس لك يزداد، ويصبح من الأسهل عليك أن تخدعهم.» وهذا ما حدث بالفعل. فلم يكد يخرج من مياه الأردن حتى خطرت له فيما يشبه التجلي فكرة إلهية.. أشرقت في رأسه فكرة عظيمة. كان حتى ذلك الوقت يعمل حمالًا أو ماسح أحذية، وأحيانًا يقوم ببعض أعمال التهريب. وكان يهلك نفسه من التعب ويتعرض لآلاف المخاطر، ورغم ذلك لا يحصل على القدر المناسب من النقود. أما الآن وقد أصبح حاجًا، فقد أشرقت روحه. صرف مدخراته في شراء قطعة كبيرة من الخيش وبعض الأوتاد ولفة من الحبال، وبدأ يجوب المدن والقرى على طول الساحل. وحيثما يصل يدق الأوتاد ويمد الخيش لينصب خيمة يضع عليها راية مكتوب عليها بحروف كبيرة: «أسرار الزواج».

ويقف أمام الخيمة ثم يأخذ في الصفير بإصبعيه. ويجتمع حوله حشد. وإذ ذاك يرسم الحاج المحتال علامة الصليب بكل احترام، ثم يقفز على مقعد ويبدأ الصياح: «سيداتي سادتي. في هذا المكان المغلق ستنكشف لكم الآن أسرار الزواج الرهيبة! الدخول لا يكلف سوى فرنك واحد. فرنك واحد! ما قيمة فرنك صغير؟ وهل للفرنك روح؟ لكن في مقابل هذا الفرنك الحقير ستشاهدون أسرار الزواج الرهيبة التي تجعل شعر رؤوسكم يقف. وإذا لم يقف شعر رؤوسكم، فأنا أقسم بشرف الحاج أن أعيد لكم الفرنك. والله يشهد على كلامي! تعالوا. تعالوا. لا تترددوا. سيداتي سادتي. بالترتيب. المكان يتسع للجميع.».

وطبيعي أن أحدًا لا يتحرك. ويصفر الحاج مرة أخرى، ويعيد كلمات الشعوذة. ودائمًا ينتهي الأمر بأن يجد شخصًا ما، يكون في الغالب عزبًا، يضع يده في جيبه ويدفع فرنكًا ليعرف أسرار الزواج. ويرفع الحاج قطعة خيش ويدخله الخيمة وينظر الرجل حوله، ثم يفرك عينيه، لكنه لا يرى شيئًا، فيقول له: «هل ترى شيئًا يا عزيزي؟ لا. أنت لا ترى شيئًا. ولا فائدة من أن تصاب بالتهاب

في أعصاب رقبتك. فليس هناك شيء تراه. لكن خيرًا لك ألا تقول ذلك للآخرين عندما تخرج. سيقولون إنك مغفل. الأحسن أن تحكي لهم أنك فهمت ما هي المرأة وما هو الزواج. هذا ما يجب أن تقوله للآخرين حتى يشربوا المقلب هم أيضًا فلا يسخروا منك. فهمت؟ إلى اللقاء إذن. اترك مكانك الآن لمن سيأتون بعدك.».

بهذه الطريقة استطاع الحاج أن يكسب بعض المال. ولم يلبث أن عاد إلى القرية وعلى صديريته سلسلة ذهبية كالأعيان. لكنه أصبح شيخًا هرمًا. وهو الآن يقضي أيامه على المصطبة أمام الكنيسة، شبه مخبول، كسيحًا مصابًا بالصمم، ليس في فمه سن واحدة، يسيل لعابه ويهرش ركبتيه الملتهبتين.

وقف الآخرون في ساحة الكنيسة يتناقشون ويتشاجرون.. بدأت المشكلة حول الأناجيل التي قرئت ليلة أمس في قداس المساء. لم يكن الأب مندراس يفهم لماذا ثار المسيح ضد الشريعة اليهودية، ما دام الله نفسه هو الذي أنزل هذه الشريعة على موسى في جبل سيناء. أما أندرياس فلم يكن يفهم لماذا لم يطلب المسيح الملائكة ليبيدوا العبرانيين، ما دام قادرًا على كل شيء، مع أن هذا الأمر لم يكن سيتطلب منه سوى طرقعة إصبعين! قال:

- هذا ما كنت أفعله لو كنت مكانه. ذلك أنه إذا كان الشخص إلهًا، فلماذا يتصرف كالحمل؟ لو كنت أنا، لتصرفت كالأسد! ما رأيك في ذلك أنت يا كرياكوس؟

وسعل كرياكوس وهرش رأسه. منذ سنوات وهو يفعل كل ما يستطيع ليصبح قسيسًا.. وبدت أمامه إذ ذاك فرصة سانحة للكلام.

قال لنفسه: «يجب أن أتكلم وأنور الآخرين». كان على قسط ما من التعليم. وكلما وجد نفسه بعيدًا عن الأب ياناروس، شعر بجرأة كبيرة في التعبير عن رأيه.

هكذا أطلق صوته الجهوري الذي يرتل به، وبدأ يكلمهم عن المسيح. كان المسيح رجلًا طيبًا فقيرًا، شعره طويل مرسل، لأنه كان يريد هو أيضًا مثل كرياكوس أن يصبح قسيسًا ليحمل إلى الناس كلمة الحق. لكن الأغنياء والقادرين اضطهدوه وأهانوه وضربوه. واليوم- يوم الجمعة المقدس- أخذوه ليقتلوه.

وعقب المرابي مندراس على هذه الكلمات قائلًا:

- هذا ما يحدث لمن يرفع رأسه.

ونظر كرياكوس حوله ليتأكد من أن الأب ياناروس لم يظهر بعد. وعندما رأى أنه غير موجود تجاسر على الرد. كان قد عثر منذ عدة شهور على تفسير لتصرف المسيح. وهو لا يملك الحق في الاستئثار وحده بهذا التفسير، فالنور يجب ألا يبقى في الصندوق. لهذا شرع في تنوير أهل القرية:

- اعلموا أن المسيح في ذلك الوقت كان بالنسبة للمجتمع ما نسميه في القواعد، الفعل الشاذ أو الاسم الممنوع من الصرف.

وقال الحلاق باناجوس:

- ماذا؟ ألا تستطيع أن تتكلم كما يتكلم الناس يا صعلوك؟

ولكنه استمر:

- معنى ذلك أن الناس الذين كانوا حوله، وهم الكتبة والفريسيون وعينا وقيافا، كانوا أفعالًا قياسية تصرف وفق القاعدة. كان لديهم قوانين مكتوبة، وهم يتبعون هذه القوانين من أيام أجدادهم، ويعرفون بدقة ما هو الخير وما هو الشر، وما هي الأمانة وما هو عدم الأمانة، لأنهم كانوا يسترشدون بما يسمى الوصايا العشر. وكل من كان يتبعها كانت علاقته بالمجتمع سمنًا على عسل. لكن من يخالفها يعتبر متمردًا، لا يكاد يرفع رأسه حتى يثور المجتمع غضبًا عندما يرى قواعده تهتز. ويقبضون على الفعل الشاذ ويقولون له: «ألا تستطيع أن تصرف نفسك وفق القاعدة مثل كل الناس؟»، وهنا، طاخ! يسوون حسابهم معه.

وحك ستليانوس أذنه، وكانت لا تزال تؤلمه، وقال:

- آه! الأمر كذلك إذن؟ لكن أي الجانبين على حق؟ أنا لا أفهم. هل الفرد الواحد يملك الحق في معارضة الأغلبية؟ هل يملك أن يرفض ميراث آبائه قائلًا: هذا لا يعجبني؟ فمثلًا يأتي شخص ويدخل بيتي ومعه بلطة ويقول لي: «نول النسيج الذي تشتغل عليه لا قيمة له» ثم يحطمه؟ لكن هذا النول ورثته عن آبائي وأجدادي، وهم الذين علموني أن أكسب رزقي بهذه الطريقة، ثم تأتي أنت...

وانطلق الحداد يقاطعه:

- المسيح على حق. وإلا ماذا يا أولاد؟ هل الناس مياه راكدة، تتحول إلى طين فقط؟ العالم يتحرك فهو شيء حي، له حياة وعمر. في فترة الطفولة، كان يرتدي ملابس مختلفة. والآن بعد أن كبر، ألقى لفافات الطفولة وأصبح يرتدي البنطلون. ما رأيكم؟ لفافات الطفولة ومناديل الرضاعة مفيدة طبعًا، أنا لا أنكر ذلك لكنها تصلح للأطفال الرضع. والمسيح هو أول من أدرك أنه لم يعد طفلًا رضيعًا. وأنا أقصد بلفافات الطفولة ومناديل الرضاعة، القوانين القديمة. هذه القوانين أصبحت في نظره غير كافية هل فهمتم؟

وتدخل الثري مندراس، وكان قد بدأ يشعر بالغيظ:

- يبدو أنك تفهم، على ما أظن، أليس كذلك؟ لكن قل لي، أين تعلمت هذه الأشياء كلها؟ هل تعلمتها على السندان؟

ورد عليه الحداد ثائرًا:

- أنت يا من تملك الحقول، خير لك أن تنصت جيدًا، الحديد عندما يدخل النار يصبح لينًا تمامًا. وسوف تصبح أنت كالحديد اللين. فاحذر! وإذا كان يهمك أن تفهم كيف تعلمت أن الأشياء الصلبة تلين، فاعرف أنني تعلمت ذلك على السندان.

وقاطعه كرياكوس صائحًا وهو في قمة السرور:

- نعم والنار هي المسيح.

ونظر الأب مندراس إلى الحداد نظرات حادة قائلًا:

- آه! هكذا إذن؟ لا شك أنهم على حق حين يسمونك البلشفي..

وأخذ أندرياس الحداد يضحك.

- منذ الآن لن يسموني البلشفي، سيسمونني الفعل الشاذ! بارك الله في كرياكوس الذي فتح عيني!

وكان الحاج لا يزال جالسًا على المصطبة، لا يستطيع أن يميز بدقة ما يحدث أمامه، كان يرى هؤلاء يصيحون ويلوحون دون أن يعرف: ما هو الشيء الذي يختلفون على توزيعه فيتشاجرون بهذه الطريقة؟ وأرهف السمع على قدر ما يستطيع لكن دون جدوى، فلم يصل إلى أذنيه سوى ضوضاء مختلطة كأنها صوت مجموعة من السلاحف تتخابط وتضرب كل منها درقتها في درقة الأخرى. وكان يسأل كل لحظة:

- ماذا يحدث؟

ويسيل اللعاب من فمه دون أن يحصل على جواب، فيسأل مرة أخرى:

- ماذا يحدث يا أصدقاء؟

وأخيرًا ثارت أعصاب باناجوس فاقترب منه وصاح في أذنه:

- يريدون أن يفتحوا صندوقك. هل تسمع؟ يريدون أن يعرفوا عدد النقود التي عندك.

وارتعدت كل فرائص الشيخ، وكاد لحمه ينفصل عن عظامه. وسأل وهو يتهته:

- من هذا؟ من هذا؟

واتسعت بقع اللعاب على صدر ثيابه.

وصاح الحلاق في أذنه:

- الفقراء! الفقراء والجوعى والحفاة!

وتضاحك الشيخ واطمأن قلبه، وقال:

- الفقراء؟ فليذهبوا إلى الجحيم! الله موجود.

ومال الحلاق على أذنه مرة أخرى وصاح:

- لكن الفقراء لهم رب هم أيضًا. رب يمشي حافي القدمين جائعًا ويرسم الصلبان الحمراء على أبواب الأغنياء. وقد رسم على بابك صليبًا أحمر يا حاج. ألا تعرف ذلك؟

وارتعد الشيخ مرة أخرى. أراد أن يتكلم، لكن لسانه تلعثم. وأشفق عليه ستليانوس فقال:

- اترك الشيخ المسكين. ستصيبه أزمة في قلبه.

وانفجر الأب مندراس صائحًا:

- أيها الحلاق القذر. من الذي يدفعك إلى مهاجمتنا؟ هل هو مدرس القرية؟ أم أنه الأب ياناروس القسيس الأحمر؟ هذا الكلام ليس مصادفة.

وأجاب الحلاق وقد اغرورقت عيناه بالدموع:

- لا المدرس ولا الأب ياناروس، ولكنه طفل ذو ثلاث سنوات مات من الجوع أول أمس أمام عيني.

- أنت مجنون! أي طفل؟

- طفلي أنا.

وصمت الجميع. فقد حدث بالفعل أن ابنه مات من الجوع منذ يومين. وكان قد أغلق دكانه من عدة شهور لأن أهل القرية لم يعد لديهم ثمن الحلاقة فأرسلوا لحاهم وشعورهم.

وقف الجميع صامتين في خجل كأنهم هم الذين قتلوا الولد الصغير بأيديهم. ولم تكد تمر لحظة حتى وصل العربجي ماتيوس في حالة اضطراب، وشعر بالارتياح حين رأى ز ملاءه، فصاح:

- لقد ضعنا، والمجد لله! يبدو أنه لم يعد لدينا ذخيرة، ورجال البيريه الأحمر عرفوا ذلك. وسوف يصلون بين لحظة وأخرى، ويقلبون كل شيء إلى حريق ودم. وسنسلم لهم!

وفرك ماتيوس المسكين يديه في فرح. فهو أكول شره لكنه لا يجد ما يأكل، وهو سكير لكنه لا يجد ما يشرب، وهو زير نساء لكنه فقير وفمه قذر والنساء يرفضنه. لهذا كان ساخطًا على العالم كله. كان يقول: «طالما أنني لست غنيًا فيجب ألا يوجد أغنياء. طالما أنني لا أجد الطعام فيجب ألا يأكل أحد. هكذا يكون الله والعدالة!» وثار الأب مندراس ورفع عصاه وهجم عليه:

- ابلع لسانك يا سافل! لو كان الرب يسمع للغرباء، ما بقي إنسان واحد على قيد الحياة!

وأمسك الحداد بذراعيه قائلًا:

- العجلة تدور يا أب مندراس، فيجب ألا تغضب. الفقراء سيصبحون أغنياء، والأغنياء سيصبحون فقراء. هذا شيء يجب أن يمر على الجميع والراهب الذي حضر أول أمس ومعه حزام العذراء الحقيقي، ألم تسمع ماذا قال وهو يمشي أمام المعسكر؟ كان يصيح: «اقتلوا يا أولاد، اقتلوا لتستحقوا الخلاص!» فلتقتل إذن!

وأجاب الثري:

- لكنه كان يريد أن تقتلوا الحمر لا أصحاب الأملاك الشرفاء!

وأخذ أندرياس يضحك:

- لا تثق في شيء أيها المالك الشريف! من المؤكد أن راهبًا آخر سيحضر ليلقي المواعظ باسم الأنصار، وسيقول: «اقتلوا رجال البيريه الأسود، اقتلوا أصحاب الأملاك، لتكسبوا الخلاص!» فهم أيضًا يقتلون. وماتيوس يقول الحقيقة. فأنا أعتقد أننا ضعنا.

لكن ماتيوس لم يكن قد انتهى من الكلام:

- قل لي إذن أيها المالك مندراس، هل تعرف المثل القائل- ولا تؤاخذني: الشيطان يأخذ نصف الثروة الحلال ونصف الثروة الحرام ثم يأخذ بعد ذلك صاحب الثروة؟ أنا عندي شعور أن الدود لن يتمكن من الزحف على جثتك أيها المرابي، لأن الشيطان سيخطفك بسرعة!

وفي قفزة واحدة خرج من الكنيسة. وقذف الشيخ الثري عصاه فأصابت الحائط وارتدت بعد أن أسقطت بعض الجير.

في هذه اللحظة خرج الأب ياناروس من غرفته. كان قد سمع صوت الشجار في الفناء، لكنه كان غارقًا في آلام المسيح وآلام البشر. وعبثًا كان يفكر فلا يعثر على حل. وظلت عيناه تترددان بين لوحة الدينونة الأخيرة هدية صديقه الشهيد أرسينوس وأيقونة القديس قسطنطين الأنستناري. وفكر في نفسه: «آه لو كان الإنسان يستطيع أن يرقص على الجمر الملتهب! لو كان يستطيع أن يسير في هذا العالم دون أن يسقط في اليأس والخوف واللعنة!».

وسيطرت عليه فكرة وهو ينظر إلى الأيقونة:

«إن الرب ليس ماء باردًا نشربه لننتعش. الرب نار يجب أن نمشي فوقها. لا نمشي فقط، بل نرقص. ومن المؤكد أنه عندما يصل الإنسان إلى هذه الدرجة لا تلبث النار أن تتحول إلى ماء منعش. لكن، يا إلهي، ما أقسى ما يحتمل الإنسان من الصراع والألم قبل أن يبلغ ذلك!».

ونهض. كان قد قضى النهار في تزيين المذبح بالزهور البرية التي أحضروها له من براستوفا، وأنزل المسيح من على الصليب وسجاه على الزهور البرية، وانحنى فوقه يقبل قدميه الداميتين وجنبه الذي يسيل منه بغزارة لون أحمر وأبيض. وقال له وهو ينزله:

«تعال واصبر يا ولدي. لا يهمك شيء، فأنت الرب، وسوف تقوم من الموت. فلتنم.».

والآن شعر الأب ياناروس بأنه وحيد في غرفته، والأصوات في داخله لا تتوقف لحظة ولا تتعب من المطالبة بجواب. ونهض مضطربًا، واتخذ قرارًا:

«سأذهب إلى الكنيسة. إني أحمل مسئوليات ثقيلة. فقريتي في خطر. ونفسي في خطر. ويجب أن أحصل على جواب. هل اليمين أم اليسار؟ أريد جوابًا واسم الله!».

ورسم الصليب ثم خرج من غرفته عاري الرأس حافي القدمين مكتئبًا. وهمس ستليانوس عندما رآه غارقًا في الهم:

- انتبهوا يا أولاد!

وأفسحوا الطريق ليسمحوا له بالمرور. لكن الأب ياناروس لم يلق عليهم نظرة واحدة.. كانت عيناه غائمتين معلقتين على الرب، فلم ير أحدًا. وخاطر الحداد بالسؤال:

- هل من جديد يا أبي؟ هل قاربت آلامنا أن تنتهي؟

- أنا ذاهب أكلم الرب، فليس عندي وقت أضيعه مع البشر.

ونظر الأب مندراس إلى القسيس في حقد وقال له:

- لكن لا تذهب لتعد لنا خدعة. إن عينيك تمتلئان بالخيانة.

- بل عيناي تمتلئان بأطفال يموتون. دعني إذن.

- أنا لا أخشى في القرية أحدًا سواك يا أب ياناروس.

- وأنت أيضًا بالنسبة لي يا أب مندراس. ألا تستطيع أن تنسى مرة واحدة مصلحتك الشخصية التافهة وتفكر في القرية؟

- القرية ومصلحتي أنا شيء واحد. ثم ما الذي ترمي إليه؟ أنت تضع في فم الرب ما يفيدك شخصيًا ثم تعلن من أعلى الكرسي: «هذا ما قاله الرب لي!» لكن الرب لم يقله لك أيها الدجال إلا لأنك أمليته عليه.

وعاد الحاج يصخب ويحك ركبتيه من الألم.

- ماذا يقولون؟ ماذا يقولون؟ لماذا يتشاجرون؟

لكن أحدًا لم يرد عليه. فقد كانت أنظار الجميع معلقة على قطبي القرية وهما يتبارزان.

وأزاح الأب ياناروس المالك الثري قائلًا:

- القسيس هو فم الرب في الأرض. لا تضف خطيئة الكفر إلى آثامك الأخرى. إن في ضميرك عددًا كافيًا من الأرامل واليتامى.

وفتح المرابي الشيخ فمه ليرد، عندما تردد فجأة صهيل جعلهم جميعًا ينظرون. وانقض عليهم القومندان على حصانه يعدو بأقصى سرعة، ويرفع سوطه ويفرقع به الهواء كالمجنون. كان احتشاد أهل القرية حول القسيس قد أثار انتباهه، وخيل إليه أن الخائن لا بد يدبر الآن مؤامرة ما.

وصاح القومندان كأنه يعوي:

- يا بلغاريين! يا بلاشفة! يا خونة!

وكان يدير حصانه كالزوبعة، حتى أرغى فمه كفم صاحبه.

وتفرق الجميع، ما عدا الأب ياناروس الذي ظل واقفًا على عتبة الكنيسة.

- سأشنقك وأعلقك من رجليك يا غراب! لماذا تحشد الناس؟ ماذا كنت تروج بينهم؟

وأجاب الأبياناروس بصوت فيه هدوء وقسوة:

- أنا أشفق عليك، أيها القومندان، أنا أشفق عليك. فقلبك يمتلئ سمًا، وأنت تريد أن تسمم كل شيء. لكن الله موجود!

وتقدم خطوة وأمسك بالحصان من لجامه. وفصدت عينا القومندان دمًا. ورفع السوط وزمجر:

«أيها الغراب!».

لكن القسيس نظر إليه ووجهه يفيض بالمرارة والشفقة وقال له في هدوء:

- يا ابني، ألست إنسانًا؟ ألا تذكر أحيانًا أمك؟ دعني أكلمك.

وتردد القومندان وغاض الدم من وجهه. أغمض عينيه، وفي ومضة سريعة اختفى كل شيء أمامه- كل شيء ما عدا منظر مهزوز لبيت صغير على عتبته عجوز ضئيلة تنتظر ابنها محطمة مبتسمة غارقة في روب لم تلبسه بعد ذلك إلا على سرير الموت. لكن القومندان استطاع في هذه الومضة السريعة أن يميز التجاعيد على وجهها والصبر والاستكانة يملآن عينيها والذبول في شفتيها..

وفجأة اختفى ذلك كله: المنزل وعتبته والأم العجوز. وفتح القومندان عينيه، ورأى أمامه الأب ياناروس، فقال له وهو يزوم:

- ماذا تريد؟ قلت لك من قبل ألا تنظر لي هكذا. انصرف.

وقال الأب ياناروس وهو ينظر إلى القومندان في عطف لكن دون أن يترك لجام الحصان:

- يا ابني، ألا تستطيع أن تسمعني في هدوء؟

- تكلم، ماذا تريد؟

- هذه لحظة رهيبة يا ابني، سوف تسجل عليك طوال حياتك، وسوف نرى الآن إذا كنت إنسانًا بحق. وأبناؤك وأحفادك سيحكمون على ما ستفعل. والله سيحكم أيضًا.

- تكلم، تكلم، أنا أسمعك.

- مصير هذه القرية موضوع بين يديك. فأنت تستطيع أن تفعل كل شيء في كاستللوس. تستطيع أن تقبض الحياة وأن تدعها. تستطيع أن تجعل القرية رمادًا وأن تنقذها من الهلاك. عليك أن تختار. فهل قررت؟

- لا توجه لي الأسئلة. إلى أي شيء ترمي؟

- أن أحرك قلبك، إذا كان لا يزال لك قلب. ولهذا السبب سألتك عما إذا كنت تذكر أمك أحيانًا.

وعوى القومندان كأنما طعنه أحد بسكين:

- لا تذكر بعد ذلك أمي! أنا لا أحب أن تتكلم عن أمي.

وقال الأب ياناروس وقد أضاء وجهه:

- إذن لا يزال لك قلب أيها القومندان. المجد لله! لا يزال لك قلب. ترجَّل عن حصانك وتعال نجلس نحن الاثنين على مصطبة الكنيسة. نستطيع أن ننسى الماضي- عليه اللعنة- ونعمل معًا على إنقاذ القرية. ألا تأخذك الرحمة؟ في كاستللوس أنت تمسك السيف، وأنا أمسك كلمة الله. تعال إذن، ترجل يا ابني، لنجمع معًا هاتين القوتين الهائلتين.

وكان الأب ياناروس أثناء كلامه يربّت بخفة على صدر الحصان الغارق في العرق وينظر إلى القومندان في توسل.

ثم عاد يقول في إلحاح:

- تعال، تعال، ارسم علامة الصليب، وقرر.

كانت الشمس قد أذنت بالغروب. وبدا اللون البنفسجي يكسو الجبال. ومن بعيد انطلقت الصيحات الأولى من بنات آوى. ومر من فوق الكنيسة سرب من الغربان لا يسمع له صوت. ومن قمة النسور هبت ريح باردة.

واستمر الأب ياناروس يقول:

- ليس الأمر أمر كاستللوس فقط يا ابني، هناك أيضًا اليونان كلها، والعالم. إن المسيح في خطر، فقرر.

ولم يستطع القومندان أن يصمت، فصرخ:

- اخرس! المسيح، المسيح، اليونان!..

وتناثرت الرغوة من فمه:

- أنت تعود إلى الدجل! تكلم بصراحة. هل تريد أن أسلم القرية للمتمردين؟ هيه؟ أليس هذا ما تريد؟ هيه؟ أليس هذا ما تريد يا خائن؟ خذ! خذ!..

وجعل يضرب الأب ياناروس بالسوط على خده ورقبته وهو يعوي في هياج شديد.

وصاح القسيس وعيناه تمتلئان بالدموع:

- يا ابني، يا ابني، لا زال في الوقت متسع. أنت تجري نحو الهاوية. قف، قف. سوف تهلك!

وزمجر القومندان وهو يهمز الحصان حتى يدميه:

- حسنًا، سوف أهلك! لقد قررت! سوف أهلك!

وصاح الأب ياناروس:

- وأنا أيضًا قررت. وسوف يختار الله!

واختفى القومندان عند منعطف الطريق، لكن صهيل الحصان ظل يتردد من شدة ضربات المهماز.

ووقف الشيخ بلا حركة يتأمل الظلام يلف السماء. ووضع يده على خده وعلى رقبته، وشعر إذ ذاك بأنه يتألم. ورفع يده. كانت مخضبة بالدم. وقال لنفسه هامسًا:

- لن أنتظر بعد ذلك شيئًا من البشر. وما حاجتي إلى البشر؟ أمامي الرب وسوف أكلمه.

انتشرت في أرجاء الكنيسة رائحة البخور والزهور البرية. ومن خلال النوافذ الضيقة في القبة ذات الزجاج الملون تسللت الأشعة الأخيرة للشمس وهي تنحدر، خضراء وحمراء وزرقاء، فنزلت على صورة المسيح خالق الأشياء كلها. كان الأب ياناروس قد رسم هذه الصورة بيده منذ سنوات عديدة ووضعها على ظهرها فوق حامل خشبي. لم يرسم المسيح في الصورة قاسيًا غاضبًا كما جرى العرف، بل رسمه حزينًا شاحبًا متألمًا كاللاجئ الطريد. وكان يهمس لنفسه وهو يرسمه: «أنا نفسي لاجئ طريد طردوني من بلدي في أرض التراس الخصبة، وعشت هنا في جبال إيبير الموحشة أكافح دون هدوء لأجعل من هؤلاء الوحوش بشرًا.

وفي هذا البلد، المسيح لاجئ أيضًا. ولهذا سأرسمه في صورة لاجئ».

واستخدم الأب ياناروس الأصفر والأخضر ليرسم له خدين غائرين.

وأبرز طرفي شفتيه ورسم تجعيدات واضحة في رقبته، وخطط حول عينيه- فقط- أشعة ذهبية طويلة تضيء وجهه المحطم وتملؤه بالأمل. وجعله على وسادة مستطيلة مطرزة بصور العصافير والسمك والبشر. ووضع في يده بدلًا من الإنجيل طائرًا صغيرًا قبيح المنظر جناحاه كبيران.

وعندما جاء الأسقف أثناء مروره على رعاة الكنائس ورأى هذه الصورة سأل في استنكار شديد:

- المسيح يمسك في يده دائمًا الإنجيل المقدس أو كرة زرقاء ترمز للأرض. فماذا وضعت أنت في يده؟ فأرًا؟ يا إلهي ارحمنا!

وأجاب الأب ياناروس في غضب:

- انظر جيدًا يا صاحب الغبطة. ألا ترى أن له جناحين؟

- حسنا، ماذا يكون إذن؟

- الفأر الذي أكل جسد مولانا على المائدة المقدسة فنبت له جناحان في جنبيه. الخفاش.

وصاح الأسقف:

- خفاش! وما معنى ذلك بحق السماء؟ ألا تخجل يا أب ياناروس؟

واحتد القسيس وقال:

- يا صاحب الغبطة، أنت تفهم ببطء، إنه يمسك روح الإنسان! هذا الفأر الذي يأكل جسد مولانا فينبت له جناحان، هو الروح.

دخل الأب ياناروس الكنيسة كأنما يجري من شيطان، ودفع المزلاج ونظر حوله. لكن عينيه كانتا ترسلان لهبًا، فلم يلمح الأمهات المتشحات بالسواد يحتشدن في جانب غير مضيء وينشجن حول قبر المسيح. كان أبناؤهن قد قتلوا في الأسابيع الماضية، فحضرن إلى الكنيسة منذ الصباح الباكر آتيات من القرى المجاورة، ووجدن الباب مفتوحًا والمسيح راقدًا على الكفن، فدخلن وأخذن يرددن البكائيات المعروفة. كن قد بدأن يبكين المسيح لكن لم يلبثن أن نسين ذلك شيئًا فشيئًا، فأزاحت كل منهن الشال على كتفيها وأخذت تبكي ابنها. وكن خمس أمهات في ثياب الحداد، أعطين المسيح في ذلك اليوم خمسة أسماء، كل واحدة منهن كانت تنادي اسمًا: ستيليوس! ياناكوس! ماركوس! ديميتروس! أرستوتليس!

وفجأة انفتح باب الكنيسة في دويٍّ يشبه الانفجار. ودخل القسيس كالزوبعة. فتلاصقت النساء الباكيات في ارتباك وذعر، وانكمشن في مقاعدهن.

كان الأب ياناروس لا يزال ذاهلًا فتعثر في قبر المسيح، ولولا شعرة واحدة لانقلب. لكنه استطاع أخيرًا أن يمسك به. وهمس وهو يرتعد:

- يا رب ارحم! يبدو أن القبر دبت فيه الحياة ويريد أن يجري..

ودخل الهيكل، ولثم قطعة حجر ملطخة بالدم موضوعة على المائدة المقدسة، ثم استدار خارجًا، ووقف أمام الأيقونة الكبيرة للمسيح على يمين الهيكل.

كان قلبه يغلي. وحاول أن يسيطر على نفسه. لكن الكلمات احتبست في حلقه وعجز عن الكلام. الآن في حضرة المسيح اختفى غضبه وأصبح الخوف هو الذي يستولي عليه. ورسم علامة الصليب ثلاث مرات ليستعيد شجاعته، ثم ركع وصاح بصوت مرتفع:

- «أنا أقدس آلامك أيها الرب، لكن ارحمني. أنا أخافك وقوتك تجعلني أرتعد. لكني لست سوى إنسان. وأنا أتألم. أنا يوناني. يجب أن تسمعني، أو على الأقل دعني أصرخ معبرًا عن عذابي منفسًا عما يملأ قلبي. ولتقتلني بعد ذلك ما دمت أهين جلالك المقدس.

«أنا أتأمل العالم يخرج من بين يديك فلا أرى فيه خيرًا. وأنا أتأمل البشر الذين صنعتهم فيما يبدو على صورتك. لكن هل يمكن أيها الرب أن تكون أنت شبيه هؤلاء البشر؟ أليست الدنيا معسكر اعتقال واسع تستبقينا فيه سجناء تحاصرنا الأسلاك الشائكة؟ وفي كل نداء منك تصطفي أخيار الناس لتتوفاهم؟ ماذا فعلت لك اليونان إذن أيها الإله الذي لا يرحم؟ ولماذا اخترتها هي، دون ألبانيا أو تركيا أو بلغاريا؟ هل صنعت شعوب هذه البلاد أي شيء في أي يوم من الأيام من أجل تمجيدك؟ هل قدموا لك في أي وقت شيئًا من الخير أو أعطوك شيئًا من الرضا؟ لكن اليونان أمسكت بيديك حين كنت لا تزال طفلًا صغيرًا تتعثر في قطع الحجارة، ثم مدت ملكك إلى أطراف العالم ماذا كنت ستصبح بدونها؟ كاهنًا من كهان اليهود تقضي الوقت في مناقشات واحتكاكات مع زملائك في المعبد. لكن اليونان أخذت بيدك، وصورت جمالك فأصبحت جميلًا، وتغنت بحسناتك فأصبحت حسنًا، وشيدت من أجلك قصورًا فأصبحت الرب[6]. فهل هذا جزاؤها الآن؟ تتركها تمزق نفسها بأظافرها فلا تأخذك بها شفقة؟ ألا تشعر بالتقدير نحوها إذن.

وارتعد الأب ياناروس حين أدرك الكلمات التي خرجت من فمه. ولطم هذا الفم الكافر، ونظر حوله إلى الأيقونات وصورة الملاك المقدس ميخائيل المرسوم على باب الهيكل بنصله الأحمر وجناحه الأسود. ووقف ينتظر مرتعدًا يهمس لنفسه:

«الصاعقة ستنزل على رأسي. فهل يمكن أن يسكت الرب على إهانة تلحقه من آدمي؟».

ثم عاد يقول:

- يا إلهي، أنا أختنق. فاسمح لي أن أنطق كلمة كفر كبيرة، وإلا فسوف أنفجر. في بعض اللحظات يختلط عقلي. وتبدو لي قطع الخشب والحجارة والقديسون في ضوء جديد. أنا أنظر إلى صورة العذراء على يسار المحراب وأقول لنفسي: «هذه ليست العذراء تتربع هنا جميلة جدًا وحزينة، تكشف عن ثديها لترضعك أيها الرب. هذه ليست العذراء، لكنها اليونان!».

وسال العرق على وجهه المحطم. وأخذ يتشمم بمنخريه يبحث في الجو عن رائحة كبريت، رائحة الرب. وهمس لنفسه:

- ما أعظم سروري حين ألقى هنا اللهب الإلهي إذا هبط فوقي ليحرقني! إذ ذاك أعرف أن الرب له أذنان وأنه يسمعني وأنني لا أصرخ في صحراء مقفرة، لكن صوتي يرتفع فيصدم السماء ثم يرتد ساقطًا أشد من الصاعقة على رأسي الطائش.

ثم صاح:

- «يا إلهي، هل تذكر قريتي هناك على شاطئ البحر الأسود في يوم القديس قسطنطين الرهيب، يوم 21 مايو من كل عام؟ كنا نشعل في الميدان نارًا والناس يلتفون حولها ويرتعدون، والرب فوقها معلق. وكنت أمسك الأيقونتين وأدخل في اللهب حافي القدمين وأرقص وأقذف حفنات الجمر على الجمهور. كان اللهب بالنسبة لي ماءً باردًا لأنني لم أكن أرى سواك يا إلهي. لا النار ولا الموت، لكن أنت وحدك. وكما تتحول أشد أنواع الحديد خبثًا إلى حديد صلب إذا مرت في اللهب، كذلك كنت أنا تمامًا. عندما أخرج من نارك أشعر بأن جسدي كله أصبح بين يديك سيفًا من الصلب.

«أما اليوم فأنا أتكلم وأنت لا ترد. وأصيح، فتشيح بوجهك عني. لكنني سأظل أصرخ حتى تسمعني. فمن أجل هذا وهبتني فمًا. ليس للأكل ولا للكلام ولا للتقبيل، ولكن للصراخ».

واستدار نحو الأيقونة الكبيرة صانعة المعجزات، أيقونة العذراء الموضوعة على يسار المحراب، كأنما يسألها أن تشفع له لدى ابنها. كانت تضم الطفل بشدة على صدرها وعيناها السوداوان الحزينتان مثبتتان في تأثر وانفعال على صليب معلق في الفضاء. وكان وجهها مشقوقًا كأنما بضربة سيف قاطع. في صباح يوم من الأيام كان الأب ياناروس يلقي القداس، وفي نفس اللحظة التي وقف فيها أمام باب الهيكل يدعو: «من أجل سلام العالم كله» دوّى في المحراب ما يشبه الانفجار. فقد انشق خشب الأيقونة وأصاب الشق وجه العذراء من حاجبها إلى ذقنها. وارتعد المؤمنون خوفًا وخروا راكعين على بلاط الكنيسة في انتظار الكارثة التي ستقع. وكانوا يهمسون: «الأرض ستهتز، وستنزل من السماء نار تحرقنا عن آخرنا». ثم انكشف الخبر الرهيب بعد عدة

أيام. فالنار كانت قد نزلت من السماء في مكان بعيد على أطراف هذا العالم وأهلكت مائتي ألف شخص. وفي الطرف الآخر من الأرض في قرية صغيرة اسمها كاستللوس، صرخت العذراء حين وصلت إليها آلام البشر فانشقت لها. وصاح الأب ياناروس ويداه ممدودتان نحو الأيقونة المشوهة:

- أيتها العذراء البتول. أنت يا من أشفقت على هؤلاء الناس ذوي البشرة الصفراء في أقاصي الأرض، ألا تشفقين على أطفالك الذين يموتون جوعًا هنا في كاستللوس أمام ناظريك؟ ألا تقبلين ركبة ابنك لكي يضع حدًا لآلامنا؟».

واستدار مرة أخرى إلى المسيح ينتظر الجواب. ونظر إليه المسيح مبتسمًا لكن شفتيه لا تنبسان. ودخلت من الطاقة المفتوحة في أعلى الهيكل نحلة أخذت تطن فوق زهور قبر المسيح. ووقف الأب ياناروس ونظر حوله. في وسط الكنيسة كان القبر قائمًا مجملًا بزهور الحقول والريحان وإكليل الجبل. وفي الداخل كان المسيح يرقد ميتًا، مطرزًا على حرير فاخر. كان هذا يوم الجمعة المقدس. والمسيح ينتظر قيامه من الأموات في هدوء وثقة.

واقترب الأب ياناروس وانحنى على قبر الكنيسة كأنما ينحني على القبر الحقيقي للمسيح، وصاح بأعلى صوته:

- أيها اليوناني، أيها اليوناني! لماذا تريد أن تقتل أمنا؟

وانفلتت نفس الأب ياناروس من بقية جسده لتتجمع كلها في أذنيه وعينيه وأطراف أصابعه. فقد كان ينتظر المعجزة. لا بد أن صوتًا ما سيتردد الآن. فلا يمكن أن يظل الرب صامتًا! لهذا انتظر.. وانتظر. ولكن شيئًا لم يحدث. السماء بكماء. والإله أصم. مات المسيح. وأصبح الأب ياناروس وحيدًا في هذا العالم.

وإذ ذاك انفجر غضبه ولم يسيطر على نفسه فصاح:

- حسنًا إذن. لن أقيم لك القيامة. فلتبق نائمًا في الكفن تنتظر. لن تقوم من الموت إلا ومعك اليونان. هل تسمعني؟ لا سلام؟ إذن لا قيامة. لست أملك شيئًا آخر أفعله. لكني قسيس أملك هذه القدرة وسوف أستخدمها. وحتى إذا ألقيت بي في الجحيم مع يهوذا، فلتعلم أنه مهما فعلت فلن تكون لك قيامة هنا في كاستللوس وشاليكا وبراستوفا، القرى الثلاث التي أرعاها.

كان الهواء يهتز بهذه الكلمات المتمردة، عندما سمع الأب ياناروس فجأة قطعة جبس ملونة تتفتت في ركن الهيكل، حيث رسمت لوحة «سجود الملائكة» وانتفض الشيخ. وأحس في لحظة أن ملاكًا قد تحرك. فاستدار نحوه مقطب الحاجبين يصيح:

- أما أنت فليس لك في الأمر كلمة. فلست سوى ملاك عاجز عن التألم، عاجز عن ارتكاب الخطيئة، سجين الفردوس حتى نهاية الزمن. لكني أنا إنسان. شيء مشتعل يتألم ويدين نفسه ويموت. وأنا الذي أقرر بإرادتي أن أذهب إلى الفردوس أو لا أذهب. فلا تحرك جناحيك في وجهي ولا تجرد سيفك أمامي. عندما يتكلم إنسان مع الرب فلا دخل لك أنت.

واستدار الأب ياناروس نحو أيقونة المسيح، وامتلأ صوته بالسرور فجأة وقال:

- يا إلهي. نحن الاثنان فقط نعرف ذلك. أما الملائكة فلا يعرفون. أنت وأنا كلانا شيء واحد. أصبحنا نحن الاثنين شيئًا واحدًا منذ ذلك اليوم المبارك في بيت المقدس.

هل تذكر؟ كان الناس يستعدون للاحتفال بالقيامة. كل الأجناس في العالم يختلطون في الكنيسة هذا اليوم، البيض والسود والملونون. ونحن ننتظر- وأرواحنا في أفواهنا- نزول النور المقدس. والهواء يطقطق بشرارات اللهب. وحول كل وجه تلتف هالة من النار. والمعجزة فوق رؤوسنا كأنها الصاعقة. والنساء يغشى عليهن، والرجال يرتعدون، والعيون كلها مثبتة على القبة المقدسة التي سينزل منها اللهب الإلهي. وفجأة يشع المعبد بالنور الخاطف، ويهبط الرب، وتندفع جماعة من العرب ليشعلوا الشموع. ثم، هل تذكر يا إلهي؟ تملكني مس منك فأخذت أصرخ. بماذا صرخت؟ لم أعد أدري. كانت أسناني تصطك وفمي يرغي. وشعرت بأن لي جناحين وأنني أحلق في الهواء وأصرخ صرخات حادة. وأمسك بي العرب ورفعوني إلى أعلى سواعدهم.

وطرت فوق رؤوسهم وفوق الشموع المشتعلة. ولحقت النار بملابسي وأحرقت شعري ولحيتي وحواجبي. لكني كنت أردد أغاني الفرح التي يغنونها في بلادي، وأشعر بأن كل شيء حولي برد وسلام. وارتفع صراخ النساء. ولفوني في غطاء مبلل، وأخرجوني إلى الساحة. واعتنى بي القساوسة. ومضت ثلاثة شهور طويلة وأنا أكافح الرب وأكافح الموت دون أن أتوقف عن الغناء وضرب الهواء بيدي. ولم أشعر في حياتي قط بمثل هذا القدر من الحرية والسعادة. وكان القساوسة يهزون رؤوسهم ويظنونني مجنونًا. أما أنا فكنت أشعر بأن هذه النار التي أحاطت بي وأحرقتني، هي أنت يا إلهي، هي أنت!

وكنت أصيح: «هذا هو الحب الحقيقي، هكذا يتوحد الرجل بالمرأة ويتوحد الرب بروح الإنسان!».

«ومنذ ذلك الوقت أصبحنا كما تعلم شيئًا واحدًا. أصبح لي الحق في أن أنظر في وجهك وأكلمك ورأسي مرفوعة. أصبحت أنظر فلا أرى دائمًا سوى المسيح، لست أنا وأنت سوى شيء واحد. نحن الاثنان نرقد معًا على القبر والزهور البرية منثورة فوقنا. لكننا لن نقوم طالما استمرت مذبحة الإخوة...».

وفوجئ الأب ياناروس فاندفع قائلًا:

- حدثني بكلام البشر إذا أردت أن أفهمك. أنت تهدر كالوحش، وأنا لست وحشًا لأفهمك. أنت تهدل كالحمام، لكني لست طائرًا. إنما أنا بشر. فحدثني بكلام البشر!

كان سيمضي في الكلام بهذه الطريقة الجريئة، حين ارتعد أنفه فجأة: فقد امتلأ الهواء برائحة الكبريت. وشعر الشيخ بالخوف ونسي كلمات التجديف، وانحنى يهمس وهو يركع على ركبتيه:

- إنه يأتي... يأتي... يأتي، يأتي! هذا هو!

وفي ومضة واحدة شعر بكيانه كله يتمزق. أصبحت الصاعقة في داخله. سمع صوتًا وقورًا حزينًا يعرفه. فهو المسيح. عندما يتكلم، يأتي كلامه دائمًا من أعمق أعماقنا، ويكون صوته دائمًا كما هو. ومال الشيخ برأسه على صدره لينصت ويستجمع نفسه.

- يا أب ياناروس، يا أب ياناروس، لا تجدف بالله! أنت أتيت تسأل، فاسأل!

وتلعثم الرجل العجوز وهو يقول:

- وما جدوى سؤالك أيها الرب؟ لا جدوى من سؤالك، فأنت تعلم كل شيء.

- أنا أعلم كل شيء، لكنني أحب أن أسمع صوت الإنسان. فتكلم!

- أنا أحاول أن أتتبع خطاك، لكنني لا أعرف أين تقف. هاك ما أريد أن أسألك إياه:

«أين تقف؟ هل مع السود أم مع الحمر؟ قل لي حتى أذهب معك».

وترددت ضحكة مريرة، ثم عاد صوت المسيح:

- تسألني أين أقف؟ أنت تقيمني من الموت كل عام ثم لا تعرف أين أقف؟ في السماء.

ودق الأب ياناروس الأرض بقدمه، وأصابه المس مرة أخرى.

- اترك السماء أيها الرب، فلم يأت وقتها. روحي لم تنفصل عن جسدي. فأنا دائمًا على الأرض أكافح فيها لأشق الطريق. هنا في الدنيا في هذه القطعة من الصوان والبحر التي يسمونها اليونان وفي هذه الصخور اليونانية التي يسمونها كاستللوس. حدثني إذن أيها الرب عن كاستللوس، هذه القرية التعسة التي علقتها في رقبتي. انزل إلى كاستللوس وأرشدني إلى الطريق. هذه هي المكرمة التي أسألك إياها. هذه بالذات ولا شيء آخر.. أرشدني إلى الطريق أيها الرب.

وعقد الأب ياناروس ذراعيه على صدره الذي يغسله العرق. وفاض صوته بالتضرع:

- يا إلهي، هات يدك لترشدني. هل أسلم القرية للأنصار أم لا؟ عندما أسمع الكابتن فوق الجبل يتعهد بأن يوفر العدالة والخبز لكل الناس، أشعر بأنني معه. لكن عندما أهبط إلى كاستللوس وأسمع القومندان المتوحش يصيح: الوطن والشرف والدين، أشعر أيضًا بأني معه. لم أعد أحتمل هذا. أنت يا إلهي أملي الأخير. فهات يدك وأرشدني.

وكان الليل قد هبط. ولا بد أن القمر كان يرتفع في السماء، لأن أشعته المضيئة الرقيقة تخللت طاقة الهيكل. وانطلق فوق الكنيسة طائر ليلي أرسل صرخة شاكية، فامتلأ قلب الأب ياناروس فجأة بحزن عذب. ومرة أخرى ارتفع الصوت حزينًا حلوًا:

- يا أب ياناروس، يا أب ياناروس، أريد أن أسألك مكرمة، فلا ترتعد.

- مكرمة؟ مكرمة مني أنا الحشرة؟ النملة؟ فلتأمر!

- أرشدني.

- أنا أرشدك؟ ألست أنت الذي تعلم كل شيء؟

- أنا كذلك فعلًا، لكن فقط بمساعدة البشر. وبدونك أنت لن أقدر على أن أمشي في هذه الأرض رغم أني خلقتها. سأتعثر. سأتعثر في الحجارة، وفي الكنائس، وفي الناس، هل تفتح عينيك

جيدًا؟ ألا تعلم أنني خلقت في أعماق المحيط أنواعًا هائلة من سمك القرش لا تستطيع أن تجري في البحر إلا بمساعدة سمكة ضئيلة الحجم اسمها سمكة الربان؟

وهكذا أنت. سمكة ربان لي. فتقدم أمامي وأرشدني.

ونظر الأب ياناروس إلى المسيح وهو يرتعد، وعيناه جاحظتان. ترى هل يقول الحقيقة، أو يحاول أن يوقعه في الغواية؟ الأب ياناروس يعلم منذ زمن طويل أن كلمات الرب تكون غامضة. غامضة وخطيرة كالسلاح ذي الحدين. يا لشقاء هذا الذي لم يسمع قط كلمة الرب، لكن أيضًا يا لشقاء هذا الذي يسمعها. الذهول يصيب روح الإنسان، وكل كلمة من كلمات الله تفتح بابًا في الجنة، لكنها تفتح أيضًا بابًا في الجحيم. والخوف يفقد الإنسان وعيه حتى يعجز عن تمييز الباب الذي يريده الله. وقد رأى الأب ياناروس البابين الاثنين مفتوحين أمامه. وسكت عن الكلام ليكسب فسحة من الوقت تتيح لروحه أن تستوضح الأمور قبل أن تتخذ قرارها.

وما أكثر المرات التي تصارع فيها الأب ياناروس مع الشيطان. وما أكثر المرات التي تصارع فيها مع الرب. من الممكن دائمًا التعويذ على الشيطان بالآيات التي تقيده، لكن ما العمل إزاء الرب؟

وظل الأب ياناروس صامتًا يتفحص بعينيه وجه الرب، ويرتعد وهو يفكر في سر الكلمات الإلهية. ترى أي معنى خفي يمكن أن يكون وراء هذه الكلمات؟ إنه يتكلم كهذا الذي لا يعرف شيئًا، وهو الذي يعرف كل شيء. يتكلم كهذا الذي لا يقدر على أن يفعل شيئًا، وهو القادر على كل شيء. فلماذا؟ لماذا؟ ألا يحبنا؟ ألا يهتم بالبشر؟

فكر الأب ياناروس في أن يخر ساجدًا وينكفئ على وجهه وبطنه أمام قدمي المسيح صائحًا: «لا تتركني وحدي! ساعدني!» لكن الوقت لم يتح له. فقد ارتفع من أعماقه مرة أخرى ذلك الصوت الغامض لكنه في هذه المرة كان قاسيًا غاضبًا:

- ألا تخجل يا أب ياناروس من أن تسألني التوجيه؟ أنت حر، أنا خلقتك حرًا. فلماذا تريد أن تتعلق بي؟ قم يا أب ياناروس! دع السجود والركوع. احمل مسئولياتك ولا تطلب النصيحة من أحد، ألست حرًا؟ إذن اختر طريقك؟

- ما أثقل الحرية يا إلهي. فكيف يستطيع الإنسان أن يحمل هذا الثقل؟

وتردد الصوت مرة أخرى، ساكنًا حزينًا هذه المرة:

- حقًا ما أثقلها يا ابني! فتشجع!

وانسد الشق الذي انفتح في أعماق القسيس وسكت الصوت. ورفع الأب ياناروس رأسه التي مال بها على صدره. ومن أرض الكنيسة صعدت في جسده قوة مفاجئة، هبطت إليه أيضًا من صورة الخالق في أعلى القبة، فملأت صدره وشدت ركبتيه. لا يذكر أنه شعر في يوم من الأيام بمثل هذه الشجاعة وبمثل هذا اليقين وهو يتحدث مع الرب.

وضغط بيده على صدره وتكلم بصوت قوي كأنه يؤدي قسمًا:

- سأحمل إذن على عاتقي مصير قريتي. أنا الذي سأقرر ضياعها أو خلاصها. أنا حر كما تقول. الشرف والعار يتوقفان على إرادتي. أنا حر. فأنا إنسان.

ورسم علامة الصليب ووقف على أطراف قدميه يلصق شفتيه بوجه المسيح قائلًا:

- اغفر لي يا رب أنني جدفت بك. فكثيرًا ما يركبني شيطان الغضب الأحمر. اغفر لي، وهبني بعد ذلك القدرة على أن أتكلم برقة وبلا غضب ولا شكوى. ولتعطف أنت من السماء على هذه الأرض الشقية. أشفق عليها كما تفعل الأم التي تبكي وأطفالها على صدرها.

وشعر بالطمأنينة تعود إلى قلبه. كل مرة يتكلم الرب، يبدأ بالصدام ويتصبب العرق على جبهته ويمتلئ أنفه برائحة الكبريت والرعب، ويكافح ويهجم، ولكن شيئًا فشيئًا يستولي عليه شعور حلو، ويتوافق مع الرب، وتلمس قلبه يد خفية فيصبح شديد الرقة. وركع في إحساس عميق بالعرفان بالجميل، وقال هامسًا:

- المجد لك يا رب. لقد تصالحنا. تصالحنا مرة أخرى. أصبح الرب من جديد، جاري وصديقي، والدائن الذي خفف عني الدين. وانزاح عن كاهلي حمل ثقيل.

انحنى يلتقط طاقيته ليخرج. كان يجمع شعره بيده ليضع الطاقية فوقه، حين سمع أنينًا عميقًا يرتفع في الظلام. وتردد صرير أحد المقاعد الخشبية. وخيل للأب ياناروس أن شعر رأسه وقف. لكنه خجل من نفسه. وأمسك بشمعة من الشمعدان وأشعلها من الشعلة الصغيرة الموقدة بجانب المسيح، وسار مباشرة إلى الركن الذي صدر منه الأنين. وارتعشت الشمعة في يده لكنه تماسك.

ومال بالشمعة، فإذا عجوز كانت منكمشة في المقعد تهب واقفة، وتنهض معها في نفس الوقت أربع عجائز أخريات أضاءت الشمعة وجوههن الشاحبة الجافة. وتراجع الأب ياناروس صائحًا:

- من أنتن؟ ماذا تردن هنا؟ اتركن هذه المقاعد!

وتدحرجت العجائز من المقاعد نحو قبر الكنيسة يتعلقن جميعًا بأطرافه وقد اختلطن في كومة واحدة غير واضحة المعالم. وانحنى القسيس يدني الضوء من وجوههن. يا للمرارة التي رآها مرتسمة في عيونهن، التي جفت من كثرة البكاء، وعلى أفواههن الممتلئة بالسم! وقال الأب ياناروس لنفسه وهو يرتعد:

«ها هي وجوه اليونان. هؤلاء أمهات..».

وفجأة خيل إليه أن العجائز الخمس في ثياب الحداد هن الأمهات الخمس لأقاليم اليونان في أساطير الإغريق: الروميلية والمقدومية والإيبرية وسيدة الجزر...

وسأل في ضيق:

- عم تبحثن هنا في كاستللوس؟ عم تبحثن؟ من أنتن؟

وانطلقن على الفور يتكلمن جميعًا في صوت واحد ويندبن ويخبطن صدورهن.

- أنا لا أفهم شيئًا. كفى ضوضاء! لتتكلم واحدة فقط.

ونهضت أكبرهن سنًا على ركبتها، ومدت يديها نحو الأخريات وقد تحول وجهها إلى قطعة من الحجر الصلد. قالت:

- لا تتكلمن. أنا أكبركن سنًا سأتكلم.

واستدارت نحو القسيس:

- نحن أمهات. أولادنا في الحرب. بعضهم في السهل وبعضهم على الجبل. كل واحدة منا قتل لها ولد على الأقل. أنا الأم كروستالينيا من شاليكا. ماذا حدث لك يا أب ياناروس حتى نسيتنا؟ يبدو أنك كنت غائبًا عن نفسك، كنت تجدف بالله؟

- اعرفي حدود كلامك. أنا لم أكن أجدف بالرب. لم أكن أجدف لكني كنت أدعو. هذه طريقتي في دعاء الرب. ولست مطالبًا بأن أقدم الحساب لأحد.

وذهب يعيد الشمعة إلى الشمعدان، ثم رجع إلى العجائز. ورق صوته وهو يقول:

- أنا أنحني أمام آلامكن يا أمهات اليونان. أسألكن المعذرة، فقد تأخرت روحي في العودة إلى جمجمتي فلم أتعرف عليكن. لكن ها هي تعود الآن من سماء اللهب حيث كنت أحادث الخالق. مرحبًا بك يا ماريجو من براستوفا. وأنت يا كريستينا من مانجانو. وأنت يا مدام ديسبينا من كروستلو. وأنت يا زافيرو العجوز من كريسوبيجي مرحبًا بكن في بيت الرب المصلوب. ماذا تردن؟ ماذا تطلبن؟ أنا أنصت لكن.

وتكلمت كروستالينا العجوز وهي تئن وتتوجع:

- لقد طردونا من بيوتنا يا أب يانا روس. طردونا من قرانا. أصحاب البيريه الأسود وأصحاب البيريه الأحمر، هم يقتلون رجالنا، ونحن نتشرد من كهف لكهف جائعات يقرصنا البرد.. إلى من نلجأ؟ على أي أقدام نرتمي؟ كيف سينتهي ذلك كله؟ أرسلتنا القرى إليك يا أبانا لنسألك. أنت يا من تحدث الرب، أنت فمه وأذناه وعيناه في جبالنا. لا بد أنك تعرف.

وصاحت الأخريات كأنهن جوقة تسند هذه الكلمات:

- ساعدنا يا أبانا! نحن جميعًا نعتمد عليك.

وكان الأب ياناروس يروح ويجيء في الكنيسة. وتوقف أمام المحراب ينظر إلى المسيح ولا يراه، وروحه غائبة في بحر بعيد من الظلمات وفجأة بدت له الكنيسة ضيقة جدًا كأنما يستطيع أن يمد ذراعيه فيقلب جدرانها. لكنه قال لنفسه: «إن الله ألقى على كاهلك كل الأحمال، فتماسك جيدًا يا أب ياناروس يا مسكين».

ثم قال لهن:

- كل واحدة منكن لها في بيتها ميت واحد. أما أنا فموتاي آلاف ملفوفون في الأعلام الحمراء والسوداء، والحقيقة أنهم لم يموتوا في بيتي، ولكني أحملهم داخل قلبي حتى لأعجز عن السير وأتعثر. وكلما انحنيت على جثة من هذه الجثث، رأيت فيها وجهي تمامًا، لأن الموتى جميعًا أبنائي.

وتصايحت العجائز من جديد:

- ساعدنا يا أبانا. ماذا يجب أن نفعل؟ كيف سينتهي ذلك كله؟ هل تعرف طريقًا يا أب ياناروس لإنقاذنا؟ لقد أتينا من أجل هذا. فإذا كنت تلقيت وحيًا من الله فتكلم حتى نعود إلى هؤلاء الذين أرسلونا. نحن متعجلون.

وزام الأب ياناروس قائلًا:

- وأنا أيضًا متعجل.

وفي تلك اللحظة شعر بأن الوقت يمر ويجب ألا يضيع سدى. كان قد اتخذ قراره، وأصبح متعجلًا. ونظر إلى العجائز اللاتي عدن يتعلقن بقبر المسيح ويطلقن الصراخ الهستيري، وقال:

- انهضن! اتركن هذا القبر وانهضن! ألم يكفكن البكاء؟ الرب تعب من بكاء الناس. فدموع البشر تكفي لتحرك طاحونة ماء، ألا تكفي إذن لتحريك الرب؟ جففن عيونكن وارجعن إلى كهوفكن اجمعن كل الناس رجالًا ونساء وقلن لهن: «هاكم ما يأمرنا به الأب ياناروس من كاستللوس. هناك ثلاثة طرق يمكن أن تؤدي إلى الخلاص: طريق الرب، وطريق السلطات، وطريق الشعب. أما طريق الرب فمغلق. فالرب فيما يبدو لا يدخل نفسه في شئوننا، لأنه أعطانا عقلًا وأعطانا الحرية ونفض يديه مما نفعل بعد ذلك. هل يعاقبنا الله لأنه لا يحبنا أم لأنه يحبنا؟ لا أعرف. لست سوى إنسان آثم لا أستطيع الدخول في أسرار الله. لكن شيئًا واحدًا أنا متأكد منه، هو أن هذا الطريق مغلق. طريق مسدود».

وصمت. فقد طقطقت الشعلة الصغيرة الموقدة بجانب المسيح. الزيت لم يعد كافيًا. واستدار الأب ياناروس نحوها، فرأى وجه المسيح قد أصبح مظلمًا. وشعر القسيس بالضيق، لكنه لم يتحرك ليحضر الزيت ويعيد إلى الشعلة ضوءها.

وأمسكت العجوز الأولى بالقسيس من طرف ردائه الكهنوتي تسأله:

- والطريق الثاني يا أبانا، ما هو؟ اشرح لنا بوضوح. نحن أمهات جاهلات نريد أن نفهم.

- الطريق الثاني هو طريق السلطات ورؤساء الشعب والزعماء. اللعنة عليهم جميعًا! أنا لا أميز بينهم: فلست أحمر ولا أسود. أنا الأب ياناروس الذي يكلم الرب، والذي لم يركع يومًا ليلعق أقدام البشر الكريهة. ولو فتحوا قلبي لوجدوا اليونان ممتدة في دمي كما تمتد في خرائط الجغرافيا. اليونان كلها. قولوا لهم هذا، هل تسمعون؟

وردت جوقة العجائز:

- نحن نسمعك يا أب ياناروس، نحن نسمعك. تكلم أيها المبجل ولا تغضب. ماذا إذن عن الطريق الثاني؟

- الطريق الثاني، مغلق أيضًا، فليس هناك من الرؤساء الحمر أو السود واحد يحمل في قلبه اليونان كلها. جميعهم قسموها. قطعوها إلى نصفين كأنها ليست شيئًا حيًا. وكل نصف من النصفين أصيب بالسعار وأصبح يريد أن يبتلع النصف الآخر. الملوك ورجال السياسة والأساقفة والأوثان وقادة الجبال وقادة السهول، أصبحوا جميعًا مسعورين. أصبحوا ذئابًا مفترسة تنظر إلى الناس كأنها لحوم تؤكل.

وتوقف عن الكلام مرة أخرى وهو يلهث كما لو كان قد تسلق جبلًا. وتنهد ثم قال في همس:

- كم كان خيرًا لي وأسهل أن أكون أعمى العينين أنا أيضًا! إذن لالتحقت بالجيش سواء في اليمين أو اليسار، ولأخذت مكاني بجانب آلاف العمي الآخرين المقتنعين تمامًا بأن الله معهم والشيطان ضدهم! وإذن لكنت أمجد قتل أبناء وطني وأقول: «الحمد لله يا رب، ها هو بلشفي

يذهب!» أو أقول: «الحمد لله يا رب، ها هو فاشستي يذهب!» لكن وا أسفاه! أنا هنا وحدي تمامًا. وقلبي ينشق لكل جثة أجدها في طريقي، لأني أرى فيها قطعة من اليونان تتحلل تحت الأرض.

وسكت مرة أخرى غارقًا في التفكير وانتفخت عروق رقبته. فقد كانت اليونان ترقد أمام عينيه يغطيها الدم.

لكن العجوز الأولى شدته من كمه:

- والطريق الثالث يا أبانا؟ الطريق الثالث؟

- أي طريق ثالث؟ لا يوجد طريق ثالث. لم يفتح بعد. وعلينا نحن أن نفتحه شيئًا فشيئًا وأن نعاني من أجل ذلك. من نحن؟ الشعب. فهذا الطريق يبدأ مع الشعب ويتقدم مع الشعب وينتهي مع الشعب. في بعض الأحيان تمزق روحي ومضة فأقول لنفسي: من يدري؟ ربما كان الله نفسه هو الذي دفع بنا إلى هذا الحد ليرغمنا على أن نفتح - راضين أو كارهين- هذا الطريق الثالث الذي هو طريق الخلاص. لا أزعم أني أستطيع أن أقرر ذلك. لكن إذا سألتم قلبي فسيقول لكم هذه إرادة الله. الله يقول لنا: لتصبحوا بشرًا. كفى تعلقًا بأطراف ثوبي كالأطفال الصغار. انهضوا وتعلموا كيف تمشون وحدكم تمامًا».

ولم تفهم العجائز جيدًا كلمات القسيس، لكنهن وجدن فيها بعض الراحة. وتهيأن للرحيل، فشدت كل واحدة منهن تلفيعتها السوداء بإحكام، وغطت جبهتها وذقنها وفمها وأذنيها.

لكن الأم كروستالينا عادت تتردد. فكلمات القسيس بعثت الدفء في قلبها، لكنها لم تكشف لروحها كل شيء. ونظرت إلى القسيس في قلق ثم قالت:

- وبعد ذلك إذن؟

- بعد ذلك؟ القمر ارتفع في السماء، فارجعن إلى بيوتكن. اجمعن أبناء بلدتكن وقلن لهم إن الأب ياناروس من كاستللوس يأمر بهذا: «ابدأوا السير فورًا لتحضروا إلى هنا في كاستللوس غدًا قبل الظهر».

لقد أودعني الله كلمة غامضة، فهل فهمتها أم لم أفهمها؟ سوف نرى. لكن على كل حال ليس أمامنا طريق آخر. اقبلن بركتي.

ورفع يديه يبارك الرؤوس الخمس تحت التلفيعات السوداء، ثم أزاح مزلاج الباب، وقال وهو يرسم علامة الصليب في الهواء فوق رؤوس العجائز:

- اذهبن تصحبكن بركة الله والوطن!

وظل واقفًا على عتبة الكنيسة ينظر إليهن يبتعدن الواحدة تلو الأخرى، يمشين لصق الجدران. كان القمر يرتفع في السماء وراء الجبل. وفي الهواء يفوح عطر نبات الزعتر وتفوح رائحة نتنة. واختفت العجائز بين الخرائب وهو يتابعهن بنظره. وهمس قائلًا:

- اليونان التعسة في تلفيعة سوداء!

كان القمر يرتفع في السماء، وأطلال القرية تلمع هادئة في ضوئه، كأنها بيوت لا تزال تظل تحت سقوفها أزواجًا متعانقين. لكن بنات آوى انتشرت بين الأنقاض وأخذت تعمل فكيها. ومشى رجلان عجوزان، اختلط عقلاهما من فرط الجوع والخوف، يتعثران في ركام الخرائب ويغنيان أغنية قديمة من أيام شبابهما عن الحب والموت. ومن وقت لآخر كان الاثنان يتوقفان ويتعانقان ثم ينفجران بالضحك. ودخل القمر في رقة وسكون غرفة الأب ياناروس خلال النافذة ذات الحديد. واكتست لوحة الدينونة الأخيرة بلون الفضة، واشتعلت هالة اللهب وجمر الفحم تحت قدمي القديس قسطنطين. أما القديس نفسه فلم يظهر.

وجلس الأب ياناروس في ركن الأريكة وأسند رأسه على الحائط. وقال هامسًا:

- أشكرك يا إلهي لأنك اليوم ملأت كأسي بالمرارة. أنا لا أعرف لماذا تكون قاسيًا مع هؤلاء الذين يحبونك. لكني أعرف أنك تفعل ما فيه خيرنا، حتى لو لم نفهم ذلك. فكيف تبلغ بنا الجرأة والقحة أن نزعم أننا نفهم أعمالك يا إلهي؟ اغفر لنا. فقلبنا لا يحتاج إلى شيء. لديه الإيمان، ويفيض منه اليقين. لكن إبليس هو الذي يركبنا ولا يهدأ عن التساؤل..

الليل هبط على العالم، بعد نهار مملوء جدًا وثقيل جدًا. فالشكر لك يارب! أنا متعب. ومع ذلك أمامي عمل كثير هذه الليلة. عمل عسير أيضًا. أنت تركتني حرًا أسلك وفق إرادتي. إذن سأسلك وفق إرادتي! سأصعد إلى الجبل.

وأغمض عينيه لعله يستريح قليلًا فيستعيد قواه قبل أن يبدأ صعود الجبل. لكن عبثًا انتظر، فملاك النوم تأخر في الحضور. كان عقله يغلي، فكيف له أن ينام؟! وتحت جفنيه المغمضين مرت عليه آلام البشر مختلطة بآلام الرب. وفجأة حلقت روحه بعيدًا. كان ذلك يوم جمعة. مقدس أيضًا. يوم شمسه ساطعة كهذا اليوم. وكان يحمل الكيس على كتفه ويبحث عن مستقر لروحه. وظهر له الجبل المقدس وأديرته العالية كالقلاع، وترتيلة قداس باكر الحلوة، والرهبان من كل نوع، هؤلاء الذين يأكلون وأولئك الذين لا يأكلون، والزاهدون والمنافقون، وكانت قمة آتوس مغطاة بالثلج تعلو الجبل المقدس وتلمس السماء ويزورها الرب.

كم يسترجع كل شيء! لم ينس شيئًا. ها هو يرى أمامه مرة أخرى في وضوح كامل، المائدة يصطف عليها الآباء بعد قداس باكر يأكلون معًا قطعة خبز جاف. وكانت القاعة كبيرة ومستطيلة، جدرانها منقوشة بالصور التي تآكلت مع الرطوبة وتعاقب القرون. وفي الجو تفوح رائحة زنخة مع رائحة حساب الكرنب. ودخلت من النافذة المفتوحة عصفورة حلقت فوق رؤوس الرهبان المنحنية على صدورهم، وعرفتهم واحدًا واحدًا. كانوا هم أنفسهم كالعام الماضي، مع شيء قليل من الشحوب أو تقدم السن: ماناسيس ويواقيم وجبريل وميلشيسديك وبنيدكتوس. كلهم موجودون لم يتخلف أحد. وامتلأت العصفورة بالفرح، وغردت حول رأس كبيرهم وحاولت أن تنزع من لحيته البيضاء شعرة تضيفها إلى عشها. وفجأة اندفعت نحو النافذة المفتوحة واختفت في النور.

لم يرفع واحد من الرهبان عينيه لينظر إليها. كان عددهم حوالي الأربعين يلتفون حول المائدة محدبي الظهور مقطبي الجباه، يمضغون دون شهية حبات زيتون وفول نابت، بينما الأب الذي يشرف على الغذاء يروح ويجيء صامتًا يوزع عليهم خبز الشعير. كان ذلك يوم الجمعة المقدس والرهبان يتنهدون ويعدون الساعات. متى تأتي إذن يا إلهي هذه القيامة حتى يمكن أن نخرج بعد هذا الوقت الطويل؟ فالنظام لا يسمح باللحم داخل جدران الدير.

وصعد راهب صغير على المنبر يقرأ مشهد صلب المسيح. كان حدثًا هزيلًا ملبد الشعر بح حلقه من الصراخ بصوت ناشز، لم يصبح بعد صوت رجل راشد ولم يعد صوت ولد:

«كانوا يصعدون ويصعدون نحو الجلجثة. والمسيح في الأمام وركبتاه تلتويان تحت ثقل الصليب. فالصليب كان ثقيلًا. خطايا العالم معلقة به. وظلوا يصعدون، والعذراء خلفهم تدق على صدرها وتندب:

«أين تذهب يا زينة أيامي، يا جوهرتي المدفونة في التراب...».

«وآلاف مؤلفة من النساء الأخريات ينتحبن خلف الأم. كل أمهات العالم! وآلاف مؤلفة من العيون تبكي، والأفواه تشهق، والأيدي ترتفع نحو السماء تدعو الملائكة للنزول.

«وفجأة، كان سكون عظيم. ومن أحشاء الأرض خرج صوت: لا تبكي يا سيدتنا، تشجعي لتعطي الشجاعة للعالم!».

كان القارئ الصغير يعلن بصوته المتحشرج مسيرة الآلام الرهيبة، بينما الله يطلع النهار. وتلألأت القبة المصنوعة من الرصاص في أعلى الكنيسة فوق منتصف الفناء كأنها مصنوعة من الفضة. وكان عصفور أليف يقفز على حافة العين ويشقشق الألحان الأولى من نشيد تعلمه من الرهبان. وحول الدير كانت طيور الحجلات تصرخ في مجاري السيول. وكان الأب ياناروس في طرف المائدة يجيل نظره في المجتمعين مقطب الجبين. عيناه تقفان كل لحظة على هذا الراهب أو ذاك في ذعر وإشفاق. كانوا شيوخًا مسنين، لم يبق فيهم سوى القليل من العقل، والقليل من القلب، والقليل من الإيمان. لكنهم كانوا بطنين شرهين. هكذا تنتهي العزلة المقدسة في الأديرة! كانت بشرتهم مخضرة متحللة بفعل الرطوبة التي أكلت أقدامهم وأيديهم ولم تترك لكل منهم سوى سبع فتحات في وجهه. العينين والفم والمنخرين والأذنين. تكاد تقول إذا رأيتهم إن لوحة العشاء المقدس- العشاء الأخير الذي جمع المسيح وحوارييه- هبطت من الجدار بعد أ ن قاست عوادي الزمن، وأن الحواريين جلسوا في القاعة متلاصقين صامتين ينتظرون شيئًا ما.. ماذا ينتظرون؟ من ينتظرون؟ لماذا ينظرون نحو الباب؟ أين المسيح؟

وارتفع من الوادي عطر رطب انتشر خلال النافذة. واستيقظت العصافير. وصاح الديك في سقيفة الدجاج، وجاء من بعيد تغريد طائر الكوكو رخوًا نديًا. ومرت على صدغي القسيس نسمة منعشة، فأغمض عينيه. ومن أعلى كان صوت الغلام يزداد ارتفاعًا:

«والخدم الملاعين رفعوا مطارقهم. طلبوا منهم ثلاثة مسامير، لكنهم صنعوا خمسة. عليهم لعنة الله! ثم بدأوا يدقون المسيح بالمسامير، عند الدقة الأولى، اهتزت قبة الفلك. وعند الدقة الثانية،

نزلت الملائكة من السماء يغسلون جروحه. يحملون ماء الزهور في أباريق من الذهب، وقطع الكفن من الجوخ النقي، والعطور. وعند الدقة الثالثة فقدت العذراء الوعي ومعها العالم أيضًا، وغرقت الأرض في الظلام..».

وظل الأب ياناروس مغمضًا عينيه. كان يحس المسامير تنغرز في يديه هو وفي قدميه. ثم استفاق وضغط برأسه على الجدار حيث نقشت لوحة العشاء المقدس وتآكلت مع الزمن. وفي اللوحة ظهرت صورة كلب أبيض به بقع زرقاء يتجه ليلعق قطعة عظم تحت أقدام الحواريين. على هذا الكلب بالذات استند الأب ياناروس. واختفت المائدة والرهبان والدير وجبل آتوس وكل شيء. وظل الأب ياناروس متعلقًا بأسفل الصليب. كان الدم يسيل والمسيح يبتسم له وهو يحملق فيه.

وصرخ ودارت به الأرض. ولم يعد يعرف أين هو. وانتفض واقفًا يمد يده نحو المنبر صائحًا دون أن يدرك ما يقول الراهب الصغير:

- لا تترك المسيح على الصليب! ابدأ القيامة!

وسمع الأب ياناروس ضجيجًا في الخارج ترددت أصوات تناديه. كان بعض الناس يروحون ويجيئون في فناء الكنيسة، ثم بدأت دقات الأيدي تهز باب الغرفة. وفتح عينيه واختفى جبل آتوس، وسمعهم هذه اللحظة في وضوح يصيحون باسمه. وقفز على قدميه وذهب يفتح الباب.

رأى حشدًا متجمعًا أمام غرفته. واستطاع أن يميز في ضوء القمر وجوهًا تلمع بتعبيرات قاسية. ومد يده يمنعهم من الدخول. وصاح أحدهم.

وخيل إليه أن هذا الصوت المسرسع هو صوت مندراس العجوز:

- هوه يا أب ياناروس!.. ماذا يحدث حتى الآن فلا تدق الجرس؟ هيا افتح الكنيسة.

وأجاب القسيس:

- كفوا عن الصياح واصمتوا! لن يكون هناك قداس ليوم ولا قيامة غدًا. ارجعوا إلى بيوتكم يا قتلة إخوتكم. سيبقى المسيح على القبر ما دمتم تستمرون في ذبح بعضكم.

وارتفعت من كل جانب أصوات هستيرية متعجبة:

- ماذا تقول؟ يا للسماء! هل سمع أحد كلامًا كهذا في المسيحية؟ ألا تخشى الله؟

- اليونان مصلوبة بجريرتكم يا أبناء يهوذا الإسخريوطي. وطالما بقيت مصلوبة، فسوف يبقى المسيح على الصليب. يا قتلة! طالما تمسكتم بالاستمرار في الجريمة، فسوف أرفض أن أقيمه. لا في شاليكا ولا في براستوفا ولا في كاستللوس. لن تكون قيامة على طول الأرض التي أرعاها!

- لن تقيم المسيح إذن من قبره؟ ستتركه هكذا طول العام على قبر الكنيسة؟ فلتقع خطيئة ذلك على رأسك!

- لتقع على رأسي. سأتلقاها على رأسي! عودوا إذن إلى بيوتكم.

وشق الشيخ مندراس الجمع حتى وقف أمام الأب ياناروس وعصاه مرفوعة، وصاح وقد أحاطت الرغوة بفمه:

- هل تعتقد أنك تستطيع أن تصلب المسيح ثم لا تقيمه؟

- أستطيع أن أفعل ذلك. وقد طلبت الإذن به وتلقيته. فأيديكم تقطر دمًا. اذهبوا واغسلوها أولًا. القيامة تحتاج إلى أيدٍ طاهرة وقلوب طاهرة وقد قال لي الرب إنه لا يريد أن يقوم في كاستللوس.

- يا يهوذا! سوف يحلق لك الأسقف لحيتك!

وابتسم الأب ياناروس قائلًا:

- ما أجمل هذا التهديد! إذن سأذهب إلى الجنة بدون لحية!

وبدأت عجوز تصخب وتصيح:

- حذار يا عدو المسيح! نحن الأمهات كلنا سنقيمه معًا!

وصاح الأب ياناروس:

- ارجعوا إلى بيوتكم. هيا، اختفوا.

وحاول أن يغلق الباب لكن عصا مندراس أصابته بشدة فسال الدم من جبهته. وأراد كرياكوس أن يقذفه بقطعة حجر، لكنه شعر بالخوف فتركها من يده.

وخرجت من الأفواه مقطوعة متنوعة من الشتائم. والنساء اللاتي أتين في ثياب الحداد، أزحن الشالات خلف أكتافهن، وأخذن يضربن الصدور ويبكين المسيح. وجفف الأب ياناروس الدم الذي سال من وجهه حتى لحيته، وصاح:

- أيها اليونانيون، يا قتلة إخوتكم، هل تريدون أن تحتفلوا بعيد القيامة؟ تريدون أن يقوم المسيح في قلوب مثل قلوبكم؟ اللعنة عليكم! وصفق الباب بعنف وشدة.

وارتفعت الصيحات من كل جانب:

- يا لحية التيس! يا عدو المسيح! يا يهوذا!

واستعاد كرياكوس شجاعته فالتقط بيديه الاثنتين قطعة الحجر التي تركها، ثم ألقاها على الباب.

وصاح الشيخ مندراس يخاطب الجميع:

- هيا يا أصحاب! هيا نبحث عن القومندان ونكشف له هذا الغراب! كانت مصابيح البيوت قد انطفأت واحدًا بعد آخر. وفي عنابر النوم بالمعسكر أخذ الجنود يتهامسون بصوت منخفض والبنادق في متناول أيديهم. ودورات الحراسة المنتشرة على جوانب الجبل ترهف الآذان لتلتقط أي صوت، فلا تسمع سوى رفة مكتومة من طائر ليلي أو عواء مسرور من ابن آوى، أو نباح كلب

يصرخ في القمر الحزين وراء الجبل. كان القومندان يشعر بتوتر عصبي، فجلس أرضًا على عتبة المعسكر، يدخن سيجارة بعد أخرى دون أن يجد الرغبة في النوم. وكيف ينام إذا كان مسئولًا عن قرية في خطر؟ والجنود يفرون الواحد تلو الآخر، والمعسكر تنقصه المؤن والذخيرة! لقد نسوه تمامًا في هذه الصحراء. يجب أن يحمي الخطوط ويمنع البرابرة من المرور. لكن البرابرة كانوا يمرون. بل كانوا داخل القرية يتصلون بالجبل بواسطة الإشارات. ومن يدري، قد يصل الأمر إلى أن يعبروا الخطوط ليتجمعوا أثناء الليل. اللعنة عليهم!.

وألقى بالسيجارة وسحقها بكعب حذائه الثقيل.

- القلاع تؤخذ من الداخل لا من الخارج. والعدو موجود في الداخل. فلابد من تطهير ذلك كله. القسيس أولًا. إنه رجل لا يؤكل بسهولة، هذا الغراب القذر، لكني سأناله.

ونهض ليمشي قليلًا ويستنشق هواء الليل المنعش. كان الأنصار يشعلون النيران على قمم الجبل. ولوَّح القومندان بقبضته نحو الجبل:

- يا خونة! يا مأجورون! لا بد أن أقضي عليكم في النهاية!

وفي هذه اللحظة شعر في قلبه بألم حاد، وعادت إلى روحه ذكرى. في الأيام الأولى لوصوله إلى كاستللوس رأى حلمًا. رأى أنه كان نائمًا في أنقاض معبد القديس يوحنا الرسول على جانب الجبل، وفجأة سمع في نومه بكاء، ففتح عينيه وشاهد أمامه امرأة جميلة جدًا وشاحبة جدًا وعيناها واسعتان يسيل منهما الدمع. ومد إليها يده قائلًا:

- من أنت يا سيدتي؟

وكان يظن أنها السيدة العذراء. لكن المرأة اليائسة أجابت:

- ألا تعرفني؟ ألا تعرفني يا قومندان؟

وكرر السؤال وقد بدأ يرتعد:

- من أنت يا سيدتي؟

فأجابت بصوت منخفض حزين:

- أنا اليونان. كل أبنائي يطردونني فلا أجد مكانًا أضع فيه رأسي. وقد جئت إلى جانبك يا ابني ألجأ إليك.

فصرخ وانتفض والدموع تملأ عينيه:

- يا أمي. لا تبكي. أنا لن أتركك أبدًا. فاطمئني. سوف أسعى إلى الموت من أجلك.

ومنذ ذلك اليوم أصبح القومندان رجلًا آخر. قبل ذلك الوقت. شارك في الحرب العظمى وفي جبال ألبانيا وعلى رمال ليبيا، كجندي بين آلاف الجنود اليونانيين. وترقى شيئًا فشيئًا من جندي

صغير حتى وصل بمجهوده وقدرته إلى رتبة القومندان. لكنه ظل قومندانًا مثل كثيرين غيره. ولم يشعر قط بأنه، هو ديمتروس ليفاس. الروميلي، مسئول عن اليونان كلها.

لكن منذ رأى هذا الحلم لم ينم. لم يعد يشعر باليونان أمامه، بل في داخله، تصيح طالبة النجدة. وكان يقول في نفسه: إذا هلكت اليونان سيكون هذا خطأي، وإذا أنقذت سيكون هذا فضلي. وهكذا اندفع في الحرب بجنون. يومًا واحدًا فقط، نسيها يومًا وحدًا، عليه اللعنة ثلاث مرات! كان هذا في المساء. عاد من المعركة فلم يجد زوجته في البيت. العاهرة رحلت لتلتحق بالأنصار على الجبل.

وبصق، وعاد يمشي. كان الوقت قد تخطى منتصف الليل، فعاد إلى المعسكر والعرق يسيل من جبهته وتحت إبطيه. وهمس لنفسه:

- اغفري لي يا أمي أنا نسيتك ذلك اليوم. لسنا سوى بشر. بؤساء. نحب زوجاتنا. يا للسقوط!

وجلس القرفصاء على الأرض يضغط برأسه على جدار المعسكر، ويدفع روحه دفعًا إلى قرية جبلية صغيرة تسكنها أمه هناك في روميليا، ثم عاد بروحه إلى كاستللوس، عند الأب ياناروس وعند جنوده. لكنه لم يدعها تتوقف لحظة عند المرأة الخائنة- الله وحده يعلم أين تزحف في هذه اللحظة ومع من تنام!

ورغم ذلك كله، كانت روحه تعود دائمًا إلى هذه المرأة. وهمس:

- اللعنة عليها! اللعنة! الأسد لا يخشى سوى القملة. لكنني لن أتركها تأكلني أبدًا!

وأشعل سيجارة جديدة وبدأ يدخن.

وعلى طرف القرية قريبًا من المعسكر، انفتح أحد الأبواب فتحة صغيرة وأطلت عجوز برأسها. كانت تلف شعرها بشريط أحمر. ونظرت إلى كل الجهات. الأضواء انطفأت والطريق مهجور. وتخطت العجوز عتبة البيت في جرأة. كانت تلف حول رقبتها شالًا مرقعًا، وتمشي حافية القدمين لصق الجدران، تستدير من لحظة لأخرى تنظر إذا كان يتبعها القومندان مستندًا إلى الحائط غارقًا في أفكاره، توقفت وجسدها كله يرتعد. ونزل عليها شعاع من القمر. عجوز تملأ التجاعيد وجهها.

لها عينان مشتعلتان. ويدان تهرأتا من غسل الملابس. القرية كلها تسخر منها. ولهذا لا تخرج المجنونة البائسة من بيتها إلا في الفجر أو أثناء الليل. كانوا يسمونها كيرا بوليكسيني. حتى وقت قريب كانت تعمل خادمة عند مندراس المالك الكبير. عمرها الآن يزيد على الستين عامًا، لكنها تتمسك بأن تلف الشريط الأحمر حول شعرها. هذا هو الجنون الذي أصاب رأسها. كانت تصاب بالإغماء أيضًا وتسقط على الأرض من وقت لآخر وتطلق الصراخ الحاد. لم تكن صغيرة السن عندما هامت حبًا في أحد الأيام ببقال القرية كير تاناسيس، الفتى ذي الثلاثين عامًا. في مساء كل يوم سبت كانت تضع الشريط الأحمر في شعرها وتمشي متباطئة أمام دكان البقال، وتتنهد وتقول له كلما وجدته وحده:

- متى تتزوجني يا صغيري تاناسيس؟ متى تتزوجني يا عزيزي؟

لم أعد أستطيع أن أنتظر.

وكان يحاول طبعًا أن يتخلص منها فيقول لها:

- أنا أريد مهرًا كبيرًا يا عصفورتي. أنت تدركين أننا سننجب أطفالًا والأطفال يكلفون غاليًا! ثم أنا مصر على أن تعيشي كملكة.

- وما مقدار المهر يا تناسيس؟

- أريد اثنى عشر سريرًا صغيرًا وست مباخر من الفضة وخمسين سروالًا.

- حسنًا، يا أغلى شيء عندي سأذهب إلى سيدي وأقول له هذا.

وتعود إلى بيت مخدومها وترتمي على قدمي الأب مندراس قائلة: «سيدي، ارحمني. أعطني اثنى عشر سريرًا صغيرًا وست مباخر من الفضة وخمسين سروالًا، لكي أتزوج كير تاناسيس. وإلا فسوف يرفضني كما يقول.». ويضحك الأب مندراس ويقول لها: «هذا السافل أنيابه طويلة! لكن أنا لا أستطيع أيتها المرأة الطيبة بوليكسيني. فمن أين أحصل على خمسين سروالًا؟ دعك منه.».

وتعود المسكينة مرة أخرى إلى البقال:

- السيد قال لي إنه لا يستطيع أن يقدم هذا كله. يبدو أن هذا كثير!

- لقد اخترت وقتًا غير مناسب لمطالبته، فماذا نفعل إذن يا بوليكسيني؟

وتقول له وهي تهز عجيزتها:

- اخطفني.

وفي مساء أحد الأيام قال لها وقد فاض به:

- معلوم! سأحضر لأخطفك غدًا في منتصف الليل. فاستعدي إذن..

وعادت تجري. وانتظرت حتى نام الجميع، فاغتسلت وغيَّرت ملابسها الداخلية وغطت رأسها، وذهبت تقف كالتمثال على عتبة الباب تنتظر خاطفها. ودقت الساعة منتصف الليل، ومر منتصف الليل وطلع الفجر. ولم يظهر تاناسيس. وسقطت المسكينة مريضة من الحزن.

وبمرور السنين تضاعفت حالات الإغماء التي تصيبها، وازداد اختلاط عقلها. لكن قلبها لم يستطع أن يبقى خاليًا. وأحبت ستليانوس النساج، لأن له أذنين كبيرتين وصوتًا ضخمًا. وفي مساء أحد الأيام اصطادته وحده في الكنيسة بعد الصلاة، وكان الجميع قد انصرفوا، فقالت له:

- ستليانوس.. هل تريد أن تتزوجني؟

وكان يعرف حزنها ويشفق عليها، فأجابها قائلًا:

- وكيف أستطيع ذلك يا بوليكسيني المسكينة؟ كيف أستطيع وأنا متزوج؟ لكن أخي سوفوكليس، الضابط، يحبك.. وأنا أعرف ذلك من مصدر مؤكد.. فانتظري فقط حتى يرجع إلى القرية ويتزوجك..

ووصلت القصة إلى الأب مندراس، فأسرع الشيخ الخبيث يبحث عن ستليانوس ليتفاهم معه. وعندما عادت بوليكسيني المسكينة تسأل ستليانوس عن أخبار حبيبها، قال لها إنه تلقى منه رسالة.

- وماذا كتب لك عني يا ستليانوس؟

- قال إنه يأمل أن يرجع في عيد الميلاد، وأنه لا يطلب منك سوى شيء واحد: أن تكوني على ما يرام في أعمال البيت، وأن تنظفي جيدًا عشة الفراخ وتغسلي الملابس وأنت راضية، وتنتبهي إلى أواني المائدة فلا تكسريها. ثم أهم شيء ألا تطالبي بأجرك. فهو متمسك جدًا بهذه المسألة. ويجب ألا تنسي أنك زوجة ضابط. وإذن لا بد أن تقفي تمامًا في الصف.

وانتظرت عيد الميلاد، وانقضى عيد الميلاد. ثم انقضت أعياد ميلاد أخرى. ومرت السنوات وأصبحت كيرا بوليكسيني بيضاء كلها. واختفى ثدياها وسقطت أسنانها ونبت لها شارب. واندلعت الحرب الأهلية. ووصل القومندان إلى القرية. فقال لها ستليانوس: «هذا هو سوفوكليس، فاذهبي إليه وتفاهمي معه.».

والآن، عندما ينام الناس جميعًا، تنكمش المسكينة كل ليلة في الشال المرقع وتخرج من البيت متلصصة، تزرق لصق الجدران حتى تصل إلى المعسكر. وعندما يكون القومندان وحده، تتلمسه بخفة وترتعد. وفي أحد الأيام أراد القومندان أن يضربها، فعقدت ذراعيها وقالت له في سعادة غامرة: «اضربني يا حبيبي. اضربني حتى أحس بيدك على جسمي».

وفي هذا المساء لم يكن مزاجه يسمح بسماع التنهدات، فصرخ فيها:

- أنا لست في وقت مناسب، فلا تريني وجهك.

وأجابت على الفور بصوت مستسلم:

- حسنا، حسنًا سأنصرف يا سوفوكليس.

وانصرفت والشال يلتف حول رقبتها تمشي لصق الجدران.

وانفجر القومندان:

- لو استمر الحال بهذا الشكل فسوف أتحول إلى حمار. الأنصار ومدرس القرية، والأب ياناروس، ثم الآن هذه المجنونة.. لا بد أن ينتهي ذلك كله!

ونادى ابن بلده الجاويش الروميلي وقال له:

- لنتكلم بصراحة يا ميتروس، ماذا نفعل لنخرج من هذا الموقف؟ ما رأيك في هذا القسيس الشيطان؟

وقطب الجاويش جبينه وانكمش رأسه بين كتفيه:

- ماذا أقول أيها القومندان؟ الشيء الغريب أنني لا أشعر بالخوف منه إذا لم أكن أراه، بل أستطيع أن أنتزع لحيته شعرة شعرة دون تردد.

لكن بمجرد أن يظهر، أعوذ بالله من الشيطان! أشعر بأنني فقدت الساقين. ما معنى ذلك؟ ربما لأنه يقول الحق بشكل ما. لكن وإيماني لو كان ما يقول حقًا، فقد ضعنا!

- وماذا يقول يا ميتروس؟ لا تهول الأمر.

- يقول: المسيح موجود على يميني لا يراه أحد غيري، ولهذا لا أخشى أحدًا. فلو كان هذا صحيحًا أيها القومندان..؟

وفقد القومندان صبره:

- أعتقد يا ميتروس يا مسكين أنك بدأت تصاب أنت أيضًا. وأنا على حق تمامًا حين أقول إنه آن الأوان لنخرج من هذه الورطة إذا أردنا ألا تختلط عقولنا. بل أنا استدعيتك لهذا السبب. أنصت لي لحظة. أنا لا أحب قط هذا القسيس وطريقته في التصرف. هل رأيت يا ميتروس كيف يضع رأسه برأسي؟ ثم إنه طوال الوقت يتهامس مع الناس. دعك من أنه يتردد أيضًا على المدرس البلشفي. وسوف ترى أنه يطبخ لنا شيئًا مع هذا الخائن ابنه الكابتن على الجبل. ما رأيك في ذلك؟ هيه! أنا أكلمك، فأين ذهب عقلك؟

وهز الجاويش رأسه وقال:

- ماذا كنت تريد أن أقول أيها القومندان؟ في الحقيقة هناك شيء حاولت عبثًا ألا أفكر فيه لكني لم أستطع أن أنتزعه من روحي. شيء ظل يلح عليّ طوال الأسبوع المقدس. ومن حسن الحظ أني وجدتك هذا المساء في إحدى حالاتك المناسبة، وهذا يجعلني أفكر في أن أسألك عنه، فهل تسمح يا سيدي القومندان؟

- تكلم..

- هل صحيح أنه حقيقي هذا الحزام، حزام العذراء، أيها القائد؟

وهز القومندان كتفيه:

- وما أهمية ذلك بالنسبة لك يا ميتروس؟ أنت تبحث عن أشياء لا يمكن الوصول إليها. وسواء كان حقيقيًا أم لا، فقد لعب دوره. أنت سمعت كيف كان الراهب يصيح وهو يمر أمام المعسكر: «اقتلوا. اقتلوا! لتكسبوا بركة العذراء! اقتلوا أصحاب البيريه الأحمر لتكسبوا خلاصكم!» هذا ما كان يصيح به. وهو هكذا شيء جميل جدًا. فالناس يتصورون أنهم يسمعون من فم الراهب صوت الرب. وهذا يثيرهم للقتل. هذا الحزام يؤدي إذن من العمل أكثر مما يؤدي مدفع..

وقاطعه الجاويش قائلًا:

- لكن يا سيدي القومندان، الأب ياناروس يقول أيضًا إنه صوت الرب، ومع ذلك فهو يعظ بشيء مختلف تمامًا. فواحد يقول: اقتلوا! اقتلوا! والآخر يقول: لا تقتلوا!

لا تقتلوا! فأي الصوتين إذن صوت الرب الحقيقي؟ أم هل الرب له أفواه متعددة؟

وابتسم القومندان في ضيق:

- أنت تتكلم كالمغفل يا ميتروس. ألا ترى ما يحدث في بقية العالم؟ أم لعلك تعتقد أننا وحدنا فقط الذين نعاني من المتمردين؟ ماذا يفعلون في أي مكان آخر؟ عندما ترتفع رأس: طاخ! تصرع على الفور. ونحن نفعل نفس الشيء. هذا هو الحزام الحقيقي.

- لكن حتى متى أيها القومندان؟ أنا لا أعرف ماذا يفعل الروس أو الصينيون أو الزنوج. لكننا نحن قليلو العدد جدًا، ولن نتمكن من أن نمسك..

وقاطعه القومندان بطريقة جافة قائلًا:

- كفى تخليطًا! يا للمصيبة إذا كنا سنبدأ الآن في التفكير. الجندية معناها أن تقتل دون أن توجه أسئلة انصرف!

كان القمر يظهر وراء قمة الجبل. ونسخ نوره النجوم الصغيرة، فلم تعد تتلألأ في هدوء الليل المشرب باللبن سوى بعض النجوم الكبيرة. وفي الفضاء فاحت رائحة الكبريت وحضور الرب. وأسرع الأب ياناروس يمشي في إصرار على طول جانب الجبل. ومن وقت لآخر كان يتردد نعيق محزن من بومة تطير متثاقلة بين الصخور. ويدير الأب ياناروس رأسه ويبصق ثلاث مرات للتعويذ على الطائر الذي يحمل الشؤم. كان قد شمر رداءه الكهنوتي المرقع وثبته في حزامه الجلدي. وفي ضوء القمر لمعت ساقاه العاريتان حتى الركبتين، ملتويتين مليئتين بالنتوءات كأنهما فرعا شجرة زيتون عجوز. وكانت طاقيته تنزل فوق حاجبين لا يزال لونهما أسود، ومن تحتهما تبرق عينان مشتعلتان في قاع محجرين غائرين وأخذ يجيل النظر أمامه وخلفه وحوله دون توقف. فهو - الأب ياناروس- يعرف جيدًا هذه الجبال الصحراوية. ليس فيها سوى صخور وحصى! لا شجرة خضراء ولا قطيع حيوان ولا قرية ولا إنسان. على مرمى الأفق لا ترى سوى تعريشات شوكية ملبدة من نبات الخلنج والزعتر، خاطرت في هذا الوقت من أبريل فأبرزت بين أشواكها بعض الزهور القليلة الهزيلة. وفي أعلى، تسيح الغربان في الجو. وفوقها تعلو السحب. وأعلى من ذلك النسور. وفي أعلى الأعالي، فوق النسور، الرب.

وهمس الأب ياناروس وهو يهز رأسه التي دبغتها الشمس والمطر:

- حصى وصحراء وجوع، هذه أنت أيتها اليونان المسكينة! حصى وصحراء وجوع ودم!

وتنهد وعاد يجيل نظره في السفوح من جبل لآخر، كأنما يربّت برقة وحب وإعزاز على ظهر اليونان، وكأنما اليونان تنتفض في سعادة وتستعيد حياتها تحت لمسات عيني هذا المحب. وضغط الأب ياناروس بذقنه على طرف عكازه. وتصاعدت في داخله ذكريات كثيرة، انتفخ لها قلبه فاهتز وتطلع إلى الفرار من صدره العتيق.

وخاطبه المكافح العجوز كأنه عصفور مدلل يحفظه في قفص ليسمع تغريده: «أين ستذهب؟ أين ستذهب أيها العصفور الصغير الذي لا يعقل؟ إنك هنا على ما يرام، فاسكن مكانك.».

لكن الذكريات تصاعدت، واستمر القلب يدق قضبان هذا القفص يحاول الفرار. منذ وقت غير طويل، امتلأت هذه الجبال بالجنود يلبسون الإزار الوطني[7]. كم من الهجمات قاموا بها! كم من الصياح وكم من الفرح وكم من الهياج! روح الإنسان ضللت الموت وأذلته. والعذراء البتول حملت السلاح هي أيضًا. استبدلت ملابسها السوداء بمعطف يوناني من الصوف الكث وجوارب بنفسجية من النوع الذي تلبسه الفلاحات، وغطت شعرها الأشيب بطاقية صوفية عالية كأنها خوذة حرب، وسارت على رأس جيوش يونانية تستنفرها بالصياح نحو الشمال، نحو فالونا والشهداء الأربعين. وكانت تجري وتصيح في أحلام الجنود ليلًا، وفي الشمس والسحاب نهارًا، وتذرع الجبال وتنقل المدافع على ظهرها وتوزع الخبز والذخيرة على المحاربين وتروي غلتهم بالماء البارد من جرتها التي لا تفرغ. وفي إحدى الأمسيات رآها الأب ياناروس بنفسه تحمل على صدرها جنديًا جريحًا.

لم تكن المعركة قد توقفت حين عبرت الخطوط الأولى تحت وابل من القنابل وذهبت تحمله وتبتسم له في رقة. وفي يوم آخر- يوم الجمعة- شاهد القديس جرجس أشجع الشجعان يعدو بحصانه الأبيض وشعره يطير مع الريح، وعلى ردف الجواد جلست شابة تسقيه من إبريق ذهبي، شعرها يضرب إلى السواد، وعيناها واسعتان، هي اليونان. وكان قد انتهى لتوه من قتل المسخ، الفارس الأشقر، ورمحه لا يزال يقطر دمًا أسود. ثم اختطف الأميرة الخالدة ووضعها خلفه على ردف جواده الجسور ليحملها إلى الشمال أيضًا، إلى فالونا والشهداء الأربعين. وكانت كل اليونان، ما ظهر منها وما خفي، تتآخى في جبال إيبر، وتختلط الأرواح بالأجساد، تطارد الغازي الغادر من جبل لآخر وتخلص أرض الوطن المقدسة.

وانشق قلب الأب ياناروس. فقد بدت له اليونان فجأة مثل قديسة تستشهد راقدة أمامه في ضوء القمر خرساء تمزقها الجروح.

وصاح:

- أيها اليونان الشقية! لست سوى مجد وجوع. لست سوى روح وقدماك في رأسك. لكن يجب ألا تموتي يا أمنا. فلن نتركك. وهز رأسه وأمسك بالعصا وغرزها بشدة في الأرض كأنما يقسم يمينًا. وجال بنظره مرة أخرى خلال الجبال الجرداء وقطع الحجارة والأخاديد التي ارتوت بالدم الغزير. واستولى عليه خوف قدسي. وهمس:

- ها هنا ولد الرب. رب اليونان. ربنا نحن الذي كان يلبس الإزار الوطني والزحاف التركي المدندش. هنا على هذه الجبال الموحشة. صنع خالقنا من هذه الأحجار المخضبة بالدم. لكل شعب ربه. وهذا هو ربنا الذي نعبده. قطعة من أحجارنا ودم من دمائنا. معذب تغطيه الجروح عنيد مثلنا وخالد.

وانحنى يلتقط قطعة من حجر تميل إلى اللون الأسود، كانت لا تزال ملطخة بدم لم يجف، وقبَّلها ووضعها في حفرة بين صخرتين، كي لا يدوسها أحد، كأنها قربان مقدس. وأحاط به المجهول فجأة يحس بحضوره ثقيلًا كالصخرة، ويفوح عبيره كنبات الزعتر. امتلأت قمم الجبال المهجورة بالرب، وصهل قلب الأب ياناروس كما يصهل الجواد. لم يكن وحيدًا مقطوعًا في هذا العالم، لكن الرب كان يصاحبه. وسرت في قلبه وفي يده قوة كونية أمدته بطفرة جديدة.

وبدأت الأحجار تتدحرج مرة أخرى تحت حذائه ذي الحديد. وأخذ يتشمم الجو بمنخريه وهو يتسلق الجبل. في السنوات السابقة، كانت القرية تفوح يوم سبت النور برائحة الخبز الطازج، وعتبات المنازل تلمع لأن ربات البيوت لم يكنَّ يتوقفن لحظة عن الدخول والخروج في اضطراب شديد، يحملن السلال المليئة بالبيض الأحمر وفطائر العيد. كم كانت سعادتنا في ذلك الوقت! كان الفلاحون يزهزهون ويلبسون أحسن ما عندهم. طوال العام يكون منظرهم كالذئاب أو الحيوانات المفترسة. لكنهم في ذلك اليوم يتجملون ويقوم فيهم المسيح حقًّا فيصبحون بشرًا. كان الأب ياناروس ينجز القيامة بأقصى سرعة في كاستللوس. ثم يطير فوق الجبل دون أن يضيع لحظة يحمل البطرشيل تحت ذراعه ويشمر رداءه الأسود، ويصل على شاليكا في الفجر، فيقيم فيها المسيح ويرحل مرة أخرى وهو يجري أيضًا في الطريق إلى براستوفا. وأخيرًا يصل إليها عند

بزوغ الشمس لاهثًا يتصبب عرقًا. وتسطع الأضواء في الكنيسة الصغيرة هناك، والشهداء يضحكون في الصور المنقوشة على الجدران، والمسيح ينتظر الأب ياناروس، وينحني الأب ياناروس يقبله ويرفعه من القبر. يأخذه بين ذراعيه بخفة شديدة وبرقة لا حد لها كأنه ابنه الميت، ويقرأ عليه التعاويذ المقدسة التي تعود به من مملكة الموت. ثم يفتح الإنجيل الفضي الثقيل ويصعد على المنصة القائمة في فناء الكنيسة ويبدأ الترتيل بصوت جهوري:

«في أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية إلى القبر باكرًا والظلام باق».

وتخرج من الصدور في نفس اللحظة صرخة: «المسيح قام!».

ومرة أخرى تشتعل كل الشموع وتفيض الأضواء بشدة، وتلمع الشوارب والأسنان والأعين والشعور، ويتعانق كل الناس. ويتصبب الأب ياناروس عرقًا ويشعر بالإرهاق والسعادة. ويطوي البطرشيل ويشمر رداءه الكهنوتي ويعود إلى كاستللوس مع الشمس.

وتنهد وقال لنفسه:

- ما أبعد هذه السنين! أين القسيس الذي يطير بأجنحة بيضاء ليقيم المسيح حيثما يقف؟ وأين المسيحيون الذين يتعانقون في ضوء الشموع! ما أبعد هذا كله! أصبح الناس لا يفكرون إلا في أن يذبح بعضهم بعضًا.

وبدأ يشعر بتثاقل ساقيه. وأصابه التعب. كان قد وصل إلى منتصف جانب الجبل أمام معبد مهجور للقديس يوحنا الرسول. وتأمل أنقاضه وفمه يفيض سمًا. منذ أيام قليلة جرت ها هنا معارك. تنازع الحمر والسود هذه الكنيسة، فقذفها الجانبان بالقنابل، كل جانب بدوره. وانهار أكثر من سقف وجدار، وأصبحت الأيقونات البيزنطية تبدو معلقة في الهواء. ودخل الأب ياناروس يخطو بين ركام الأنقاض وعوارض الخشب التي التصق بها الجبس. ووقف في وسطها وانحنى كأنما يقبل العدم. كانت صور المسيح والعذراء في زاوية الهيكل قد تقشرت وسقطت على المائدة المقدسة فاجتمعت منها كومة من الألوان والجبس. الجزء الوحيد من الجدران الذي بقي سليمًا لم يمس هو الذي نقشت عليه صورة الرسول أصفر اللون بارز العظام لحيته مشعثة يكسوه جلد خروف. ومع ذلك استطاعت قنبلة أن تبقر بطن الرسول ذي الشكل البدائي، وأن تكشف أحشاءه: الجير والتراب والحجارة. فإذا هبت عليه نسمة بسيطة أو سقط فوقه مطر، سينهار كله فلا تبقى سوى أطراف قدميه في أسفل الجدار على قطعة مرسومة من نهر الأردن.

كان هناك قطعتان من الخشب لحمل الشموع لا يزال الدخان يتصاعد منهما. أما المحراب فقد تحول إلى فحم، ومعه الكرمة العتيقة المنحوتة بدقة رائعة من الخشب المذهب. وحملق الأب ياناروس في الرسول الذي بقرت بطنه، وفاض قلبه بالسخط، فقال:

- لأنصرف قبل أن أقول كفرًا! فلست أحتمل. أنت أيها الرب قادر على كل شيء، ثم تقبل ما يحدث؟ أما أنا فلا أقبل!

وشعر بأن كلمات التجديف أصبحت على طرف لسانه، فاستدار بسرعة ومضى متعجلًا يدوس فوق ركام الأنقاض. وتجول في البناء حتى وقف أمام الجدار الشمالي. ورأى بقعًا كبيرة من الدم.

واقترب منها. هذا دم واضح، فيه بعض الشعر النسائي، تلتصق به هنا وهناك قطع ملطوخة من مخ إنسان. وامتلأت عينا الأب ياناروس بالدموع. وثارت نفسه، فمسح دموعه بيديه الكبيرتين وكتم بكاءه. لكنه لم يستطع أن ينزع عينيه عن الجدار. فقد كان هو نفسه الذي سمع منهن الاعتراف وقدم لهن المناولة الأخيرة أول أمس في هذه الكنيسة المهجورة. وفي لحظة عابرة من لحظات الجبن، صور له الضعف أن ينصرف. لكنه خجل من نفسه، فبقي ليحضر الإعدام.

كان عددهن سبعًا: ثلاث عجائز وأربع شابات. أبلغ عنهن راهب من رهبان جبل آتوس. يبدو أنهن كن يتعاونَّ مع الأنصار، ففاجأهن في إحدى الليالي يتسلقن الجبل ومآزرهن مليئة بالخبز والجبن والجوارب الكبيرة والملابس الصوفية التي اشتغلنها بالإبرة خفية أثناء ليالي الشتاء ليقدمنها للمتمردين. ووضعوهن في صف واحد لصق الحائط. وكان الجاويش ميتروس هو الذي يأمر فرقة التنفيذ. وهو روميلي طيب، هادئ غير خبيث. أبيض القلب، لا يفكر إلا في زوجته الصغيرة وطفله الرضيع هناك في إحدى القرى بالقرب من كاربنيسي. لكن في ذلك اليوم، التوت شفتاه واحتقنت عيناه بالدم. أعطوه سبع نساء لإعدامهن، فقد صوابه. يقال إنه شعر بوخزات التأنيب في قلبه، فاستوحش ولجأ إلى الصراخ والعنف ليغطي صوت قلبه فلا يسمعه. وعندما وجه الكلمات إلى النساء السبع الواقفات في صف واحد لصق الحائط، أصيب الأب ياناروس بالذعر. ذلك أن الصوت الذي سمعه لم يعد صوت الجاويش بل صوت وحش قديم استيقظ وأخذ يهز شعر رأسه ويزمجر في صدر الروميلي الطيب:

- يا بلاشفة، يا مومسات، سأسلخ جلودكن! هيا، بسرعة! هل عندكن شيء يقال؟

وأجابت العجائز:

- لا شيء.. لا شيء.. لا شيء..

ورفعت الرابعة رأسها. كريسولا ذات الثمانية عشر عامًا، مدرسة قرية براستوفا. وانتشر شعرها على كتفين عاريتين مزقتهما ضربات السوط.

وقالت:

- أنا عندي كلمة!

- تكلمي يا عاهرة!

- تحيا اليونان!

وفي هذه اللحظة بدأ السبعة ينشدن معًا بصوت واحد: «من بين العظام المقدسة...».

لكن لم يستطعن أن يكملن النشيد الوطني، فقد عوى الجاويش:

- أطلقوا النار!

وتلطخ الجدار بالدم وقطع المخ.

استرجع القسيس هذا المشهد، فرسم علامة الصليب ثم قبل قطرات الدم المتجمدة وقال هامسًا:

- لا أريد أن أعرف من يكون على حق. أنا لا أعرف شيئًا. فأنا عجوز، فقدت صوابي، ومع ذلك فقلبي الذي انخلع يصيح: من يدري؟ من يدري؟ لعل اليوم يأتي ليشيّدوا مرة أخرى كنيسة جديدة على أنقاض كنيسة القديس يوحنا الرسول ينذرونها للرسولات السبع؟

وظل يفكر لحظة، ثم انحنى والتقط قطعة فحم وعاد إلى الداخل:

- سأكتب أسماءهن على الجدار.

وعلى الجدار الأبيض الذي بقي بجانب يوحنا الرسول بدأ يكتب بحروف كبيرة واسعة وعالية جدًا:

بلاجيا – فروسو – آريتي – كريسولا – كاترينا – مارتا – ديسبينو.

- ماذا تنقش على الجدار يا أبي؟ كلمات تذكارية؟

وقفز القسيس إلى الأرض فجأة بعيدًا عن الرسولات السبع. كانت تقف خلفه امرأة تشبه الفارسة، حاجباها مرسومان، لكنها تتخذ شكلًا أقرب إلى الرجال، ترتدي ثياب راهبة وتضع على رأسها بيريه من المخمل الأسود تفلت منه جزلة من الشعر الأصفر المجعَّد. وكان القمر يعكس في عينيها أضواء زرقاء وخضراء وصفراء، كتلك التي تظهر في عيون النمرات. وعرفها الأب ياناروس، فقطب حاجبيه:

- ماذا تفعلين هنا يا سيدتي زوجة القومندان؟ أين تذهبين؟

- إلى الجبل. ألا تتابع الأخبار يا أبي؟ أنا أحمل خطابات ورسائل إلى الرفاق.

واكتسب صوتها نغمة ساخرة وهي تقول:

- ألا تباركني يا أبي؟

ورفع القسيس ذراعه وخفضه تعبيرًا عن الغضب:

- لتكونوا جميعًا مباركين ولتكونوا ملعونين طالما كنتم في اليمين أو في اليسار. لماذا هجرت بيت زوجك أيتها المرأة الفاجرة؟ أي شيطان ركبك؟

وانفجرت المرأة بالضحك:

- أنت تسميه شيطانًا. لكن أنا أسميه «الحرية».

- الحرية بلا فضيلة ولا عفة تأتي من الشيطان! وإلا فهل تتمثل الحرية في هجرة الزوج وحرق القرى والقتل؟ أنا لا أفهمها بهذا المعنى.

- أنت تزداد شيخوخة يا أب ياناروس. العالم يتقدم، وقد تخطاك. فلن تستطيع أن تفهم. على كل حال ليس عندي وقت لأناقشك. فواجبنا نحن أن نعمل. الوداع أيها المبجل.

وعادت المرأة تضحك. وابتعدت في الطريق الضيق تقفز برشاقة من صخرة لأخرى. وبعد لحظة، وقفت وخلعت البيريه لتجفف جبهتها، فتهدل شعرها على كتفيها.

وصاحت مرة أخرى:

- اخلص منهم يا أب ياناروس. هذا الدور أصبح لنا!

ونظر إليها الأب ياناروس تصعد خفيفة بين الصخور حتى اختفت عن ناظريه. وفقد كل إحساس بالزمان أو المكان. وقال لنفسه هامسًا:

«يا للقوة، يا لفرحة القلب، يا للشباب! كيف يمكن أن أطلب من امرأة لها مثل هذا الجسد أن تتمسك بالفضيلة؟ فلنتركها أولًا تنفث لهيبها وتبتلع العالم حتى يمتلئ فمها بالرماد! ثم أخيرًا، ومن خلال بقايا الحريق، تأتي الفضيلة والعفة».

وتذكر يوم وصلت هذه المرأة إلى كاستللوس في العام الماضي. كم كانت انفعالاتها شديدة وهي تقبِّل زوجها أمام أهل القرية الذين خرجوا للترحيب بها. ثم كيف رفعها القومندان بين ذراعيه وقد رقَّت عيناه فجأة وامتلأتا بالدموع! ومر شهران، ثم ثلاثة. وفي إحدى الليالي عاد القومندان من المعركة فوجد البيت خاليًا. رحلت زوجته إلى الجبل لتلتحق بالأنصار. يبدو أن عينيها شاهدتا أشياء كثيرة ودماء كثيرة ومذابح وأعمالًا عنيفة.. فلم تعد تحتمل، ورحلت. وتركت على المائدة ورقة صغيرة بها:

«لم أعد أستطيع أن أعيش معك. أنا راحلة..».

وفي أسفلها كلمات أخرى:

«لا تنتقم من الأبرياء العزل كعادتك. لتبق إنسانًا!».

وقرأ القومندان الرسالة مرة ومرات دون أن ينبس بكلمة. فقط كان يعض على شفتيه ويرتعد. وكان الوقت ليلًا. أراد أن يذهب إلى البوابة لينظر في الخارج، لكنه تعثر وسقط بطوله على العتبة. لم يشعر بأي ألم. لكنه لم ينهض. جلس ببساطة وأسند ظهره على الحائط وأشعل سيجارة.

كان ذلك في يناير والبرد يخترق الجسد، والفناء مغطى بالثلج. لكن القومندان كان يشتعل. لم يكن يفكر في شيء. ظل ينظر إلى السماء بعينين غائبتين. وفي الصباح الباكر، وجده الجاويش ميتروس نائمًا على البوابة وقد تدلت من شاربه قطع كبيرة من الثلج. وفتح عينيه ونهض دون كلمة. ونحَّى اليد التي مدها إليه ميتروس، واتجه نحو الكنيسة. ودخل وأغلق الباب بالمزلاج ثم أشعل شمعة. كان الجاويش قد اقتفى أثره، خشية أن يعجز عن الاحتمال. وتابعه من ثقب الباب. غرز الشمعة أمام تمثال العذراء، وظل ينظر إليها طويلًا حتى غامت عيناه. وإذ ذاك نفخ فيها بشدة ليطفئها وصاح:

«لم يعد لي امرأة أيتها العذراء البتول! كانت ضوءًا صغيرًا يشتعل، والآن انطفأت».

ومنذ ذلك اليوم لم يرخ فكيه عن أسنانه، وامتلأ وجهه بالظلام وروحه بالحقد الأسود وعيناه بالدم، وأصبح الموت أمنيته الوحيدة. في كل التحام يصعد إلى الصف الأول ويحارب على قدميه

مكشوفًا، لكنه في كل مرة يفلت حيًا ويائسًا.

واختفت زوجة القومندان تمامًا عن نظر الأب ياناروس، فرفع يديه نحو السماء يهمس:

- ليبسط الرب يده على الأخيار والأشرار، على الأبرار والخطاة. لسنا سوى بشر ضعفاء مساكين. فيجب أن يكون رحيمًا معنا. فنحن لا نفهم ما يحدث لنا. ألا يتخذ إبليس كثيرًا صورة الله ليضلنا؟ لكن عيوننا صنعت من التراب والدموع، صنعت من الطين. فكيف تستطيع أن تميز الأشياء؟ امسح، يا إلهي، امسح!

وشعر بالراحة، كأنما استطاع بكلماته هذه أن يضع قطعة إسفنج بين يدي الرب، وأن يجعل الرب يمسح بها خطايا البشر.

والتفت للمرة الأخيرة نحو الأسماء السبعة التي خطَّها على الجدار، ورسم علامة الصليب، واستأنف طريقه نحو القمة.

وكلما اقترب من مقصده رأى النيران التي يشعلها الأنصار أمام مغاراتهم تزداد حجمًا، وسمع أصواتهم وقهقهاتهم بوضوح أكثر. كان القمر قد بدأ ينحدر. وأصبحت الصيحات الصادرة من معسكر المتمردين أكثر وحشية. واستطاع الأب ياناروس في هذه اللحظة أن يميز ظلالًا يبدو أنها ترقص أمام النيران. ودق قلبه العجوز بشدة، وعاد يتساءل:

هل كان يجب أم لا؟ هل اتخذ القرار السليم؟ إن الله تركه حرًا. وقد اختار.. في تلك اللحظة السابقة، كان على يقين أنه اختار الطريق السليم. أما الآن وهو يقترب من غايته، فقد غاصت ركبتاه وترددت في أعماقه أصوات جديدة: حذار يا أب ياناروس، فسوف تقدم نفسك لقمة سائغة. كيف تستطيع أن تثق في أناس لا يؤمنون بالله؟

وتردد صوت أحجار تتدحرج. واستدار الأب ياناروس. كان راعي غنم ينظر إليه. وجهه متوحش وساقاه ملتويتان والشمس لوَّحت جسده كله. عيناه عينا وحش مذعور تشبهان بليتين متحركتين. وكان يتدثر بجلد ماعز ويضع على رأسه قلنسوة مستديرة أصبحت سوداء من القذارة، ذات دندشة مهلهلة مبطنة بالصوف الأزرق. وعرفه الأب ياناروس، فقال وهو يقطِّب حاجبيه:

- أهلًا ديموس. ماذا تفعل هنا؟ أين تذهب؟

وتفحّصه ديموس بعين القروي الخبيث ولم يجب...

- هل تستطيع أن تقول لي، لماذا بحق الشيطان تركت القرية وهربت إلى الجبل؟

واستقر رأي الراعي على أن يفتح فمه:

- أي قرية؟ لم تعد موجودة. نتيجة الطائرات والبيريه الأسود وغيرها أصبحت فعلًا مثل صحراء العرب. هنا وهناك يتسكع في الخرائب أناس يحاولون أن يعثروا على بيوتهم. أي بيوت؟ يدقون الأوتاد ويمدون الخيوط ثم يقولون: هنا كان بيتي. لكن آخرين يصخبون: لا، بل أبعد من ذلك. وهناك فوقها يتمرغون على التراب. والقليلون الذين يبقون على قيد الحياة يذبح بعضهم بعضًا. العالم كله يذهب إلى الشيطان. انتهى كل شيء ضاعت اليونان.

وقاطعه القسيس رافعًا عصاه:

- كفى! ليس من اختصاصك أنت أن تحكم على ذلك. اليونان ضاعت؟ وماذا تعرف في ذلك؟ ما أشقاك!

وهرش الراعي رأسه وصمت. وارتسم تعبير الازدراء على وجهه المدبب الذي يشبه وجه ابن آوى، لكنه كان يتابع بطرف عينه الأب ياناروس وعصاه.

وقال القسيس بصوت أكثر رقة:

- حسنًا، ارجع إلى عملك يا ديموس لا تحشر نفسك في اليسار ولا في اليمين، ولا تجعل نفسك عبدًا لأحد. لقد أعطاك الله روحًا حرة، اذهب وابحث عن العنزات التي ترعاها.

- أي عنزات؟ هل أنت مجنون يا أبي؟ الدنيا تنهار هنا وأنت لا تدرك ذلك! أنت تكلمني هنا عن الماعز؟ نصفها أخذه الحمر لأنهم كانوا جوعى، والنصف الآخر أخذه السود لأنهم أيضًا كانوا جوعى. ولم تبق لي سوى العصا التي أهش بها، ولهذا أخذت أنا أيضًا طريق الجبل.

أيام معدودة فقط كانت كافية لتغير حياة ديموس كلها. بعد أن فقد القطيع، أصبحت روحه حرة. شعر بأنه خفيف، فأصبح فدائيًا.

- أنت تذهب إلى المتمردين؟ أي شيطان يركبك يا ديموس؟ هل تريد إذن أن تبدأ في القتل؟

- يبدو ذلك.

- ولماذا، من فضلك؟

- لأن القائد على الجبل سيأمرني بذلك.

- وأنا أيضًا قائد وأقول لك: لا تقتل!

- ذلك إذن حتى يتمكن الآخرون من قتلي! تريد أن أمد رقبتي لأستحق إكليل الشهداء؟ هذه الكمثرى موزعة اليوم بالعدل: إما أن تقتل وإما أن يقتلوك. ومهما يكن رأيك، فأم القاتل تكون أحسن حالًا من أم القتيل...

- لكن لماذا اخترت الأنصار؟ إنهم أيضًا يتعرضون للقتل.

- ذهبت مع الفقراء والمقهورين، فأنا أيضًا فقير ومظلوم.

- لكن من الذي ملأ رأسك بهذه الخرافات يا ديموس؟ أنت قبل ذلك لم تكن سوى تيس. كنت تمأمئ ولا تستطيع أن تتكلم.

- بدأت أتكلم يا أبي. هل تعتقد أن الإنسان يظل يمأمئ إلى الأبد؟

واقترب من القسيس، وقد ألقى الدثار الجلدي على كتفه بطريقة عسكرية ووقف يتحداه بنظراته ساخرًا. لكن بقيت في حلقه كلمة قاطعة كالفولاذ. هل يقولها أم لا؟

كان لا يزال يفتقد الجرأة، لكنه لم يملك نفسه، فقال وصوته يمأمئ تمامًا كصوت التيس:

- لو كنت أنا أنت، لاشتركت في الرقصة بإرادتي، وإلا فسوف يجعلونك ترقص بالقوة كالدب الذي يرقص في السوق.

ثم قفز جانبًا ليتجنب عصا القسيس، واختفى بين ركام الجبل.

وظل الأب ياناروس واقفًا فاغرًا فاه، يقول وهو ثائر يلعن نفسه:

- هاك ما وصلت إليه يا أب ياناروس يا مسكين. حتى رعاة الماعز يعطونك الدروس!

واستأنف السير، لكن الفرحة اختفت من قلبه، وبدا له الطريق إلى أعلى بغير نهاية.

كان قد كافح كثيرًا طوال النهار ثم طوال الليل! لكنه مجرد بشر، لهذا شعر بالإرهاق.

وفجأة أرهف أذنه، فقد خيل إليه أنه سمع صوت ابنه، وشعر بالخوف، وقال لنفسه وهو يرتعد:

«بعد لحظة سأراه. بعد لحظة سيقف أمامي عريضًا كثيف الشعر ضخم الأطراف ممتلئ الفم بالضحك والسباب. يا إلهي، كيف استطاع مثل هذا الشيطان أن يخرج من صلبي؟ ماذا أتى يفعل في الدنيا؟ ولماذا خلقته يا إلهي؟ لأي رسالة خفية؟ حين أفكر في أن ألعنه، أخاف. وحين أفكر في أن أباركه، أخاف أيضًا. ما هو هذا الوحش إذن؟ البيت الذي ولد فيه لم يتسع له ففتح الباب في إحدى الليالي وخرج يجري في عرض العالم. وانغمس في الخطيئة وعاشر النساء والأفكار، وأنكر وجود الله، وأنكر الوطن وأنكر حتى اسم أبيه، وأصبح الكابتن دراكوس الذي استقر على قمة النسور بالحديد والنار. والآن- وهل هذا ممكن يا إلهي؟- أسلم إليه القرية بنفسي بأرواح سكانها وحياتهم وشرفهم».

وتنهد. ومرة أخرى شعر بقلبه يدق صدره يحاول أن يفلت منه. بدا له أن من أصعب الأشياء وأثقلها أن تكون إنسانًا. الله في علاه يدفعك دفعًا إلى الحرية، كالنسر العجوز الذي يدفع فراخه عن العش ولم تبلغ سن النضج: «طيري إذا استطعت، وإلا سقطت وسحقت عظامك!» ويصيح فرخ النسر: «يا أبي، انتظر قليلًا، فجناحاي لم يستكملا القوة بعد. لماذا لا تنتظر؟» ويجيب النسر العجوز وهو يدفع فرخه دفعًا سريعًا إلى الفضاء: «كفى تعلقًا بي، فأنت حر!».

- نعم. أنا أشكو إليك يا رب. لماذا زودتني بسلاح ذي حدين؟ لماذا أعطيتني الحرية إذا كان لا بد أن نفتديها بالخطيئة؟ وبأي سعادة أو ارتياح أستطيع أن أتبع أوامرك: افعل هذا ولا تفعل ذاك! لقد كنت أعرف من قبل ماذا تريد فأعيش وأسلك وأريد عن يقين! أما الآن فالأشياء كلها تحولت إلى عماء، وأصبح واجبي المحتوم- أنا الدودة الصغيرة- أن أضع فيها النظام.

- 13 -

- هذا هو الأبياناروس! مرحبًا بالرجل الشجاع!

وتقدم الأبياناروس بخطوات مترددة، يتحسس لحيته ويجيل النظر حوله. رأى عددًا لا حصر له من الفتيان يقفزون حول النيران ويغنون، مثقلين بالبنادق وأشرطة الرصاص، يضعون أيديهم على أكتاف فتيات مدججات هن أيضًا بالسلاح يعقدن حول رقابهن مناديل حمراء.

كانت قمة الجبل تشتعل نارًا وتفيض بالضوء والفرح، والوجوه كأنما تعبر عن قيام المنقذ. ولم يستطع الأب ياناروس أن يمسك نفسه عن الاستمرار في تأملهم: «يا للنفوس! يا للأجساد! يا للشباب! ارحمني يا إلهي، فأنا لا أستطيع أن أفهم ذلك. هل حقًا بلغ بي الكبر عتيًا؟ هل قلبي المريض عاجز لا ينفتح؟».

وعاد يجيل النظر هنا وهناك. وجوه الفتيان تكاد تكون غير حليقة وغير مغتسلة. شعورهم ملبدة ولحاهم مرسلة. منظرهم يبعث الخوف والرعدة! عينات من كل نوع: عمال وفلاحون ومدرسون وطلبة ورعاة. رجال ونساء. فتيات كثيرات. ترى هل تركن الديار وأطلقن الشعور ووضعن البيريه الأحمر على الرؤوس وشاركن الرجال الجوع والقمل والموت، حبًا في الخطر أم رغبة في الحرية؟

وهن يشتغلن بالطبخ وغسل الملابس وينقلن الجرحى ويقمن بالإسعافات، ويشتركن في عمليات الهجوم، والبنادق دائمًا في أيديهن. ويهبطن خفية إلى القرى المحتلة لينقلن التبليغات إلى الرفاق الذين يعملون سرًا، ويتبادلون الرسائل معهم، ويخاطرن في سبيل ذلك بالحياة دون اكتراث. والرجال يرون الفتيات الصغيرات يحتملن الجوع والبرد ويقاتلن ويمتن بهذه الدرجة من الشجاعة فينافسونهن البطولة ويحاولون أن يتفوقوا عليهن.

ولم يملك الأب ياناروس نفسه من الشعور بنوع من الفخر وهو يرى الجميع يرقصون حول النار برؤوس عالية. «آه! ألا ليت الشباب يستطيع أن يعود! وليتني أستطيع أن أخلع حذائي وأقفز في اللهب من جديد بساعدين ممدودين، فأدخل في رهط الملائكة!».

ولم يستطع أن يمسك نفسه، فصاح يرد عليهم ويمد لهم يديه:

- تحياتي أيها الأصدقاء!

واستمر يقترب منهم. وصدمت أنفه رائحة شديدة: رائحة حجلان مشوية ورائحة العرق والجنس. وفجأة تقدم منه شاب أشقر سمين ذو شارب كث يضع في قدميه نعلًا مدندشًا. أمسك به من ذراعه الأيمن وجذبه إلى حلقة الرقص، بينما أمسك بذراعه الأيسر شابان آخران.

- مرحبًا أيها الرجل الشجاع! ها هو الأب ياناروس أتى يرقص معنا! تقدم يا رجل، وشمر رداءك!

وانكفأ الأب ياناروس على عصاه يقاوم على قدر ما يستطيع. وصاح:

- ولماذا ترقصون يا أصدقائي؟ دعوني! حسنًا، موافق، سأرقص، لكن قولوا لي أولًا لماذا. هل تحتفلون بخبر سعيد؟ هل أخيرًا سكت المدفع، فم الشيطان؟ هل أخيرًا تصالح الإخوة وفتحوا عيونهم؟ تكلموا أيها الأصدقاء ولا تعذبوني.

وأخذ الفتية يضحكون. وصاح أليكوس الأعرج الذي فر من الجيش يقول في حماس:

- إخوتنا في الصين اكتسحوا السهل وقلبوا المدن وحرروا ملايين العبيد. وصلوا إلى النهر الأصفر. العصافير أبلغتنا بهذا الخبر منذ لحظة.

- يقول من أيها الأصدقاء؟ لا أستطيع أن أسمع جيدًا، فأذناي تمتلئان بالطنين بعد أن تسلقت هذا الارتفاع الشاهق. يقول من؟

- يقول الصينيين أيها الأب. الصينيون حلفاؤنا وإخوتنا. تعال اقترب. ارفع رداءك وتعال ارقص معنا.

- الصينيون هم الآن إخوتنا؟ وماذا يهمنا هذا الذي يجري في الطرف الأقصى من العالم؟ أجدر بنا أن نروي حديقتنا هنا!

وتدخل مدرس قرية شاليكا الذي انضم هو أيضًا إلى الجبل:

- إنهم إخوتنا. العالم لم تعد له أطراف. أصبحنا جميعًا بيتًا واحدًا له حديقة واحدة. كل المقهورين إخوتنا، ولنا جميعًا أب واحد.

- أي أب؟

- لينين.

- وماذا عن المسيح؟

وانفجر المدرس ضاحكًا:

- اقلب هذه الصفحة أيها المبجل. فقد ظهر بعد أناجيل متى ومرقص ولوقا ويوحنا إنجيل خامس: الإنجيل المقدس على لسان لينين. تستطيع أن ترى فيه أنه لم يعد يوجد يونانيون ولا بلغاريون ولا صينيون، فقط إخوة. كل المضطهدين والمقهورين والجائعين والظامئين إلى العدل إخوة، سواء كانوا ذوي بشرة صفراء أو سوداء أو بيضاء. افتح قلبك يا أب ياناروس، إن فيه للجميع مكانًا، فلا تبخل بالحب على أحد:

وامتدت إلى كتف الأب ياناروس يد رجل قصير ملبد الشعر له لحية حمراء، يلف حول رأسه عصابة سوداء ويعلق على صدره ناب خنزير بري، تعويذة حظ، جذبه إلى الحلقة وصاح:

- إلى رقصة الزيكيكو أيها الأب. اضرب بقدمك أيها المبجل. اضرب الأرض التي ستبتلعنا جميعًا. عيد القيامة أوشك. المسيح قام. الشعب قام من الأموات!

والتفت الرجل إلى رفاقه قائلًا:

- هيا أيها الفتية، كلنا معًا. النشيد.

وانفجر الجمع المحتشد حول النيران بوجوه خشنة منتصرة، يرتل في صوت واحد ترتيلة القيامة الجديدة:

«هزم الشعب القبور. قام من الأموات».

وقال المدرس:

- ها أنت ترى أيها المبجل أننا لم نحدث تغييرًا كبيرًا. فالمسيح أصبح «الشعب». وهذا في الحقيقة نفس الشيء. ففي هذه الأيام نطلق على الرب اسم الشعب.

وقاطعه الأب غاضبًا:

- الشعب ليس الرب! يا مصيبتنا إذا كان الأمر كذلك.

وأجاب المدرس:

- يا مصيبتنا إذا كان الأمر غير ذلك بالنسبة لهذا الذي تتكلم عنه.

هذا الذي يرى الأطفال يموتون جوعًا ثم لا يحرك إصبعًا صغيرًا.

وصاح شاب متحمس يلوح للقسيس بيده كما لو كان هو المجرم:

- طالما وجد أطفال جوعى، كيف تتكلم عن الرب؟

وسكت الأب ياناروس، كان يستطيع أن يقول الكثير دفاعًا عن الرب، لكنه آثر أن يصمت. فمن ذا يملك القدرة على معارضة الزلازل والنيران والشباب؟ ونظر إلى الأولاد يشتعلون نارًا، والفتيات يضربن الأرض بأقدامهن كالجياد، وحاول بأقصى ما يستطيع أن يفهم ما يراه. وفكر في نفسه قائلًا:

- سامحني يارب! هل هذا دين جديد؟ لكن كيف يستطيع قلب الإنسان أن يكبر هكذا فجأة؟ في الماضي لم يكن القلب يحتوي سوى الأسرة والأب والأم والأخ والأخوات. كان صغيرًا جدًا مغلقًا مشدودًا بخيوط متينة. كان يستطيع في أحسن الأحوال أن يتسع لجانينا وإيبريا، ثم على الأكثر مقدونيا وروميليا وموريا والجزر، أقاليم اليونان، وفي بعض الأحيان يتسع أيضًا لمدينة إستنبول. لكن أكثر من ذلك لا شيء. ثم ها هو اليوم يتسع للعالم كله. ما هذا الغزو الجديد يا إلهي؟ هل يجب أن أرقص احتفالًا بالصينيين والهنود والزنوج؟ هذا ما لا أحتمل. قلبي لا يستطيع أن يذهب أبعد من اليونانيين. هل سبب هذا أن الشيخوخة أدركتني أنا الأب ياناروس الذي كنت أتحدى الشيخوخة وأفخر دائمًا بأني ابن العشرين عامًا؟

ومن الجانب الآخر نظر إليه الضابط لوكاس ذو المظهر الخشن:

ترى بماذا يحلم القسيس وهو يتكئ على عصاه؟

واقترب منه وقال له بصوت جهوري ساخر:

- لو كنت مكانك يا أبي، لحاولت أن أتجنب اللف الكثير في خط النار. فالرصاص ينتهي دائمًا بأن يصيب، سواء كان رصاصًا أحمر أو أسود. قرر، وتعال معنا. ستجد آلاف الفتية أمامك يحمونك. أما أن تستمر في الوقوف وحدك كما تفعل الآن، فهذ يؤدي بك إلى الهلاك.

وأجاب الأب ياناروس:

- أعلم يا ابني أنه أينما كان مركزي، فإن أحدًا لن يقف أمامي أبدًا ليحميني سوى الله. هكذا طبيعتي.

- سوف ترى يا أب ياناروس، أن الرب سيتخلى عنك ساعة الخطر.

فقال القسيس وهو يدق الحصى بطرف عصاه:

- أما أنا فلن أتخلى عنه! ومهما حدث، فسوف أقبض على طرف ثوبه لا أتركه.

وهز لوكاس كتفيه قائلًا وهو يضحك:

- سيتمزق الثوب ولا تبقى في يدك سوى خرقة ممزقة. أما صديقك الجميل- الرب- فيكون قد أفلت هاربًا. على كل حال، أنا أضيّع وقتي. فأنا أعرفك يا أب ياناروس.. لو عصروا جسمك بكلابة، لما غيرت رأيك.

وانفجر المدرس ضاحكًا يقول:

- لعابك يسيل عبثًا يا لوكاس. إن روح الأب ياناروس- وأرجو عدم المؤاخذة- تشبه كلبة كان المرحوم أبي يقتنيها لحماية الماشية.

وقالت شابة صغيرة في استنكار:

- كلبة؟

وقال آخر:

- يجب أن تخجل أيها المدرس. هذا العجوز رجل مقدس حتى لو لم يكن من رجالنا.

- لا تفقدوا أعصابكم أيها الرفاق. سأشرح لكم وستفهمون. أبي كان راعيًا وكنت أنا في ذلك الوقت لا أزال صغيرًا. لكن ما أرويه لكم أحدث في نفسي أثرًا رهيبًا لدرجة أنه حفر داخل رأسي. كان عندنا كلبة بيضاء تحمي الخراف القليلة التي نملكها. وكانت وحشًا مفترسًا حقًا. لكن في إحدى الليالي دخل الحظيرة ذئب. وجامع الكلبة. ومنذ ذلك الوقت أصبحت الكلبة تتركه كل ليلة يدخل دون أن تنبح، وبدأ أبي يلاحظ أن الخراف تختفي واحدًا بعد آخر، مع أن الكلبة دائمًا في الحظيرة ولا تنبح. كان يقول: «لا أستطيع أن أفهم السر في ذلك!». وفي إحدى الليالي حمل بندقية واختبأ في كمين. فماذا رأى؟ قرب منتصف الليل رأى الذئب يقفز إلى الحظيرة. والكلبة لا تنبس بصوت، بل ترفع رأسها وتهز ذيلها. واستعد الذئب للهجوم على الخراف عندما أطلق أبي النار عليه واندفع

نحوه وفي يده فأس. ويبدو أن الذئب جرح، لأنه فر وهو يعوي عواء شديدًا. وإذ ذاك أمسك أبي بعصا غليظة وضرب الكلبة ضربًا مبرحًا. كان يريد أول الأمر أن يقتلها، لكن أخذته الشفقة ففتح باب الحظيرة وألقاها في الخارج. وكان الفجر قد طلع، وانطلقت الكلبة وعواؤها يملأ المكان، حتى وصلت إلى قمة الجبل الذي يفصل بين القرية والغابة. هناك توقعت. أين تذهب؟ أمامها الذئاب ووراءها أبي بعصاه الغليظة، فحيثما تتجه سيكون هلاكها محققًا. ظلت ثلاثة أيام بلياليها تعوي بين الذئاب والخراف. ومرت السنوات ودخلت أنا في دور الشيخوخة، لكني لم أستطع أن أذكر عواءها يومًا دون أن أرتعد.

في اليوم الرابع سكنت الكلبة، وصعد ابي إلى القمة فوجدها قد نفقت.

وقالت الشابة الصغيرة:

- ثم ماذا أيها المدرس؟ ماذا تريد أن تقول؟

وأجاب المدرس في كلمات جادة:

- هذه الكلبة أيها الرفاق، هي روح الأب ياناروس. الروح التي تعوي أيضًا بين الحمر والسود. وسوف تنفق مثلها أيضًا. يا للروح المسكينة!

لم ينطق الأب ياناروس بكلمة، لكنه شعر كأن سكينًا أغمد في قلبه. وأحس بالضعف في تلك اللحظة. وقال لنفسه: «سأنفق إذن؟ ربما كان المدرس على صواب. ربما سأنفق وأنا أعوي بين الذئاب والخراف..» وارتعد جسمه كله، وانتابته وساوس سوداء، فقال:

- يا أصدقائي، دعوني أجلس، فأنا متعب.

وتهالك على قطعة كبيرة من الحجر..

خلال هذه الفترة توقف الأنصار عن الرقص، وجلسوا حول الأب ياناروس. وأخرج كثيرون من صدورهم رسائل وزعتها عليهم منذ فترة «سيدة القومندان»، أو كما أصبحوا يقولون عنها هم يغمزون بعيونهم «سيدة الكابتن». كان بعضهم يتهجون الكلمات، وآخرون ينادون المدرس لينقذهم.

وكان كوسماس، البائع المتجول، أول من طلب من المدرس أن يقرأ له. كان في وقت ما يملك محل تجارة أقمشة صغيرًا في بريفيزا، بالاشتراك مع أحد الأرمن. لكن الأرمني استهلك رأس مال المحل، وتحول كوسماس إلى بائع متجول. وعندما كان مالكًا، لم يكن يتوقف عن الهجوم على الشيوعيين: «يجب أن يقتلوا بالرصاص هؤلاء الأقذار الذين يبيعون المسيح والوطن ولا يفكرون إلا في نهب محلي!» لكنه بعد أن أصبح فقيرًا وقف هو أيضًا إلى جانب الحمر وأصبح يحلم بالقضاء على عالم الأرمن وعلى عدم المساواة. كان يقول: «الثري الشيوعي رجل مغفل، تمامًا كالفقير إذا لم يكن شيوعيًا» قال للمدرس وهو يستدعيه ليقرأ له رسالته:

- هيه أيها الأستاذ، لو كنت أنت الذي اتخذته شريكًا لما خسرت تجارتي.

- نعم. لكنك ما كنت ستصبح معنا على الجبل يا كوسماس. كنت ستبقى تحت. مع السود.

- أيها الأستاذ اللعين! أنت على حق. فلتذهب التجارة إلى الشيطان إذن! ومع ذلك، فأنا لا أستطيع أن أبتلع ما حدث. على كل حال، دعنا من هذا، ولتقرأ لي رسالتي.

وأمسك المدرس بالرسالة وبدأ يقرأ:

«أخي كوسماس. كلنا بخير، والحمد لله، لولا أننا جميعًا مرضى، ولا نعرف إذا كان هذا من الجوع أو من الحمى. لم يأت أحد بعد لمضايقتنا، ليُعْم الله عين الشيطان! لم يأت أحد من الحمر ولا من السود. لكن كلما دق الباب نشعر بأن قلوبنا أصبحت كأحجار القبور. العنزة باردالو ولدت ثلاثة صغار، كلها ذكور. فالسماء لا تحبنا بالأمس مر في القرية عجوز قصير معه فأرة بيضاء في قفص تعرف البخت. لكننا لم نذهب إليه. ومع ذلك رأت أمي حلمًا: كأنما سقط مطر غزير طلعت بعده الشمس. وذهبنا إلى القسيس ليفسره لنا، فقال باركه الله، إن هذا واضح وضوح النهار. حلم سعيد، واضح كالنهار. كوسماس يظهر قريبًا، لأنه هو الشمس».

وصاح كوسماس وهو ينفجر ضاحكًا:

- أنا الشمس؟ يا أمي المسكينة! الشيء الذي تشعر به نفسها، تراه حتى في حلمها.

ومضى المدرس يجلس القرفصاء إلى جانب رجل ضخم الجثة ذي منظر شرير ووجه شديد السمرة، كان يقلب بين يديه ورقة ويسب في يأس، لأنه لا يستطيع أن يفهم ماذا تقول هذه النعكشات اللعينة. لكن المدرس فك له شفرتها.

«كيف أصبحت على الجبل أيها المغفل، بينما أنفاسي تتقطع وأنا أقوم وحدي بعمل البيت والحقل والماعز والأولاد؟ من هو القذر اللعين الذي أوقعك هذه الوقعة؟ تكتب لي أنك تحارب من أجل الحرية؟ لكنك لم تسأل نفسك إذا كانت الحرية ستعطينا ما نأكل. ربما يخيل إليك أنها ستأتي لتساعدني في حرث الأرض وتنظيف المنزل والأولاد؟ لم يكن هذا ما وعدتني به يا كذاب عندما طلبت يدي. أنا بنت قسيس ومتعلمة كما تعرف، ولست فتاة لا قيمة لها. وأنا لم أخلق للأعمال الثقيلة، فارجع سريعًا يا بائس، إذا أردت ألا أرحل بقلب محطم. وأنت تعرف أنه لا ينقصني من يطلبني، ولكن...».

فصاح الرجل الأسمر:

- هذا يكفي، فليأخذها الشيطان!

وسحب الرسالة ومزقها قطعًا صغيرة. ونهض المدرس وهو يقول ضاحكًا:

- لا تهتم يا صديقي ديمتريس! فها هنا أيضًا نقوم بعمل ثقيل. اللعنة على الزوجات!

ومضى إلى الرفاق الذين يحيطون بالأب ياناروس.

في هذا الوقت وصل رجلان يتصببان عرقًا وعليهما سمات الفرح، كان كل منهما يضع على كتفيه عباءة من النوع الذي يضعه الرعاة، ويمسك مثلهم عصا طويلة، لكن أيديهما كانت مخضبة بالدم. وأشاروا إلى لوكاس وقالا وهما يضحكان:

- أنت الرئيس!

فمد لوكاس يده قائلًا:

- أين الصندوق؟

وسحب الرجل الأول من تحت عباءته صندوقًا مستطيلًا من الفضة. وناوله إياه وهو يقول متضاحكًا:

- من المؤكد أنه سيساعدك مساعدة كبيرة يا كابتن لوكاس.

فقال لوكاس:

- أنت تهذي أيها الجندي، لكنك سترى أن هذا الحزام المقدس سيقاتل معنا هو أيضًا.

ووضع إصبعين في فمه وأطلق صفارة:

- يا رفيق أليكوس!

ثم استدار نحو الرجلين وسأل:

- وأين الملابس؟

وأخرج الراعي المتنكر الآخر ربطة ملابس قائلًا:

- ها هي. تركنا له فقط السروال الداخلي.

وبسط على الأرض ثوبًا من ثياب الرهبان وطاقية وحزامًا وحذاء ضخمًا ثقيلًا وجوربًا أزرق اللون وصليبًا من الفضة. وقال:

- أخذنا أيضًا الحمار الصغير والسلتين. وجدنا في قاعهما ثمرتين أو ثلاثًا من التين فأكلناهما.

وعاد لوكاس ينادي مرة أخرى:

- أليكوس!

وأفسح الرفاق مكانًا حين ظهر أليكوس الطباخ الذي فر من كاستللوس، يمشي بوجه مشرق وقدم عرجاء. وصاح وهو يقف أمام لوكاس:

- أفندم!

قال الضابط وهو يضحك:

- يا أب ألكسندر، هذا رداؤك الملائكي. ضع نفسك في داخله بسرعة. أمامك مهمة ثقيلة معقدة.

وسأل أليكوس وعيناه تتحركان بسرعة:

- راهب؟

- البس بسرعة ولا توجه أسئلة.

وخلع أليكوس السويتر والبنطلون وارتدى ثوب الراهب ووضع الطاقية على رأسه وعلق الصليب في رقبته. ثم رفع يده ليبارك الرفاق والبنات الذين التفوا حوله وأجسامهم تتلوى من الضحك.

وأمسك لوكاس بالأثر الفضي وأخذ يقذفه ويتلقفه. وقال:

- يا أب ألكسندر، احذر تمامًا. أنا أضع في يدك قنبلة، لكن من الفضة. سوف تمر على كل القرى في هذا الخط، وتلقي هذه الخطبة:

«هيا أيها المسيحيون! هذا هو حزام سيدتنا يأتي إليكم. ها هو يصل ليعيد الحياة إلى قريتكم ويجدد أرواحكم ويطرد منها الشياطين السوداء. شياطين الفقر والحرب والظلم. كذلك أودعتني سيدتنا سرًا أنقله لكم! تعالوا اسجدوا لها، تعالوا اسمعوها، تعالوا جميعًا مهما كان عددكم!».

هذا هو ما سوف تقوله. وعندما يجتمع الناس، تهمس في آذانهم كأنك تقول سرًا:

«سيدتنا حمَّلتني رسالة لكم. إذا أردتم أن تستحقوا رضاءها، فاقتلوا كل الفاشيست، الشياطين السوداء، هم أصحاب البيريهات السوداء!».

هذا ما سوف تقوله. مفهوم؟

- مفهوم! ستكون قصة هزلية جميلة!

- اسمع! حذار! لا تضحك. أنا اخترتك لأنك شديد الخبث. لكننا نحتاج إلى ما هو أكثر من خبثك. يجب أن تصل إلى نفس درجة الخبث التي يتمتع بها الراهب. لأن الناس إذا شموا أي شيء، سيصلبونك أيها الأب المسكين ألكسندر، تمامًا كما صلب بديلك.

وشعر الأب ياناروس بالاختناق. كان ينظر بكل عينيه وينصت بكل أذنيه إلى هذا العالم الجديد. عالم بدون تقديس وبدون إله. عالم من الشباب والجرأة والكفر.. المسيح يجعلهم يضحكون، مع أنهم يموتون من أجل العدالة والحرية.. هؤلاء والأنصار الذين يحاربون الظلم- اغفر لي يارب هذا السؤال- لماذا لا يكونون مسيحيين جُددًا دون أن يدركوا؟ هم لا يزالون يجهلون ذلك، ولهذا يجدفون بالله. لكنهم سيعرفون في يوم ما، هذا غير ممكن.. ليت الراهب الجريح الأخ نيكوديم كان على حق! ليت المسيح وقف على رأس هؤلاء الشجعان ولوَّح في يده بالسوط بدلًا من الصليب ليطرد من معبد الرب- يطرد من الدنيا- الفريسيين والتجار ومضطهدي البشر!

وأجال الأب ياناروس نظره في الرفاق الذين يحيطون به ويضحكون ويشتمون، ويلمِّعون بنادقهم، وتنهد قائلًا:

- آه! لو كان يستطيع أن يهبط على الأرض هذا المسيح، إذن كنت أحرق كبدي برغم شيخوخة السبعين عامًا، وأرفع رايته وأندفع في الهجوم لأكنس معه الفريسيين والتجار ومضطهدي البشر!

وأخذت روح الأب ياناروس تضرب في مياه عميقة. فأغمض عينيه. كان يسمع حوله ضجيج الأصوات والضحكات، ويسمع طقطقة النيران- لكن أين يوجد الآن؟

وتخطى القمر منتصف السماء، وبدأ ينحدر نحو طرفها. ولمح الضابط لوكاس الأب ياناروس، فدفعه في قدمه. كان قد نسيه فقال له:

- اعذرنا أيها الأب، فقد نسيناك. كنت مشغولًا جدًا، لأنه كان يجب أن أعثر على طريقة لاستخدام حزام العذراء.

وصفق بيديه ونادى:

- كوكوليوس!

وتقدم شاب قوي الجسم ملبد الشعر له عينان نفاذتان كعيني النمس:

- أفندم!

- أين الكابتن؟

وتضاحك الفتى:

- يقوم بالمراقبة في أعلى، مع السيدة الكابتن.

وانفجر الرفاق ضاحكين، لكن لوكاس ثارت ثائرته فزمجر صائحًا:

- سكوت!

والتفت نحو كوكوليوس قائلًا:

- اذهب وأبلغه أن أباه هنا يطلبه، ويحمل رسالة.

- يحمل ماذا؟

- رسالة من كاستللوس. انصرف.

كان الكابتن دراكوس يربض على صخرة المراقبة على مرمى حجر من الرفاق. ويحرك في قبضة يده حصاة، بقعة سوداء ملتوية فوق صخرة، رقبة ممدودة، وقامة قصيرة. كان يبدو في ضوء القمر شبيهًا بدب كثيف الشعر متحفز للهجوم.

رأسه الضخمة ذات الشعر المشعث واللحية المنقوشة وعلامات الجدري، تحكي آثار البحار المختلفة التي جاس خلالها، والموانئ التي رسا فيها، والأجناس البيضاء والصفراء والسوداء التي تردد عليها.

وارتفعت روحه كالشمس الحمراء الفاقعة إلى سهول لا تنتهي من الأرض الخصبة، تنظر إلى العالم في أسفل نظرة السبع الجائع. لم يكن يستطيع أول الامر أن يميز شيئًا، فالأرض لم تستيقظ بعد، وضباب الصباح يغطي جسدها العاري. لكن الشمس بدأت ترفع الغطاء الخفيف فيهتز برقة شديدة. والبخار أصبح شفافًا، ثم هبط على الأعشاب طلا نديًا. وإذ ذاك ظهر السهل غارقًا في النور، يجري فيه نهر أصفر مثقل بالطين واسع كالبحر، يغطيه حشد من السفن الشراعية السوداء والبرتقالية اللون، ذات أشرعة مربعة ومؤخر مرتفع.

وفي قلب السهل كان رجال ذوو أجسام صغيرة يصيحون ويقفزون كالقردة. وفجأة انطلقت الأبواق والطبول. وبدأت الأرض تموج وتضطرب. كانت ملايين الأقدام الصفراء تدقها. وارتفع نشيد مفعم بالسرور والشدة والانتصار، ينادي بالحرية، رددته ملايين الأفواه. كانت أمواج متدافعة من الرؤوس المستديرة المتعجلة ترتج بالنشيد. رؤوس خرجت من الكثبان الرملية والبطاح الخضراء والجبال البعيدة، وصنعت من طين النهر الأصفر، واتخذت عيونًا منحرفة وشوارب مدلاة وشعورًا طويلة مضفورة. وأضاءت شمس الصبا فانعكس بريقها على الحياة والبنادق والخوذات وأزرار الملابس العسكرية وصور التنين في الرايات. وانطلقت في السماء الملتهبة طيور متوحشة من الصلب صنعتها أيدي البشر.

جاءت هذه الحشود من السور العظيم بعد أن حطمت السدود الموروثة وانفلتت نحو الجنوب، تضرم النيران في آلاف القرى فتدمرها، وتكنس السادة القدامى المنهارين، من قعور مجالس الحريم حيث نساؤهم وغلمانهم.

كان على المتخمين أن يتنازلوا عن موائدهم للجوعى. وامتلأت الجدران بإعلانات حمراء مخيفة تغطيها صور تنين أسود وحروف غريبة تشبه المطارق والمناجل والرؤوس المقطوعة.

والمارة يقتربون من الإعلانات فيقرأون: «يا عمال العالم أجمع، كلوا واشربوا، فقد جاء دوركم!».

وترسل القرى البعيدة رسلها. حفاة يضعون على رؤوسهم قبعات من القش. ينبطحون أرضًا، يصرخون ويتوسلون ويدفقون من أفواههم سيلًا من الكلمات السريعة المتنافرة، لا يتبين الآخرون

منها سوى بعض الألفاظ التي ترجع إلى أقدم العصور: الجوع، السوط، الموت!

وأمام هذه الجيوش يسير شبح الحرية يقطر الدم والدموع، ويجر خلفه الشرذمة الخالدة: المجاعة والنهب والنار والمذبحة.

«من هؤلاء القادمون الجدد؟ رائحتهم الكريهة تلوث ريح الشمال!».

هكذا يتساءل السادة وقد أطلوا من النوافذ المذهَّبة بقبَّعاتٍ من المخمل. فيأتيهم الجواب آلافًا من ألسنة النار تنهال من السماء.

وتتأمل الشمس هذه الجيوش الصفراء، وتحاول أن تحصيها، فتجد أنها أكثر من أن تحصى. وتبتسم في سرور وفرح، وتمضي لحال سبيلها.

تترك الشمس خلفها السهل والنهر الواسع، وتقف فوق الغابة الخانقة ذات الأدغال الرطبة الممتلئة بالعقارب والزهور السامة. هناك أصبح الجو كله مجرد منظر متحرك من أجنحة خضراء ووردية وزرقاء، وصخب هائل من الببغاوات. وبين الروائح الحريفة المنبعثة من شجر الكافور ونبات القرفة، كانت الوحوش تعود إلى بيوتها ببطون ممتلئة وأفواه مخضبة بالدم.

ولم تستطع الشمس أن تنفذ خلال الغابة، فاستشاطت غضبًا، ومضت إلى بعيد.

أما المناطق المكشوفة من الغابة العذراء، فكانت تضطرب برجال صغار الحجم ذوي أجساد نحيلة وعيون متحركة مشتعلة. أهل فيتنام والملايو وجاوه. كانوا في حالة استعداد. بعضهم يحملون بنادق وقنابل يدوية، وبعضهم يحملون سيوفًا ملتوية كالمناجل. وآخرون أيضًا يلوحون برايات ذات شعب، مزينة بصور الأسود الضاحكة أو الفيلة البيضاء أو الأفاعي الخضراء. كانوا منذ أجيال عديدة يحنون ظهورهم صامتين، لكنهم اليوم لم يعودوا يملكون صبرًا. أرسلت الشمس أشعتها تربت برقة على بطونهم الجائعة وأجسادهم المعذبة، وتبتسم.

في إحدى الأمسيات، كانوا يرقدون على الشاطئ بعد انتهاء العمل، وجوههم منبطحة أرضًا، يبكون بصوت خافت حتى لا يسمعهم سادتهم البيض، عندما هبط في الميناء إله جديد، إله أجنبي، بدأ يزحف على حصى الشاطئ كالعقرب الضخم المتكور، أو العجلة تمتد أسلاكها كآلاف الأيدي المتلهفة تمسك بالمناجل والمطارق. ومر الإله الجديد متثاقلًا على ظهورهم الممزقة، وألقى بنفسه في القرى، ووقف في الميادين وأخذ يصيح. بماذا كان يصيح؟ الجميع هبوا مستيقظين مرة واحدة يفركون عيونهم ليتأملوه بسرور يختلط بالانفعال الشديد. لم يكونوا يفهمون ما يقول، لكنهم كانوا يشعرون بقلوبهم تقفز وتصرخ. لم يتصوروا أن في أعماق صدورهم وحشًا قويًا راقدًا. كانوا يظنونه دائمًا فأرًا رعديدًا. وهكذا استيقظ قلب الإنسان جائعًا يهدر.

قفزوا واقفين يفركون عيونهم وينظرون حولهم، فرأوا لأول مرة الجبال والبحر والغابات والثمار المعلقة في الأشجار والثيران التي تصعد من موارد المياه والطيور التي تطير في السماء وكل الأشياء التي تخصهم. هذا وطنهم. صنع من عظام آبائهم وعرقهم ودموعهم وأنفاسهم. ركعوا يقبلون الأرض كأنما يقبلون أجدادهم ويضمونهم إلى صدورهم، وظللوا العيون بأيديهم ونظروا، فرأوا سادتهم البيض جالسين تحت مظلات الشرفات يحتسون المشروبات المثلجة ويدخنون الأنواع

المعطرة من السيجار. وكانت عيونهم نصف مغمضة وشفاههم ممتعضة ينظرون إلى أبناء الملايو ذوي الأجسام الرشيقة، وأهالي جاوه وفيتنام بأجسامهم العارية. ثارت الدماء في رؤوس أبناء الملايو وجاوه وفيتنام. وفي لحظة واحدة، أدركوا بوضوح كامل معنى الكلمات التي صاح بها الإله الجديد. وترددت صيحة واحدة في الغابات والبحار من أطرافها إلى أقاصيها: «اخرجوا، اخرجوا! آسيا للآسيويين! أوروبا للأوروبيين! أمريكا للأمريكيين! اخرجوا! اخرجوا!».

وكانت الشمس قد ارتفعت في السماء. ونظرت إلى أبنائها الملونين، وابتسمت وهي تنصت إلى صيحات الاستنكار التي يطلقونها، وهمست لهم: «كونوا مباركين!» ثم تابعت طريقها.

مرت الآن على جبال من الثلج لها قمم بارزة، وعلى أنهار مقدسة وقرى من الطين تضم أعدادًا لا حصر لها من البشر، ابتلع الجوع أجسادهم، وفي عيونهم الناعمة الواسعة آلهة موتى واستسلام. ووقف على طرف النهر رجل يشبه الهيكل العظمي، لكنه نشيط الجسم وزاهد في نفس الوقت. كان يلف مغزلًا. يلف ويلف عجلة المصير العريقة. وحوله احتشدت ملايين الأنفس تستمع إليه. وهو يتكلم ويبتسم ويصمت. عاري الجسد كالدودة. أسنانه ساقطة. أطرافه مثل أطراف القديس يوحنا المعمدان. لكنه كان يغطي جسمه بروحه كأنها حلة مدرعة، ويكافح ضد استبداد كبير، واقفًا على طرف النهر لا يريم.

وتوقفت الشمس فوقه. وأغرق النور رأسه الصلعاء وصدره المقفع وبطنه الأخمص وفخذيه الهزيلتين وساقيه اللذين يشبهان عودين من القصب. وقالت الشمس لنفسها في أعلى السماء: هكذا رغم كل شيء تكون روح الإنسان، الإنسان الحقيقي! يا للشعلة الملتهبة! يا للحزن ويا للفرح! هذا شيء متفجر قادر على أن يزعزع قشرة الأرض الغليظة. بعض الناس يسمونه الانتقام، وآخرون يسمونه الحرية، أو العدالة، أو الرب. أما أنا فأسميه روح الإنسان. وطالما استمرت تتفجر من الأرض سأظل واثقة أن نوري لن يضيع هباء. أنا أنتظرها منذ آلاف السنين. وأخيرًا أتت. وأنا فرحة لأن لي عيونًا أراها بها وآذانًا أسمعها وأيدي طويلة أربت بها على الدنيا! فإذا سقطت روح الإنسان يومًا، فكم يكون شقائي وحزني وضياع نوري.

وهناك في أعلى، وصلت إلى منتصف السماء فتوقفت.

وهي الآن فوق صحراء من الرمال، تنفث فيها قشرة الأرض لهبًا، المياه جفت والآبار غطاها الرمل. والنور يهدر كالشلال على الجبال الحمراء والبنفسجية. وفي الصحراء لا يوجد شيء آخر من قريب أو بعيد، تظهر نخلة أو جمل أو أفعى ذات بريق. وأحيانًا تمزق الجو صرخة وحشية. وفي أحيان أخرى تهب ريح حارقة فتثير الرمال، وتتموج الكثبان كالبحار وتسري في ظهر الأرض رعدة. وفجأة تبدو في هذه العزلة اللانهائية خيام، ونساء سمراوات، لهن أصابع طويلة ماهرة مخضبة بالحناء، يعجنَّ الدقيق ويقدحن زندين من حجر الصوان فتخرج النار ويرتفع الدخان ليعلن من بعيد وجود الإنسان. وتحل الحياة محل الموات. ويجلس القرفصاء رجال يضعون على رؤوسهم عمائم بيضاء. ينصتون. فقد وصل من السواحل البعيدة تاجر، أتى من بلاد الكفار. يبيع لآلئ من الزجاج ومرايا وملحًا وأقمشة مزركشة. جلس القرفصاء هو أيضًا تحت ظل خيمة، يحكي ما يحدث هناك في العالم المسكون. يتكلم عن آلات رائعة وبنادق جديدة ونساء بيضاوات وصبية

ذوي شعر أشقر. يتكلم عن الفقراء والأغنياء وعن الجوعى الذين يهبون فجأة فيحطمون أبواب الأغنياء ويهجمون على الموائد المنصوبة ويقفزون على السرائر اللينة الوثيرة ويمتطون جيادًا من الفولاذ ويطيرون بها في الفضاء، ويصنعون آلاف المعجزات.

ويشتعل حماس البدو حين يسمعون هذه الأشياء وتغيب عيونهم لتستقر ناحية الغرب.

ويدرك التاجر أن اللحظة أتت، فيخرج من جيبه كتابًا صغيرًا. يقول لهم: هذا كتاب جديد. نزل في مكة جديدة في الشمال. نزل على نبي جديد له اسم جديد. يدعو العرب المؤمنين به أن يتحدوا ليفتحوا العالم مرة أخرى. ألم يكفكم ما عشتم فيه من صحراء ومهانة وجوع؟ انهضوا إذن، فقد دقت الساعة انشروا في الريح رايات الإسلام الخضراء. الله واحد ومحمد رسوله. كل ما في الأمر أن الأسماء تغيرت قليلًا هذه الأيام.

وتضحك الشمس بملء وجهها الطيب المستدير، وتقول لنفسها:

«كل شيء على ما يرام. البذرة سقطت حتى في الصحراء، وسرعان ما سنشهد ازدهارها. هذا التاجر دبور حقيقي: يطير ويطن من زهرة لأخرى، ومن خيمة لأخرى، ومن قلب لقلب. وأجنحته تحمل حبوب لقاح ذات لون أحمر. ليكن! فقد تعبت من منظر الأرض القديم. أنا أجوب نفس الطريق كالعربة يجرها بغل. وما أكثر السنوات التي مرت وأنا أرى نفس السادة يسوطون نفس الظهور. لتدُرْ العجلة إذن! لتصعد إلى النور وجوه جديدة، ولتستأنف عربة الدنيا مسارها! تقدم إذن أيها التاجر، أيها الدبور المرسل، وتشجع! لقد رأيت في حياتي آلاف الدبابير مثلك. وهم جميعًا يروجون نفس البضاعة، لكن بأسماء مختلفة. فهم من كبار مخترعي القصص. لكن لا بأس فالبشر دائمًا أطفال، يعبدون القصص، ويؤمنون بها، وقدرة الروح تتمثل في هذا الإيمان الذي يستطيع أن يجعل القصة حقيقية، لقرن من الزمان أو لقرنين أو ثلاثة أو أربعة. ثم بعد ذلك تزول الغشاوة عن الأبصار، ويدركون أنها لم تكن سوى قصة، فيطلقون صيحات الاستنكار ويتخلصون منها. وإذ ذاك تظهر قصة جديدة يرويها قصاصون جدد. ويكسب العالم طفرة جديدة. لكن الوقت يسرقني.. الوداع إذن أيها التاجر. صفقة طيبة! أسألك المعذرة، فلا بد أن أمضي إلى حال سبيلي...».

وهز الكابتن دراكوس رأسه. ونظر إلى قمة الجبل حوله جرداء موحشة، ترتفع فوقها منذ شهور راية الحرية. في هذه الصخور تلتقي الأرض كلها والبحار. ما أطول الشهور التي مضت منذ اختلط مصير الرجال بمصير الجبل، فأصبحوا شيئًا واحدًا، وأصبح الكابتن دراكوس مثل مسخ القنطورس في الأساطير، نصفه إنسان ونصفه جبل. أضفى عليه الجبل بعض ما فيه من وحشية وقسوة، وأخذ منه مقابل ذلك بعض روحه، حتى بدا الجبل ذا روح إنسانية حقيقية. فهو ينتفخ وينظر إلى السهل بطريقة تكاد تتصور معها أنه يتحدى رجال البيريه الأسود ويشعر بأنه ليس جبلًا عاديًا بل قلعة للحرية. الأيدي البشرية تدمي فوقه منذ شهور، تشق ضلوعه لتنحت أوكارًا للمدافع وتنصب المتاريس وتفتح الطرق الضيقة. وقنابل المدافع أصابته بالجروح وأحرقت صخوره وحولت أدغاله إلى رماد. فَمُه ارتوى من الدم البشري وأكل مخ الإنسان وتناثرت في جنباته عظام الناس. وهكذا أصبح كالعفريت المنتصب، يحتضن قضية الأنصار، ويزمجر أثناء

القتال ويتخذ صورة التهديد. وبين الحين والآخر يضيء قمته لينقل الإشارات إلى جبال أخرى بعيدة.

وهمس الرجل لنفسه:

- كل هذا حسن جدًا، لكنني أكاد أموت كمدًا.

وقذف بغضب شديد قطعة الحجر التي كان يتلقفها في يده، وأرهف أذنيه يتسمع إلى صوتها يضيع داخل نفسه وعلى جنب الجبل. وزمجر قائلًا:

- ماذا يصيبني من جديد؟ أي شيطان يلبسني؟ وإلى أين يريد أن يذهب بي؟ هذا الشيطان سيطر دائمًا على حياتي. هل يتكلم عن الحرية؟ لكن عن أي حرية؟ الشيطان الذي يلبسنا هو وحده الحر، لا نحن. لسنا سوى الدابة التي يركبها، وفوق ظهورنا يفتح ساقيه. لكن إلى أين يذهب؟

واسترجع صورة حياته، وتذكر شبابه. كان يأكل ويجامع ويسكر ليتخلص من هذا الشيطان. لكن شيئًا لم يكن يؤثر فيه. كان الشيطان يستيقظ في داخله ويصيح فيه: «العار عليك! لست سوى وحش!» ولكي لا يسمعه هجر البلاد وركب سفينة بضائع عمل فيها رئيسًا للبحارة، وضاع وسط البحار الشاسعة. ما أعجب الحياة التي عاشها على ظهر السفينة! وانحنى الكابتن دراكوس على نفسه، وانفتحت هذا المساء القبور المغلقة في أعماق ذاته، وصعدت إلى النور حياة التشرد القديمة التي عاشها، وعاد يتذوق أفراح شبابه ومغامراته ومراراته ومنكراته.

ليس هناك إذن شيء يموت في داخلنا؟ لا شيء إذن يمكن أن يموت ما دمنا على قيد الحياة؟ ومرة أخرى أخذت تدق في صدغيه هذه البحار التي جابها، والمراكب والزملاء والموانئ الغريبة. الإسكندرية. السويس. بورسودان. سيلان. ماليزيا. هونج كونج. والبحار الصفراء الممتلئة بالوحل، والنساء الصفراوات الملونات بالوحل، لا زالت تصعد في خياشيمه الرائحة المنبعثة من آباطهن: البول والتوابل والمسك.

كان يهبط الموانئ وقد حلق ذقنه بطريقة فاخرة، وشاربه منتصب كالخطاف، وعلى أذنه سيجارة. وسرعان ما يقوم بجولة في بعض الأحياء الخاصة ليختار النساء. وبكل بساطة وبسرعة شديدة، يحدث الاتصال. يغمز بعينه للمرأة التي يرغبها، أو يقرص ذراعها، أو ينظر إليها ويخرج من فمه خوارًا خافتًا كخوار العجل.

الحب بالنسبة له مثل لعبة النطة التي كان يلعبها وهو صغير. كان خمسة أو ستة من الصبية المتشردين أصحابه يحنون ظهورهم، ويبصق هو في كفيه ويستعد للقفز، ثم: هوب! يقفز فوقهم واحدًا بعد آخر في سرعة البرق، ليقف ثابتًا على أطراف قدميه في إحساس بالانتصار.

ترى من أي شيء صنع جسد الإنسان حتى يستطيع أن يعطي ويأخذ هذا القدر الكبير من السعادة؟! والشفاه؟ حين تقترب الشفتان من قطعة لحم، ترتجف الروح!

كان دراكوس يجد لذة كبيرة في تناول جسم المرأة. حتى روحه كانت تصبح في تلك اللحظات جسدية شهوانية لتحصل على أكبر متعة من التقاء الجسدين. وكان يعود إلى سفينته في الفجر،

يحمل معه سباطة موز أو أناناس أو مجموعة من المناديل الحريرية المعطرة بالمسك والكافور.

وفي بعض الأحيان كان الموت يركب السفينة ويحاول أن يبتلعه. لكن سرعان ما يطردونه من مؤخرتها، فيعود إلى البحر الهدوء، ويحضر البحارة إلى ظهر السفينة الزجاجات واللحم المشوي يأكلون ويسكرون، ويبدأ كل واحد منهم يحكي القصص عن بلاده، ثم يستخرجون من جيوبهم صورًا قديمة اصفرَّ لونها ويتبادلونها. ودراكوس لم تكن له امرأة ولا أطفال يظهر صورهم. لكنه كان يحتفظ دائمًا بصورة قديمة لأبيه الأب ياناروس يلبس الطرشيل وعلى صدره الصليب وفي يديه إنجيل مفتوح. كان يظهر أصحابه على هذه الصورة وهو ينفجر ضاحكًا، فيأخذون في الضحك أيضًا قائلين: «في صحتك أيها الفتى اللعين، وفي صحة أبيك الغراب أيضًا!».

ثم يبدأون الغناء الساخر معًا، يقلدون كلمات قداس الأموات: «تعال نودع الوداع الأخير».

هكذا كانت حياته. ممتلئة بأحداث التهريب والمنكر والبطولة. في إحدى المرات قام بتمرد وحرض البحارة ضد القبطان- وكان رجلًا سكيرًا- واستطاع أن يطرده إلى قاع المركب ويقف على الدفة بدلًا منه. فقد ظهر في الأفق نذير عاصفة رهيبة، وأصبحت السفينة في خطر، لكن القبطان ظل يسكر في غرفته وعلى ركبتيه امرأتان من نساء آسيا. وفي مرة أخرى خرج عليهم في أعلى البحر قراصنة يابانيون، لكن الكابتن دراكوس استولى منهم على ثلاثة قوارب ربطها في مؤخرة السفينة وذهب يبيعها في هونج كونج.

وفجأة انتهى التهريب والنساء والسفن. ذات يوم جميل، هجر كل شيء كان ينزل في ميناء هندي، ووصلتهم برقية: «الحرب في ألبانيا» أهل مكرونيا عبروا الحدود غدرًا في إحدى الليالي، وداسوا أرض اليونان، وبدأوا يستعدون للنزول في جانينا. وعندما عرف ذلك، ارتفع من أعماق قلبه صوت غليظ. لم يكن صوته، بل صوت أبيه وجده، صوت عتيق جدًا يتكلم عن الحرية والموت.

وثارت ثورة الكابتن وهو يسمع هذا الصوت فقال: «هل أنا الذي تسمح لنفسك أن تملي عليه واجبه؟ لست في حاجة إليك. سوف ترى!» واستقل الطائرة عائدًا إلى وطنه وانضم إلى الجيش وحارب وأحرز النياشين والأوسمة وجاءت السنوات السوداء. وتلوثت اليونان. امتلأت بأحذية البلغاريين والألبانيين. والتجأ الكابتن إلى الجبل، وجعل من قوى الاحتلال سخرية. كان معه خمسون من الرجال حفاة في أسمال ممزقة، ظلوا كذلك إلى يوم هبت الريح تكنس الغزاة وتعيد أرض اليونان لليونانيين.

كان قد بقي عدة شهور لم يغتسل ولم يحلق ولم يغير ملابسه. وأصبح أسود اللون من البارود واللحية والقذارة. وبهذا الشكل نفسه ترك سالونيكا يبحث عن نصيبه من المتعة بعد أن أصبح الوطن حرًا. وذهب أولًا إلى الحمام التركي لينظف جسمه، ثم إلى الحلاق، ثم غير ملابسه. بعد ذلك دخل إحدى حانات الميناء مع بعض زملائه من رجال المقاومة. ظلوا ثلاثة أيام بلياليها يشربون ويغنون للحرية. وفي اليوم الرابع جلس إلى مائدتهم قرب الفجر رجل يهودي كان متوسط العمر ذا أنف معقوف وشفة غليظة وفم يكشف عن الفقر. وقدموا له الخمر أدوارًا متعددة فانفكت عقدته وبدأ يتكلم.

- حسنًا يا جنود المقاومة الشعبية، سأحكي لكم قصة. فأنصتوا جيدًا أيها الإخوة. ما أسعد من يستطيع أن يفهمني! ستصبح له عينان بعد أن كان بغير عينين، وسيصبح له قلب بعد أن لم يكن له قلب. أقسم لكم بالإله الذي أؤمن به، سوف يهب خارجًا من هذه الحانة وينظر حوله قائلًا: «ما هذه المعجزة؟ أنا أرى العالم قد تغير!».

وقال دراكوس وهو يملأ للرجل كأسه من جديد:

- تكلم إذن أيها اليهودي ولا تقتلنا لهفة! هيا، اشرب وأفرغ ما في مخك.

وأفرغ اليهودي كأسه وانطلق:

- في أحد الأيام كان هناك في الشمال البعيد منطقة من الجليد تسير فيها سنوات دون أن تصل إلى نهايتها. كانوا يسمونها روسيا. لا بد أنكم سمعتم عنها. في ذلك البلد كان هناك إذ ذاك ألف وعشرة آلاف من الرجال يعملون لكي يطعموا رجلًا واحدًا. والألف وعشرة آلاف يموتون جوعًا. كانوا يطلقون عليهم اسم الموجيك. والرجل الواحد الذي يأكل كانوا يسمونه بويار. ويبقى أفراد البويار ليل نهار قعودًا أمام النار يحتسون الخمر الأبيض الشديد الذي يسمى فودكا. يظلون يحتسون حتى يشعروا بالسرور، فيستخرجوا بنادقهم ويضعوا الموجيك في صف واحد ويجعلونهم أهدافًا للتسديد يتدربون على إطلاق النار عليها.

وصاح دراكوس وهو يدق المنضدة بقبضته:

- لكن الموجيك؟ ماذا كان يفعل الموجيك؟ الألف وعشرة آلاف؟ كانوا يستطيعون أن يقلبوا البويار بمجرد أن ينفخوا، وأن يغرقوه بمجرد أن يبصقوا! أنت تحكي قصصًا خيالية!

كان دراكوس ينفخ ويبصق وهو يدق على المنضدة:

وأجاب اليهودي:

- هذا حسن. لكن لا يا صديقي، لم ينفخوا ولم يبصقوا: كانوا يرتعدون. فاعلم أنهم كانوا يتوارثون الخوف أبًا عن جد. كان الخوف يبدأ مع مولدهم ولا ينتهي إلا مع موتهم. ولذلك كانوا يطلقون على هذا الخوف اسم الحياة. لكن في يوم من الأيام أتى رجل. رجل ضئيل الحجم يضع على رأسه كاسكيت من النوع الذي يضعه العمال، ويلبس سويتر عماليًا، وعيناه منحرفتان. بدأ يدق على الأبواب كأنه يتسول. كان يريد أن يدخل الأكواخ ويكلم الموجيك. لكن ماذا يقول لهم؟ لن يقول لهم شيئًا غير عادي، بل أشياء يعرفونها من قبل، لكنهم نسوها: إنهم آدميون، وإن لهم روحًا، وإنهم جوعى. وأيضًا هناك شيئًا اسمه الحرية. وشيئًا آخر اسمه العدالة، وشيئًا ثالثًا اسمه...

وخفض اليهودي صوته عندما رأى صاحب الحانة يمد أذنه لينصت إلى الكلام في اضطراب ظاهر. لكن الزملاء أدنوا رؤوسهم من اليهودي يسألون:

- اسمه ماذا؟

وأجاب اليهودي بصوت خافت وهو ينكمش على نفسه في خوف:

- الثورة.

وسرعان ما شعر بيد ضخمة، يد صاحب الحانة، تمسك به.

- أيها اليهودي القذر، البلشفي، اخرج!

وقبل أن يتمكن الزملاء من التدخل كان المسكين قد أصبح في الشارع.

وانتفض دراكوس. صاح في داخله صوت:

«العالم أصابه الفساد، وعليك أن تنقذه!».

«أنا، السكير؟ الدب الضخم الغليظ؟ الكذاب السارق القاتل؟» «أنت، أنت! فانهض!».

وأسرع إلى الخارج وهو يصيح قائلًا لليهودي:

- أنا آت معك.

وأمسك بذراعه، وضاعا معًا في متاهة الأزقة.

كان الكابتن دراكوس يسترجع ذلك وقد انفرد بنفسه تلك الليلة في مركز المراقبة على قمة النسور. واستعاد في ذهنه تلك الحياة التي عاشها أيامًا خطيرة ولياليَ ملتهبة في سالونيكا في حانات غريبة وبيوت مهجورة وسراديب مظلمة. لا بد أن المسيحيين الأوائل كانوا يعيشون هكذا في السراديب، فقراء جوعى مضطهدين، وبالتأكيد كانت لهم نفس العيون التي تشتعل بالحب والكراهية، وكانوا يتقابلون بنفس الطريقة ليدبروا المؤامرة لتدمير العالم القديم وفتح الطريق أمام العالم الجديد. كان الرفق جميعًا يفيضون بالسرور والغضب والإيمان من قمة رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم. وكانوا يقسمون:

- سوف ننقذ العالم. سوف ننقذه طوعًا أو كرهًا!

وانفتح قلب دراكوس، وامتلأ قلبه بالألم والاستنكار. وأدى اليمين وتلقى من غيره اليمين، وجمع رفاقًا اختارهم شبابًا مقطوعين عن الوجود. ثم التجأ إلى الجبل، ومن قمة إلى أخرى، وجد نفسه صباح يوم جميل على صخور إيبريا. النار والدم! لم تكن الشفقة تعرف طريقًا إلى قلبه. كان يحرق القرى وينفذ الإعدام في الأعيان والفاشيست دون تمييز، ويقول إن الكراهية هي الطريق الوحيد إلى الحب. وفي يوم أول أمس كان قد قبض على الأب لافرنتيوس، الكاهن الذي وشى بالنساء السبع اللاتي أعدمهن السود بالرصاص في معبد يوحنا الرسول. فلم تأخذه به أدنى شفقة. بل صنع له بنفسه صليبًا له ثقالتان، وصلبه أثناء الليل في عرض الطريق الكبير بمسامير ضخمة، ليرى الفلاحون جيدًا كيف يعاقب الخونة.

وعاد يهمس لنفسه:

- هذا كله حسن جدًا، لكني في النهاية سأموت كمدًا.

ومد جسده مستلقيًا ليستعيد أنفاسه. فقد كان يختنق.

منذ فترة شعر في قلبه بطعنة سكين: ماذا إذا لم يكن هذا هو الطريق السليم؟ لكن لماذا بدأ قلبه يعذبه مرة أخرى ويبحث عن مهرب؟ ثم أين يذهب؟ أين بحق الشيطان يذهب؟ مجرد أن يفكر في ذلك معناه أن يصبح مجنونًا. كان يقول ليشجع نفسه: لا، لا، هذا هو الطريق السليم. فاستمر. استمر. ويجب أن تضرب بمزيد من الشدة! ثم يضرب كالأعمى ليخنق الصوت الجديد الذي بدأ يرتفع في داخله. ويوم أول أمس عندما قبض على القسيس وصلبه بأصابع يديه، شعر الحمر والسود معًا بالذعر، بينما شعر هو بالارتياح عدة ساعات. كان يكرر لنفسه في محاولة للإيحاء الذاتي: هذا هو الطريق السليم تمامًا. ليس هناك طريق آخر. فأتبعه حتى النهاية، ولا تنصت لأحد. واستمر! ما أشقى هؤلاء الذين ينقصهم الشجاعة فيبقون في منتصف الطريق. لن تجد الخلاص إلا في نهاية الطريق.

ومنذ اليوم الذي بدأ يتردد فيه هذا الصوت الجديد، اشتدت قسوة الكابتن دراكوس وازداد ولوغًا في الدم، كأنما ليقطع كل الجسور ويصل طوعًا أو كرهًا إلى نهاية الطريق الذي اختاره. فلم يكن قسيسًا هذا الذي صلبه. لا. بل صوته الداخلي يريد أن يسكته. لكن الصوت لا يمكن صلبه. الجسد يمكن أن يذبح، والرقبة تقطع، لكن الصوت يبقى. وفي هذا المساء ارتفع الصوت من جديد في صدر الكابتن دراكوس يمزقه:

- حسن جدًا أن نغير العالم ونحقق العدالة والحرية، لكن كيف نغير العالم إذا لم نغير البشر؟ هل نحن- الذين نقول إننا أناس جدد- نختلف عن غيرنا من الناس؟ هل ولدنا؟ أحسن منهم؟ يا لشقائنا! هذا كلام مقبول بالنسبة للرفاق الصغار المتواضعين. أما الرؤساء، فاللعنة عليهم، خذ مثلًا لوكاس، الضابط الذي يعمل معي: هو شهوة وحقد، يتجسس عليَّ لكي يأخذ مكاني. شخص متعفن من رأسه إلى قدمه. نحن جميعًا متعفنون!

وحاول الكابتن دراكوس يائسًا أن يستنشق قليلًا من الهواء النقي. وأخذ يشد شعر شاربه في ثورة شديدة وهو يهمس:

- آه! ليتني كنت قويًا إلى الدرجة الكافية: آه! ليتني كنت قويًا بحيث أستطيع أن أرفع رايتي الخاصة!

سقط على الصخرة ظل جانبي.

وانتفض الكابتن دراكوس. رأى أمامه المرأة المتنكرة في زي راهبة، يتهدل شعرها الأشقر على كتفيها. وقطَّب جبينه قائلًا:

- أين كنت؟ لقد تأخرت. هل رأيت الرئيس؟

- قابلت أباك منذ لحظة وأنا صاعدة، الأبياناروس.

- لا يهمك أبي. هل رأيت الرئيس؟ ما هي الأخبار التي تحملينها؟ تكلمي!

- قال إنك يجب أن تترك المسئولية إلى لوكاس..

ولم تستطع أن تكمل كلامها، فقد قفز الكابتن دراكوس ليقبض على رقبتها. لكنه استطاع أن يتمالك نفسه، والتقط قطعة حصى وقفز بها في الفضاء. وتحشرج صوته حتى أصبح مثل خوار الثور الذبيح.

- تقولين إلى من؟

فأجابت المرأة بهدوء:

- إلى لوكاس.

وخفضت عينيها لتخفي سرورها.

وارتفع صوت أسنان الكابتن وهو يصر عليها. وسال من فخذيه وإبطيه عرق ملتهب شديد تفوح منه رائحة خنزير بري. وشعرت المرأة بالخوف، وأتت بحركة صغيرة لتتراجع.

- قفي! أين تذهبين؟

واحتبست الكلمات في حلق الرجل، فكان لها صوت يشبه الحجارة المجروشة. وظلت الكلمات تجاهد للتحول إلى صوت بشري:

- ولأي سبب، من فضلك؟

- أنت لم تعد منضبطًا. أنت جعلتهم يتصورون فيما يبدو أنك تريد أن تعمل لحسابك الخاص. لقد بلغهم ذلك. والآن لم يعد لديهم ثقة.

وصمتت ثم أضافت:

- وفضلًا عن ذلك لاحظوا أنك تأخرت في الاستيلاء على كاستللوس.

وانفجر الرجل يضحك في وحشية. وفجأة توقف مرة واحدة. أدرك الحقيقة في لمحة سريعة وهو يضحك. واقترب من المرأة في صمت، وقبض على كتفها بقسوة بالغة. وقال بصوت لاهث:

- هل هذه مصادفة..

وصمت مرة أخرى. وغمس عينيه في عينيها الزرقاوين، وأحرق وجهها بأنفاسه اللاهثة، حاولت أن تدير وجهها، لكنه أمسك برقبتها بقوة حتى لا تتحرك. وكرر السؤال:

- هل هذه مصادفة..

وفجأة شدد قبضته على رقبتها حتى اختنقت. وبدأ يعوي:

- يا قذرة! أنت صورت لهم الأشياء بطريقتك الخاصة، لتخدمي مصالح عشيقك. عشيقك «القزعة». أنت لا تفكرين إلا في أن تصبحي السيدة زوجة الكابتن!

وترك عنقها وأخذ يلوي ذراعها. كانت المرأة تتألم، لكنها لم تفتح شفتيها. وظلت تقاوم بلا صوت، بينما الكابتن يضغط عليها في هياج شديد. وعاد يعوي:

- يا قذرة! إلى أين ستدفعينني؟ منذ وصولك لم تتوقفي لحظة عن نشر الفضائح في هذا الجبل. ألا يمكن أن تفهمي أيتها الكلبة، أنه لا يوجد هنا رجال ونساء، لكن فقط رفاق؟ عندما تنتهي الحرب تستطيعون أن تفعلوا ما تشاءون بالأثداء والشوارب، وليس قبل ذلك.. لكنك أتيت فلوثت كل شيء.

- أنا أحارب من أجل الحرية. فأنا حرة، أسلك وفق هواي.

- الحرية هي الخضوع للفكرة، لا الخضوع للهوى.

- هذا كلام سليم، لكن بالنسبة للرجال. أما أنا فامرأة. وعندما أرى الرجال لا يبقى في رأسي سوى شيء واحد: أن آخذ منهم واحدًا.

- وماذا تجدين فيه؟ إنه قصير وساقاه ملتويتان، وفي بشرته المحمَّرة كلف.

وكان يقترب منها وهو يتكلم ويحتك بها كالحصان، حتى بدأ شعر لحيته يشك خديها وذقنها. ومن ثدييها انتشرت رائحة شديدة كرائحة اللبن المختثر واللوز الفج. وشم الرجل الرائحة، فانتفض وتراجع عن المرأة ودفعها بعيدًا عنه. وكاد يصفعها على وجهها، لو لم يمسكه الخجل. وزمجر:

- اغربي عن وجهي يا قذرة. لا تأتي لتلوثيني أنا أيضًا!

وبدأت تزر رداءها الذي انفتح عند صدرها. لكن الرجل قفز فوقها وأمسكها من رقبتها وألقاها أرضًا.

وقالت وهي تطلق صرخات حادة:

- اتركني، اتركني، أنا أمقتك!

وغمغم الرجل وهو يغرز أسنانه في رقبتها:

- وأنا أيضًا، وأنا أيضًا، وأنا أيضًا.

- اتركني، اتركني، أنا أمقتك!

وصارعت في يأس لتفلت منه، بقدميها وقبضتيها وأظافرها. وكانت سيقانهما تتشابك وتنفصل من لحظة لأخرى، وشيئًا فشيئًا تحول صراعهما إلى تماسك الجسدين. والرائحة القذرة المشبعة بالعرق في جسم الرجل كانت شديدة طاغية فغلبت المرأة. وصاحت من جديد:

- اتركني، أنا أكرهك، أنت تخيفني!

وأجاب وهو يبذل جهده ليفتح ملابسها:

- وأنا أيضًا، وأنا أيضًا يا قذرة!

أصابته الكراهية بالجنون واستولت عليه رغبة جارفة في أن يجرها أرضًا ويدوسها بحذائه ذي الحديد. وأمسك بردائها وجذبه بعنف حتى مزقه.

وبرز ثدياها ناصعين مبللين مشدودين. وأمسكهما الرجل في يديه وفقد صوابه. وأطلقت المرأة صرخة ضعيفة وشحب وجهها وغامت عيناها. وهمست:

- لا، لا!

كان صوتها إذ ذاك خافتًا، فيه رنة توسل، وثدياها يذوبان لذة وألمًا. ثم ألقت ذراعيها على الحصى ويداها مفتوحتان، وتوقفت عن المقاومة، وأغمضت عينيها. وكان الرجل يصهل كالحصان:

- يا قذرة، يا قذرة، أنا أكرهك!

لم يبق في وجهه شيء إنساني. تحول إلى شكل الغوريلا الأولى التي تلهث وراء اللحم الأبيض.

ومرت لحظة سمعت المرأة رجالًا يغنون، وكلبًا ينبح من بعيد، من بعيد جدًا، في آخر الدنيا!

ثم انتفخت عروق صدرها وساقيها، وأخذت تدق جسدها كالسياط. وبعد ذلك جاء سكون. سكون عميق. كأنما سقط العالم في الهاوية.

والذكر ذو الشعر الكثيف غائب عن نفسه لا يعي ما يفعل أو يقول، يلتهم في شراهة بشفتيه الداميتين هذا الجسد ذا الرائحة النفاذة والملمس الناعم كالقطيفة، ويهدل كالحمامة بصوت رقيق خافت لم يعد يشبه صوته:

- حبيبتي... حبيبتي...

كم من الساعات، أو كم من الثواني مرت؟ انفصل الرجل عن المرأة، وجلسا على قطع الحجارة يتبادلان نظرات الكراهية. وفجأة أخفت المرأة رأسها بين ركبتيها واستولى عليها شعور

بالغثيان. شعرت بأنها سقطت في حظيرة خنازير، وخيل إليها أن القذارة الكريهة تغمرها، بحيث لا يمكن أن يغسلها أي شيء.

وتناولت منديلها وبدأت تمسح فمها ورقبتها وصدرها في غضب شديد. وامتلأ المنديل بالدم.

وتابعت الرجل بطرف عينها. كان إذ ذاك يدور حول نفسه كالدب، ويزوم وذراعاه يتأرجحان وجبينه مقطَّب. ودفنت المرأة رأسها مرة أخرى بين ركبتيها وهي تهمس:

- الوحش، الوحش القذر...

كانت ستحاول الانصراف، لكنها شعرت بجسمها كله يغيب في إرهاق حلو. لتغمض إذن عينيها لحظة واحدة وتنعس!

لكن الرجل وقف أمامها يدق الأرض بقدمه:

- يا قذرة، لا أريد أن أراك بعد ذلك، اغربي عن وجهي! وقولي لعشيقك إنه يستطيع أن يستمر في السعي ليصبح الكابتن!

وقفزت المرأة واقفة تصيح بأعلى صوتها:

- يا وحش! يا وحش يا قذر!

وتهيأت لتنصرف، وأعادت شعرها تحت البيريه، عندما برز في تلك اللحظة من بين الصخور فتى صغير. قال وهو يغمز بعينيه بطريقة مكشوفة:

- يا كابتن دراكوس، أبوك الأب ياناروس يطلب رؤيتك.

***

كان الأب ياناروس قد ظل واقفًا يستدفئ بجوار النار، والرعدات تسري في جسمه موجات متتابعة. وبدأت روحه تعذبه مرة أخرى. قال لنفسه: «يا أب ياناروس، أيها القلب الحائر المتقلب العجوز، ماذا تصنع في عرين الأسود؟ ارجع من حيث أتيت قبل أن يفوت الأوان. ابنك سيحضر بعد لحظة».

لكن الكابتن ظهر في نفس اللحظة يسير متثاقلًا. انعكست النيران على وجهه، فزادت من بروز فكه الثقيل وسواد لحيته. كان منظره الجانبي يشبه منظر الكبش، ويداه الغليظتان تصلان إلى ركبتيه. وتباعد الرفاق ليفسحوا له الطريق. وحضر الضابط لوكاس ليكون بجانبه. فقذفه بنظرة كنظرة الثور، وصعدت دماء الغضب في عينيه، لكنه أشاح بوجهه وبصق في النار.

وقال وهو يفك زر الياقة التي تخنقه:

- أين الأب ياناروس؟

وأجاب العجوز:

- ها أنذا.

وابتعد عن النار التي كان يستدفئ بها. والتوت شفتا الابن في ابتسامة ساخرة، وغمغم:

- مرحبًا بك.

وأجاب الأب ياناروس:

- أنا سعيد بمقابلتك يا كابتن. عندي شيء أقوله لك.

- أنا أسمعك.

والتف الأنصار في حلقة حول الرجلين، وكتموا أنفاسهم ينصتون.

وقال العجوز:

- من الأفضل أن يكون الكلام خاصًا.

- ليس عندي أسرار على الرفاق. تكلم أمام الجميع. أي ريح طيبة دفعتك إلينا؟

- ريح الله. الله هو الذي حملني إلى هذا الوكر. عندي شيء أقوله لك من عند الله. وبعد ذلك سأنصرف.

- أنا أسمعك.

- ألا تشفق على اليونان؟ هذا القطار الذي تركبه سيذهب باليونان إلى الضياع. الله خلقنا قليلي العدد. فإذا امتدت الحرب لن يبقى منا على قيد الحياة أحد. القرى دمرت والمنازل أحرقت والكهوف امتلأت بالأرامل واليتامى. الشفقة راحة من الوجود. أنت أخذت كاستللوس ثلاث مرات، وهم استرجعوها منك ثلاث مرات. وفي كل مرة لم يكن الحمر ولا السود يتركون فيها سوى الرماد. إلى متى يستمر ذلك؟ لقد جئت أبحث عنك هذا المساء على الجبل لأسألك: إلى متى سيستمر ذلك؟ وأنا أسأل الآخرين نفس السؤال. فأنا كاهن الله وواجبي أن أنتقل بين المعسكرين وأصيح: المحبة! المحبة!

وانفجر الكابتن يضحك في خشونة وقسوة:

- المحبة، المحبة! ألم تقل في ذلك ما يكفيك؟ هل أتيت تبحث عني على الجبل لتقول لي ذلك؟ النار! النار! هذا جوابي: فارجع من حيث أتيت.

- قلت لك إن عندي ما يجب أن أحادثك فيه.

- وأنا قلت إني أسمعك. أسمعك. لكن خل عني إله المحبة. هذه الكلمات الرنانة لا تجدي معنا. تكلم بالتحديد.. لماذا أتيت؟

- لأسلم لك كاستللوس.

والتفت الكابتن إلى رفاقه:

- أحضروا عرقي للأب ياناروس. هو في حاجة إلى أن يشرب قليلًا ليستعيد قواه.

واستدار نحو أبيه، وأضاف بصوت ضاحك:

- استمر أيها العجوز. فهذه بداية مبشرة.

وقال العجوز غاضبًا:

- ليس في هذا ما يثير الضحك. فليس سهلًا على نفسي أن أسلمك القرية، ولا سهلًا عليك أن تسيطر عليها. كاستللوس ليست بين يدي، ولم تصبح بعد بين يديك. كاستللوس بين يدي الله. فاحترمها.

وأحضرت فتاة صغيرة كأسين من العرقي. لكن الكابتن قال وهو ينحي كأسه:

- لست في حاجة إلى ما يقوي قلبي. أعطها للعجوز.

وأجاب الأب ياناروس في شعور بالإهانة:

- لست أنا أيضًا في حاجة إليها. ثم حسبك إعلانًا عن عمري، فأنا لست عجوزًا.

وصمت الاثنان لحظة، وعيونهما متلاقية. وصاح في داخل العجوز صوت يقول: «لا يمكن أن يكون هذا الرجل ابني. إنه لا يبعث في نفسي أدنى ثقة. لن أسلم له كاستللوس. سأرحل.».

أما الابن فقد أحس من جانبه بأن قلبه يسقط وعينيه تغطيهما غشاوة. كم من الأشياء احتملها وهو طفل على يدي هذا الأب، عندما كان لا يزال وحشًا صغيرًا غير مستأنس، يريد الأب تحويله إلى رجل! كم يخافه وكم يكرهه.

في إحدى الليالي أشعل النار في السرير وفر هاربًا من فوق جدار الفناء. ومنذ تلك الليلة لم يعد. قال وهو يشد قبضته وقد نفد صبره:

- يجب أن ننهي الموضوع! لا تتصور أنني في حاجة إليك. فقد أقسمت أن أحرق القرية غدًا.

واسترجع الأب ياناروس أمام عينيه منظر النساء في ثياب الحداد والأطفال الجوعى والبيوت المشتعلة وجيف الموتى تفسد على الجبل واليونان تحتضر.

ونظر إلى الفتيان يتدافعون حول النار. كان بعضهم راسخي الأقدام كالأشجار التي لا يهزها شيء، وآخرون كالوحوش المتربصة. وكان هناك أيضًا فتيان يشبهون الملائكة. وفكر في نفسه. «ماذا أفعل لكي أثير قلوب هذه الأشجار والوحوش والملائكة؟ كيف يستطيعون أن يفهموا الألم الذي أشعر به؟».

وفجأة سمع صوت الرب يغطي على اضطراب روحه. هو هكذا دائمًا كلما عجز عن الرؤية بوضوح، وتاه عقله بين مئات الأصوات المتنافرة، يرتفع من قلبه صوت آخر هادئ شديد الوضوح، هو صوت الرب، يعيد النظام إلى أفكاره. وسمع الأب ياناروس هذا الصوت، فتماسكت

ركبتاه ومد يده يلمس يد الكابتن. كان مضطربًا يشعر بأن حياة آلاف البشر تتوقف على هذه اللحظة. قال:

- يا ابني، يا ابني، هل تريد أن أركع أمامك؟ نعم، أنا أعرف أنك قاسيت كثيرًا على يديَّ عندما كنت صغيرًا. لكن كان هذا من أجل صالحك. فلا بد أن تضرب طين الفخار بشدة لتصنع منه الجرة المتماسكة. لقد اضطهدتك كثيرًا. والآن أتى دوري. أنا الأب ياناروس الذي لم يقبل قط أن ينحني لأحد إلا لله، أركع أمامك يا ابني لأتوسل إليك. انزل القرية غدًا مساء ليلة سبت النور. سأسلم لك مفاتيحها. وسنحتفل معًا بالقيامة. وسنتبادل قبلات السلام. لكن لا تقتل أحدًا! هل تسمع؟ لن تقتل أحدًا!

وسكت الكابتن دراكوس، لكنه كان يضحك في لحيته الكثيفة.

واستمر العجوز يتوسل:

- أعتق القرية. احترم حياة سكانهم وشرفهم وممتلكاتهم.

- أنت تطلب الكثير!

- أنا أطلب الكثير! لأني أعطي الكثير، لا تقل أحدًا. فحسبنا هؤلاء الذين سقطوا من قبل.

- حتى هذا القومندان الكلب؟ حتى هذا العجوز القذر مندراس وأولاده؟

- لا أحد، لا أحد. فكلهم من القطيع الذي أرعاه. ويجب أن أقدم عنهم الحساب في الدينونة الأخيرة.

- أما أنا فيجب أن أقدم الحساب هنا على الأرض، في الدينونة الأولى. أقدمه للرفاق الذين سيقومون بالنزول إلى أزقة كاستلوس وصخورها. لا تقطب جبينك يا أب ياناروس. فلا جدوى من الغضب. هل تعتقد أني لازلت الولد الذي تستطيع أن تضربه بالسوط كالكلب؟ هل تذكر عندما كنت تعلقني ورأسي إلى أسفل ثم تضربني على باطن القدم حتى يسيل دمي؟ تزعم أن هذا يصنع مني رجلًا.. لكني في إحدى الليالي أشعلت النار في بيتك. وغدًا سأشعل النار في قريتك. لا مساومة. جاء دوري.

وعادت أمام عيني العجوز صورة كاستللوس تشتعل. لكنه شد قلبه ولم يدعه ينفجر.

- أنا أرسلت الأوامر إلى القرى المحيطة يا كابتن دراكوس. وغدًا عند الظهر سيجتمع الشعب أمام الكنيسة. وسنسير إلى المعسكر. سنقبض على القومندان. فمعظم الجنود معنا. وإذ ذاك سنرسل لكم إشارة. هذا ما أردت أن أقوله لك من عند الله. لكن كن شفيقًا، أيها الكابتن، وأقسم لي ألا تضطهد أحدًا.

ونظر الكابتن حوله. كان الضابط لوكاس يستعد للإدلاء برأيه، لكن دراكوس أغلق له فمه مزمجرًا:

- سأقرر أنا وحدي. أنا الكابتن!

وعض على شاربه وغاب في تفكير عميق حتى أصبح وجهه كقطعة من حجر. لكن شيئًا فشيئًا ظهرت على شفتيه الغليظتين ابتسامة شيطانية. والتفت أخيرًا إلى الأب ياناروس قائلًا:

- حسنًا. لن أضطهد أحدًا. أقسم على ذلك.

لكن العجوز هز رأسه متسائلًا:

- ترى بأي شيء أجعلك تقسم ما دمت لا تؤمن بالله؟

- أقسم بالأيديولوجية، فهي إلهي.

- ليس هناك أيديولوجيات. هناك فقط بشر. الأيديولوجية لا تساوي شيئًا بدون الإنسان الذي يدعو لها.

- إذن اطمئن، فأنا أساوي كثيرًا. أعطيك كلمتي. كلمتي لا رجوع فيها.

- فليمد الرب يده لنا!

وانفجر الكابتن ضاحكًا:

- إذا كان له يد!

والتفت إلى رفاقه:

- إلى السلاح يا أولاد. الشعب قام من الأموات!

فأجابوا في صوت واحد:

- بالحقيقة قام يا كابتن.

واهتز الجبل بصياحهم.

ونظر العجوز إلى السماء يسألها العون، لكن السماء كانت مشغولة بمسائل أخرى. كانت تتهيأ لتطلع النهار.

«سبع مرات كل يوم ينفخ الرب في أعواد الغاب، فتلين الأعواد. ما هي هذه الأعواد؟ البشر. فانفخ يا إلهي. في دراكوس هذا واجعله يلين....».

هكذا قال الأب ياناروس لنفسه وهو يهبط الجبل. وما إن اختفى عن عيون الأنصار وراء الصخور الأولى حتى توقف ورفع يديه على أعلى صائحًا بأقوى صوت ليسمع أبراج السماء:

- يا رب! يا رب! حتى متى يظل عدو المسيح أمير الدنيا؟ حتى متى يظل الإنسان ينكر أقرانه؟ الأبرار في خطر. ثم ما هو عددهم في هذه الدنيا؟ قليل جدًا. فلماذا لا تأخذك الشفقة بهم؟ أنت الذي أعطيتهم الحب والفضيلة والخشوع، لماذا لم تعطهم القوة؟ كان يجب أن تسلحهم هم، لا الآخرين. فالآخرون لديهم الأسنان والأظافر. لديهم القوة. فهم ذئاب. يا رب، سلح الخراف أيضًا، كي لا تأكلها الذئاب.

وإذا أردت أن تعود إلى الأرض، فلتعد أيها المسيح كالأسد الكريم، لا كالحمل. يا رب، لا أستطيع أن أفهمك. لماذا تعاقب هكذا بقسوة أولئك الذين يحبونك؟

وارتاح الأب ياناروس بعض الشيء عندما أفضى بذات نفسه إلى الله. واستأنف طريقه إلى كاستللوس بأقصى ما يستطيع من سرعة. كان القمر ينحدر إلى المغيب. والفجر يتهيأ للطلوع في السماء. وسرعان ما ظهرت صورة القرية بين الصخور. قطعة من الحجر ترقد بين قطع الحجارة. وظهرت أسطح المنازل من الطوب الضارب إلى الخضرة، ترتفع فوقها مداخن ذات لون أسود لم يعد يصعد منها دخان. ورأى مجموعات الخرائب المنتشرة كبقع البرص حول الكنيسة المتهدمة.

كان بيت الرب تمامًا مثل بيوت البشر. في داخله يرقد المسيح على قبر الكنيسة، تكسوه الزهور البرية، ينتظر إقامته. فقد كان اليوم سبت النور. وهز الأب ياناروس رأسه قائلًا:

- ساعدني يا رب، إذا أردت أن أساعدك. ساعدني على أن أعيد الوفاق، إذا أردت أن ترى في كاستللوس يوم قيامتك!

وبدأ النور ينتشر. ودخل الأب ياناروس القرية يسير لصق الجدران ويندس بين الأزقة حتى وصل إلى الكنيسة. وهناك تهالك على المقعد الخشبي وقد أضناه التعب. كان جفناه ثقيلين مثل قطعتين من الرصاص، ودارت الأشياء أمام عينيه في دوامة خاطفة: قبر المسيح والأيقونات ورسوم الهيكل المذهبة، سوداء وحمراء وفي لون الذهب. وشعر بالألم، فأغمض عينيه وغاب فجأة في نوم عميق.

أما القرية فكانت قد بدأت تستيقظ. انفتح أحد الأبواب نصف فتحة وبرزت الرؤوس هنا وهناك، ونبح كلب، ثم ساد السكون مرة أخرى. وفي لحظة، ارتفع صياح طفل رضيع جائع يرقد

في فناء صغير. وسرعان ما بدأت الجراء الوليدة في البيوت المجاورة تردد الصدى وتسرسع من الجوع أيضًا.

وفي الطرف الآخر من القرية كان الجنود قد نظفوا بنادقهم، كم من الثواني أو الساعات بقي الأب ياناروس غارقًا في النوم؟ في الحقيقة لم يكن ذلك نومًا، بل كان شيئًا مخيفًا دخل فيه فجأة حتى أصبح يرتعد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

خيل إليه أن خاتم المسيح قد تحطم في يده وأنه لم يعد يمسك سوى قطعة من الحجر يتصور أنها الرب. وأظلمت الشمس، فأصبحت مثل كيس صنع من الشعر الأسود. وأصبح القمر في لون الدم، وبدأت نجوم السماء تتساقط على الأرض كشجرة التين الشوكي التي تقذف ثمارها الخضراء هنا وهناك عندما تهب عليها ريح شديدة. وتمزقت ظلمات السماء، فظهر سبعة ملائكة يحملون سبعة أبواق.

ونفخ الملاك الأول في البوق، فسقط على الأرض سيل من النار المختلطة بالدم. واحترق ثلث النجوم والأرض وكل ما فيها من عشب أخضر.

ونفخ الملاك الثاني في البوق، فسقط في البحر جبل من النار، وتحول ثلث البحر إلى دم، ومات ثلث السمك وهلك ثلث السفن.

ونفخ الملاك الثالث في البوق، فسقط من السماء نور ملتهب، وجفت ثلث الأنهار والمنابع.

ونفخ الملاك الرابع في البوق، فأظلم ثلث الشمس والقمر والكواكب.

ونفخ الملاك الخامس في البوق، فانفتحت عيون الهاوية، وتصاعد من هذه العيون دخان وخرجت من الدخان أسراب من الجراد تشبه العقارب ذات الزبانات المليئة بالسم، تلدغ كل شيء بقي على قيد الحياة. كان شكلها كالجياد المعدة للحرب، ووجوهها مثل وجوه البشر، وقرونها مثل شعور النساء، وأسنانها كأسنان السباع. وكانت أصواتها مثل صهيل الجياد التي تجري في الحرب.

واكتشفت جرادة منها الأب ياناروس يختفي وراء قطعة الحجر الكبيرة التي يحتضنها فانقضَّت عليه، وصرخ العجوز صرخة شديدة وفقد الوعي وهو نائم. وعندما استعاد وعيه اختفى أمامه كل شيء- الملائكة والجراد- ووجد الأب ياناروس نفسه في خرائب مدينة كبيرة كان الدخان لا يزال يتصاعد من بيوتها، وفي الجو تفوح رائحة الجيف النتنة، والكلاب والقطط الجائعة تجري بين الأطلال. والأب ياناروس يقف في أحد مفارق الطرق، يبدو وكأنه يسائل نفسه عما إذا كان قد أصيب بالجنون. ومن حين لآخر يمر رجل يترنح كالسكارى، جسمه جسم رجل حقيقي، لكن وجهه مسخ مشوه، ممزق ملطخ بالطين، يبرز من مكان فمه خرطوم يقطر دمًا. وكان الأب ياناروس يقف مقيد الحركة في مفترق الطرق يمد يده كالمتسول قائلًا: «أتوسل إليك يا سيدي العزيز. قل لي هل أنا مجنون؟» ويجيبه الرجل ماضيًا لا يتوقف: «ماذا أقول لك يا سيدي العزيز؟ هل تستطيع أن تقول لي أنت عما إذا كنت أنا مجنونًا؟ أنا مثلك لا أعرف شيئًا». ويهز خرطومه وينفجر ضاحكًا ويمضي إلى حال سبيله. ويظل الأب ياناروس واقفًا في مفترق الطرق لا يريم، يمد يده وينتظر القادم الآخر ليسأله، ونفسه تفيض بالقلق.

«هيه يا أب ياناروس! يا أب ياناروس!».

وسمع النداء فجأة وهو في أعماق النوم. واستيقظ. ونظر حوله، وجرى نحو الباب. وخرج إلى الفناء، فلم يجد أحدًا. وقال لنفسه: «الرب أخذته الشفقة بي، فناداني لأستيقظ قبل أن أكتشف أسراره».

وعاد إلى الكنيسة. ووقف أمام أيقونة المسيح يمد قامته على أطراف قدميه ليقبل الأصابع النحيلة التي تمسك بالكرة الأرضية.

وتوصل إلى المسيح قائلًا:

- يا رب. ارحم البشر. لا تدع رؤياي تتحقق. امنحنا السلام يا رب. لسنا نسألك أكثر من ذلك. نحن لا نطلب طيبات الدنيا، ولا الراحة ولا المجد والتكريم، بل السلام فقط. أما هذه الأشياء كلها، فافعل فيها ما تشاء.

وشد حزامه ونظر إلى المسيح قائلًا:

- هناك يا رب أشياء كثيرة يجب أن نفعلها. فاليوم سيتقرر مصير كاستللوس. فلا تتركنا في هذا الوقت العصيب. تعطَّف على قلب القومندان ليكون هادئًا. فالأنصار سينزلون اليوم. وتعطَّف عليهم أيضًا، وافتح عيونهم، ليدركوا أننا إخوتهم. إن قلب الإنسان مثل شرنقة القز. انفخ فيه يا رب لتخرج الفراشات من داخله.

واتجه نحو الباب. ولم يكد يصل قرب العتبة، حتى نظر إلى الأيقونة مرة أخرى قائلًا:

- لا تلعب بنا. نحن بشر، ولا نستطيع أن نتحمل ذلك.

وفي الخارج أعشى ضوء الشمس عينيه. وشرد نظره في قبور الفناء. فاقترب من القبر الذي بناه لنفسه، ولوَّح له بيديه قائلًا:

- انتظر. فيجب أن أتم أولًا الرسالة التي كلفني الله بها عندما وضعني في هذه الدنيا. لا تتعجل.

كانت أعشاب شيطانية تنمو بين ألواح الحجر حول القبر. وتضوع الجو بعبير الربيع. وخرجت الفراشات الأولى من القبور، تضرب في الهواء الدافئ بأجنحتها التي لم تتدرب بعد. ورأى الأب يا ناروس زنبورًا له لون أخضر وذهبي يتخبط على الجدران على ضجيج مسموع.

وقال:

- أشفق علينا يا رب. الشمس قد ارتفعت في السماء. أظن أنني نمت كثيرًا. وعلى كل حال، فأهل القرى المجاورة لن يتأخروا أكثر من ذلك ويجب أن أدق الجرس.

ونهض بصعوبة. وفجأة أصابه ألم شديد، حتى اعتقد أنه سيقع مريضًا. وأخذ فناء الكنيسة يلف ويدور أمام عينيه. وأخيرًا توقفت حالة الدوار. فقال لنفسه هامسًا، وهو يتحسس جسمه براحة يده في حنان:

- تشجع أيها البغل العجوز. أنت تسير على شفا الهاوية. فليس هذا وقت التعثر في السير.

وفكر في نفسه: «سيكون هذا يومًا عظيمًا، طالما أنني أمسك زمام المبادرة».

ووصل إلى حبل الجرس في خطوتين، وبدأ يقرعه بطريقة متعجلة وفي إصرار. كان يشعر بأن هذا الجرس هو فمه الحقيقي، وأن الكنيسة بكل ما في جدرانها من قديسين وشياطين، وبفنائها الذي تملؤه القبور، هي جسمه الحقيقي.

ونظر إلى الصورة في منتصف القبة في أعلى الكنيسة، فشعر بروحه- الخفاش المرسوم- تصرخ بين يدي الخالق.

وخرج من الجرس المصنوع من البرونز والفضة صوت جمهور يرن في الهواء الدافئ المعطر، ويشعر الجميع- بما عدا مسلمي الأتراك- أن هذا اليوم هو سبت النور. ومن الأرض صعد إله، على رأسه إكليل من العشب الأخضر الرقيق، تنبعث منه رائحة عيد القيامة.

وكان الأب ياناروس يضع يده فوق عينيه من حين لآخر، ينظر بعيدًا عسى أن يلمح على الطريق أهل القرى المجاورة. في بعض اللحظات كان يبدو كأنما انعكس على وجهه نور قيامة المسيح، ثم لا يلبث فجأة أن يكسو وجهه الظلام. كانت لا تزال ترن في أذنيه ضحكات الأنصار وهو ينصرف من معسكرهم في الفجر عائدًا إلى القرية. وخيل إليه أنه يسمع الجبل نفسه يتضاحك ويسخر منه.

وارتعد الأب ياناروس. هبت على قلبه ريح باردة. وفكر في نفسه: «هؤلاء الناس ليس لهم إله. فهم لا يخشون أحدًا ولا يحترمون شيئًا. ومن المؤكد أنهم سيحنثون بقسمهم».

في تلك اللحظة كان العجوز يرتعد وهو يدرك أنه أدخل الذئاب في حظيرته وأصابه التعب فجأة، فترك الحبل وسكت الجرس. وأرهف أذنيه، فسمع أبواب القرية تتخبط وضجيج الأصوات يقترب. ثم جلس على المقعد الحجري وجفف جبهته. وتردد وقع أقدام. وتوقف شخص ما أمام البوابة.

ورفع العجوز رأسه، فرأى على عتبة الكنيسة رجلًا قصيرًا عريض الجسم له صدغان ممتلئان وشعر طويل قذر. وقال الأب ياناروس:

- هذا أنت يا كرياكوس؟ ادخل. فأنا في حاجة إليك في هذا الوقت بالذات.

وأجاب الآخر دون أن يتحرك من العتبة:

- أنا تحت أمرك يا أبانا. ثم إن عندي رسالة لك.

- ممن؟

- من القومندان. فهو يريد منك أن تذهب لمقابلته.

- قل له إني مشغول. قل له إنني لا أخدم الرب والسلطان في نفس الوقت. أنا لا أخدم سوى الرب.

- سامحني يا أبانا، فلست أجرؤ أبدًا على أن أقول له ذلك. أشفق عليّ واذهب إليه بنفسك...

- سأذهب عندما يعطيني الرب الإشارة أن كل شيء قد تم إعداده. في تلك اللحظة فقط سأذهب لمقابلته. قل له ذلك. واسمع يا صديقي المسكين كرياكوس. إذا كنت تخاف إلى هذه الدرجة، لا يمكن أن تصبح قسيسًا. فالقسيس لا يخاف البشر.

وتنهد كرياكوس وقال:

- بالنسبة لي أنا، أخاف البشر كما أخاف الله. فماذا أفعل؟

وشعر الأبياناروس فجأة بالشفقة نحو هذا الرجل الضئيل، الضعيف البسيط. فقال يأمره:

- تعال إلى جانبي. اركع.

وفهم كرياكوس، فبدأ يرتعد.

وخر على ركبتيه، وأحنى رأسه. ووضع الأب ياناروس على رأسه يديه الكبيرتين الدافئتين الثقيلتين المبللتين. وأبقاهما كذلك عدة لحظات دون حركة، ثم رفع عينيه نحو السماء هامسًا:

- أيها الإله القوي.. اهبط على هذا الزق الفارغ واملأه بقوتك.. أنت الذي تعطي القوة للنملة، وللبعوضة، وللدودة الصغيرة، أعطها أيضًا لهذا الرجل، هذا المخلوق. أيها الإله القوي، أعط القوة لكرياكوس منادي كاستللوس.

ورفع الأب ياناروس يديه قائلًا:

- انهض.

لكن كرياكوس لم يتحرك، بل قال في توسل:

- أريد المزيد يا أبانا.. المزيد.

ووضع الأب ياناروس راحتيه على الرأس المنحنية أمامه، وظل هكذا فترة طويلة.. ثم سأله في رقة:

- بماذا تشعر يا كرياكوس؟

لكن كرياكوس لم يرد.. كان يشعر بحرارة حوله تهبط من يدي العجوز، يشعر بنهر فياض.. أي شيء هذا؟ نار، أم بهجة، أم قوة؟ لا يدري.. لكنه يشعر فقط بأن جسمه يمتلئ به.

وأمسك بيد الأب ياناروس وقبَّلها. وأشرق وجهه، ونهض قائلًا:

- سأذهب إلى هناك.

ونظر إليه الأب ياناروس في دهشة:

- إلى أين إذن؟

- أقول للقومندان إنك لا تستطيع أن تعمل من أجل الرب ومن أجل السلطان في نفس الوقت، لكنك تعمل من أجل الرب فقط، وأنك ستذهب لتراه حين يأمرك الله.

ورفع العجوز يده في سعادة قائلًا:

- بارك الله في حياتك.. هل فهمت الآن إذن؟

- فهمت يا أبانا.

- ماذا فهمت؟

- فهمت أنني كنت زقًا فارغًا.. أما الآن فقد امتلأت وأصبحت أقف على قدمي.

ورأى الأب ياناروس كرياكوس يتجه نحو المعسكر بخطوات ثابتة متعجلة، وأصابه الغضب فجأة وهو ينظر إليه.. فقال بصوت مرتفع:

- أيها الإنسان البائس، أنت تستطيع أن ترفع الجبال وتصنع المعجزات، لكنك بدلًا من أن تفعل ذلك، تمرغ نفسك في القذارة والخمول والشك. إن الرب في داخل نفسك.. أنت تحمله دون أن تدرك ذلك.. ولست تكتشفه إلا ساعة موتك، لكن بعد فوات الأوان. أما نحن الذين نعرفه، فنشمر عن سواعدنا ونرفع أصواتنا عسى أن ننجح بعد هذا في أن نسمع أنفسنا.

وعاد مرة أخرى يدق الجرس بحماس أشد.

وتساءل أهل القرية:

- ماذا أصابه ليقرع الجرس هكذا فجأة؟ هل أخيرًا قرر البغل العنيد أن يقيم المسيح؟

وانفتحت الأبواب، وخرج الرجال، تتبعهم العجائز بالتلفيعات حول رؤوسهن.

- يعلم الله ماذا دار في رأسه من جديد.. هيا نرى!

وكان أندرياس أول من صعد إلى عتبة الكنيسة، لا يزال يمسك في يده مطرقة الحداد الضخمة.. وأمسك بحبل الجرس قائلًا:

- دعه لي يا أبانا.. فأنت متعب.

وقال الأب ياناروس:

- شكرًا يا أندرياس.. فاليوم يوم عظيم.. وأمامنا الكثير مما يجب عمله.

- هل ستقيم المسيح إذن يا أبانا؟

وضرب الأب ياناروس في حنان على كتف أندرياس:

- لنبدأ بالإنسان.. وسيجد الرب دوره بعد ذلك.. فلا تتعجل.

كان يحب هذا الحداد، ويدعوه دائمًا إلى جانبه في اللحظات العصيبة. وهو رجل ثرثار غليظ الجسم، لكنه واضح كالماء.. كان يعمل في التعدين في سالونيكا. وهناك تعرف إلى أحد اليهود، استطاع أن يسيطر عليه وأن يقنعه بأنه جائع مقهور.. ثم اختلط إذ ذاك بأعضاء جدد في العمل السري. كانوا في البدء يعقدون اجتماعاتهم في الكهوف، ثم أصبحوا يعقدونها في الهواء الطلق. وأخذوا يحملون اليهودي على أكتافهم، ورأسه محشوة بالشعارات، ويتجولون به في الشوارع، يحطمون واجهات المحلات بقطع الحجارة أو المطارق. وقبض عليهم البوليس وألقي بهم في السجن، ثم أفرج عنهم، فعادوا من جديد. واستمروا كذلك حتى تعب أندرياس من الأمر، فاستقر رأيه على أن تحقيق العدالة الاجتماعية يحتاج إلى وقت طويل، وأن الأغنياء سيظلون متخمين والفقراء يصرخون، وأن النساء سيبحثن دائمًا عن الألوان المزركشة، والقساوسة سيظلون يبرزون كروشهم الكبيرة في الميادين العامة في صحبة رجال السلطة، وسوف تبتلع السجون دائمًا أشراف الناس... ويمضي اللصوص في الشوارع، والعالم لن يتغير. لهذا عاد أندرياس إلى القرية وأنشأ دكان الحدادة، وقرر أن يصبح مالكًا هو أيضًا.

لكن الماضي لا يتركك هكذا بسهولة. ارتبط أندرياس بمدرس القرية، واستعاد لديه أفكاره المحببة، وإذ ذاك فقد طمأنينته. ولم يعد العالم يبدو في نظره مقبولًا، وأصبح مرة أخرى يريد تغييره. وفي أحد الأيام قابل الأب ياناروس فقال له:

- أنا لا أعرف الرب، ولكني أعرف نفسي. لست سوى حداد مختلط التكوين، بطيء الفهم غليظ القلب. ومع ذلك فلو كنت أنا الذي خلقت هذا العالم لخلقته أفضل من ذلك.

وابتسم القسيس وأجابه قائلًا:

- العالم يا أندراوس يخلق ويتجدد كل يوم، فلا تيأس. من يدري؟ ربما يدعوك الرب في صباح يوم جميل لتخلق له العالم الذي تراه في ذهنك.

وأخذ الاثنان يضحكان وأصبحا من ذلك الوقت صديقين.

أمسك الحداد حبل الجرس بيديه الكبيرتين اللتين يغطيهما الجلد الميت، وبدأ يقرع في جنون، وقال وهو يضحك:

- سوف أوقظ الموتى.. اليوم يوم عظيم.. نحن في حاجة إلى كل الناس، حتى الموتى..

وغمز للقسيس بطرف عينه في خبث، وقال:

- أنا أشم رائحة شيء ما يا أبانا.. في الليلة الماضية لم أستطع أن أنام، فخرجت أتجول في الحقول، وفجأة رأيت في الطريق الضيق الصاعد إلى الجبل شيئًا ما لم أستطع أن أميزه: إما ثوبًا كهنوتيًا، وإما جزءًا من فستان أسود.

وقال القسيس:

- إنه ثوب كهنوتي.. وفي هذا الثوب عجوز كان يحمل مصير قريته.

وسأل الحداد في ارتباك:

- وماذا... و... هل تفاهمت مع الشخص المطلوب؟ هل وصلت إلى اتفاق؟

- وصلت إلى اتفاق.

وترك الحداد الحبل وقال وهو يخفض صوته وعيناه تقدحان:

- معنى ذلك إذن أن السكين سيبدأ العمل يا أبانا؟

- السلام هو الذي سيبدأ العمل يا أندرياس. رد سكينك إلى غمده.

وقال الحداد:

- ليس هذا ما نريد.. ألا تزال تؤمن بذلك يا أبانا؟ ألم تفهم بعد؟ أن ما نحتاج إليه هو السيف.

- الحب سيف، يا عزيزي أندرياس. لم يكن للمسيح سيف غيره، وبواسطته أخضع العالم!..

- المسيح كان يستطيع أن يصل إلى ذلك بأي طريقة من الطرق، ولو حتى بعود من الغاب أو بريشة من ذيل ديك.. أما نحن.. أعني أن الرب يملك وسائل لم تصنع للبشر.

- المسيح في داخلنا يا أندرياس، ووسائل الرب هي أيضًا وسائلنا. أليس المدرس صديقك؟ اذهب إليه يومًا وسيشرح لك ذلك. كل ما في الأمر أنه يطلق على المسيح اسمًا آخر. لينين. وبالمناسبة هل رأيته في الفترة الأخيرة؟ كيف حاله؟

- وكيف تريد أن يكون حاله يا أبانا؟ إنه يكافح الموت، وروحه بين أسنانه. لكنه لا يدع نفسه يسقط. وهو يقول: إني أحمل فكرة عظيمة، بحيث لا يمكن أن أموت.. وهذا ما يبقيني حيًا!

- وهذا ما يبقيني أنا أيضًا، وهذا ما يبقي العالم كله فلا يهلك. فالمدرس يقول الحق. احمل له تحياتي.

ثم خفض صوته ليبلغ أندرياس بتعليماته، بينما أنصت هذا فاغر الفم في سعادة غامرة.

قال الحداد في النهاية:

- حسنًا.. لقد تم الاتفاق إذن.. المجد لله! لقد اتخذت في النهاية الموقف العاقل. لكن إذا كان لا بد أن يعمل السكين، فاعلم يا أبانا أن السكين سيعمل. فالعالم يحتاج كثيرًا إلى من يشذب أطرافه.

- هذا صحيح يا ا بني. فالعالم شجرة، ولا بد أن يأتي وقت تنمو فيه الفروع غير المثمرة وتقوي وتمتص كل عصارة هذه الشجرة دون فائدة. لكن لنترك للرب مهمة تشذيبها.

كان الأب ياناروس يعلم جيدًا أن البشر هم أيدي الرب، وأن الرب كلفهم بقص أطراف هذه الشجرة، لكنه لم يشأ أن يقول ذلك للحداد حتى لا يزيد إثارته.

كانا يتبادلان الحديث همسًا، بينما خرج أهل القرية من الأزقة، وبدأ فناء الكنيسة يمتلئ بهم.

أعيان القرية يضعون على رؤوسهم قلانس من الفرو، وفي أيديهم مسابح من الكهرمان،وخلفهم أبناؤهم وخدمهم. أما معظم الناس، فكانت وجوههم تفيض بالقلق وخدودهم غائرة

وعيونهم متلصصة كعيون الثعالب. كثيرون منهم حفاة، وبعضهم ينتعلون نعالًا مثقوبة، وجميعهم يرتدون أسمالًا بالية. وأخذ بعض العجائز ممن يضعن تلفيعات سوداء يدندنَّ بكلمات الندب الجنائزي. وانبعث من الحشد ضجيج يشبه الأنين الصادر من بعيد، أو صرير فرع الشجرة الميت حين تكسحه الريح.

كان هناك في الحشد رجلان عجوزان وثلاث نساء ممن أصابهم الخوف باضطرابات عقلية، أخذوا يجرون هنا وهناك خلف الناس يطلقون الضحكات الكريهة. واشتركت معهم أيضًا بوليكسيني العجوز خادمة مندراس. كانت تعقد شعرها بشريط. لكن مخدومها القاسي لمحها فطردها بتقطيبة من جبينه.

كانت الشمس تقترب من السمت، وتلتهب كأنها ستمطر نارًا. واشتدت سخونة الحجارة فانبعث منها الصهد وفجأة تردد من جانب الجبل صوت شديد كأنه صوت حشد يمشي. والخطوات المتعجلة تدحرج قطع الحجارة، والكلاب تنبح، والضجيج يرتفع، يختلط فيه الصياح بالعويل.

وأسرع الأب ياناروس نحو عتبة الباب، فرأى في جانب الجبل حشودًا كثيرة من النساء والرجال تهبط من القرى المجاورة وتحمل رايات الكنيسة. ورأى حشودًا أخرى تلحق بها من اتجاهات متقابلة. واتسعت موجة الحشود على مرمى البصر، ثم بدأت تتدفق حثيثًا في اتجاه كاستللوس. وفي المقدمة سارت الأمهات الخمس في ثياب الحداد. وعندما سمعن دقات الجرس، بدأن يرددن المراثي.

كانت الأولى، وهي كروستالينا العجوز، قد أرخت الشال على كتفيها وأخذت تندب بصوت متهدج. وسرعان ما التقطت الخيط عجوز أخرى تسير في طريق مجاورة، فردت عليها وأخذت تخبط على صدرها. ولم تلبث كل الأمهات واحدة بعد أخرى أن بدأن يبكين أبناءهن، تنتقل آلام الأمومة من أم لأخرى، تتناولها هذه من تلك، فتزيد عليها وتنقلها إلى غيرها بحيث لا تتوقف لحظة.

وفي الأفق صعدت سحب سوداء تغزو قبة السماء. واختفت الشمس وأظلمت الدنيا. فأسرع الفلاحون خطاهم وقد أصابهم ما يشبه الذعر.

وقف الأب ياناروس على عتبة الكنيسة، وشعر بقلبه يدق وهو يرى شعبه آتيًا نحوه، فقال لنفسه:

«أخيرًا جاءت الساعة المباركة. هذا يوم يحدد مصير العالم!».

وظهر الرجال من خلف الرايات يحملون أدواتهم على أكتافهم: الفئوس والمعاول والمناجل والمذاري والمدرات. ظهورهم محنية وأفواههم صامتة. كانت الشمس قد وصلت إلى أوجها. ولا بد أن ريحًا عاتية هبت في أعالي السماء، فقد تفرقت السحب وأخذت الجبال تبرق بالنور.

وأثار هذا التجمع الجديد انتباه الغربان، فحطت على الصخور تشحذ مناقيرها. كانت تتخيل في رؤوسها الصغيرة الخبيثة أن هذا الجمع سيتمخض عن عدد من الجيف. ذلك أن ما يسميه الناس كفاحًا مقدسًا، تسميه الغربان وليمة مقدسة. وما نسميه نحن بطلًا، تسميه الغربان قطعة ممزقة من اللحم.

ووصل الموكب إلى كاستللوس، فتلقاه الأب ياناروس بذارعين مفتوحين:

- مرحبًا بكم في بيت الرب يا أبنائي. هذا هو الملاذ الأمين، الملجأ الذي لا تمتد إليه يد. تعالوا اقعدوا تحت جناحي الرب المخلص، ولا تخشوا شيئًا. فهذا اليوم سيشهد نهاية آلام المسيحية.

ولم يتسع فناء الكنيسة لهذا الحشد، فامتد إلى الشارع. وأخذ الحشد يتململ. وبدأت بعض النسوة في ثياب الحداد يرددن البكائيات في صوت خفيض. كان يجلس أمام القديس، مندراس العجوز وحوله أولاده وثلاثة آخرون من أعيان كاستللوس، هم الحاج، وستاماتيس، والأب تاسوس. ومن خلفهم وقف جمهور الشعب ينتظر فاغرًا فاه.

كان الجميع ينظرون إلى الأب ياناروس. والشمس تسقط عمودية على رؤوس الناس ووجوههم، وتبرز في قسوة عيونهم الجاحظة وخدودهم الغائرة ومرافقهم المليئة بالتجاعيد. ورفع رجل عجوز عقيرته، وقد انتفخت عيناه بالدموع. صاح:

- ماذا إذن يا أب ياناروس؟ لماذا جمعتنا؟ إذا كان لديك ما يقال، فقله. لقد وصلنا إلى قاع الهاوية. كل ما كان عندنا أكلناه. كل ما كان في عيوننا من الدمع ذرفناه بكاء. ومع ذلك فلا زلنا نتكلم. فالكلمات- عليها اللعنة- لا تستطيع أن تعبر عن ألم الإنسان.

وتهدج صوته. وشعر بالخجل فغطى وجهه براحة يده. ونزعت امرأة عجوز تلفيعتها وأرسلت شعرها الأبيض على كتفيها ورفعت قبضتها لتخبط على صدرها وتبدأ البكاء والنحيب. ولكن ستليانوس النساج الذي كان يقف إلى جوارها جذبها من ذراعها قائلًا:

- لسنا في حاجة إلى أنينك يا خالة ماريورا. لا تخبطي صدرك. أجدر بك أن تضعي ثقتك في الله.

وصرخت العجوز فيما يشبه العواء، وقد أثارها أنهم لم يتركوها تعبر عن ألمها:

- لكني لم أعد أحتمل يا ستليانوس. لم أعد أحتمل. أين الرب؟ هل سيأتي إلى كاستللوس لينظمها؟ إنما أريده الآن في هذه اللحظة. فإذا لم يأت الرب لنجدتنا يا ستليانوس، فما جدوى ما تقول إذن؟

وقاطعها كرياكوس في انفعال. كان قد عاد لتوه من المعسكر ثائرًا مضطربًا. قال:

- الأب ياناروس هو ممثل الرب في كاستللوس. اصمتي، وسوف يتكلم الأب ياناروس. الرب سيتكلم من خلال فمه. قليلًا من الصبر يا خالة ماريورا.

وفي ناحية أخرى كان عم تاناسيس حلاق الصحة يقف بعيدًا وقد ثارت أعصابه. كان مريضًا متلعثمًا خفيف اللحية. أخذ يلوح بكميه الواسعين، وعيناه تحملقان في القسيس في شعور بالخوف:

- شيطانان تقاسما اليونان. أنا أعرف ذلك. شيطانان عليهما اللعنة: أحدهما أحمر والآخر أسود. لكن الاثنين ليسا يونانيين. فليخرسني الله يا أب ياناروس إذا لم تكن قد وضعت في رأسك أن تطرد أحدهما بأن تفتح الباب للآخر. ولكن ماذا عن ذاك؟ هل تستطيع أن تقول لي كيف نطرده بعد ذلك؟ بأي وسيلة؟ ومتى نصبح سادة أنفسنا؟ هل خلت الأرض من اليونانيين حتى نسلم اليونان؟

وصاحت أصوات عديدة:

- اسكت! اسكت! القسيس سيتكلم.

ورسم الأب ياناروس علامة الصليب، وتسلق المقعد الحجري المجاور لباب الكنيسة وصاح:

- السلام يا أبنائي، السلام! لقد وصلت من مكان بعيد جدًا. ليس من قمة الجبل، لكن من قمة الرب. عندي خبر عظيم أقوله لكم، فأنصتوا. فلست أنا الذي يتكلم، لكنه الرب نفسه. لقد ركعت على بلاط الكنيسة، وصرخت في الرب أن يشفق علينا. وبكيت وتوسلت. وفي إحدى اللحظات أضلني الألم فرفعت صوتي على الرب. أنا الدودة الصغيرة، هددته. لكن الرب أخذته الشفقة بي، فسمعت من فوقي صوتًا يقول: «تعال!».

- إلى أين يا إلهي؟

- اتبع خطواتي وسوف أرشدك.

«وسار أمامي، فتبعته كالكلب، واتخذ طريق الجبل وأنا خلفه، حتى وصلنا إلى معسكر الأنصار... لا تصرخ ولا ترفع قبضتك يا مندراس. أنت يا هذا، لا تحاول أن تهرب من الباب. الرب يخاطبك فاحترمه. أنا الفم، وهو الصوت. فأنصتوا.

«وصلنا إلى معسكر الأنصار، فتوقف. وفتح فمه، فلم يسمعه أحد غيري. كان يمليني وأنا أعيد كلماته وأقولها للأنصار».

وصمت الأب ياناروس لحظة وجفف جبهته بطرف كمه. كان يشتعل.. الآن أدرك لأول مرة وهو يتكلم أنه كان يقول الحقيقة، وأن الأمور جرت بهذا الشكل فعلًا، كان يشعر باللهب يحيط به،

لكنه يعرف أنه ليس لهبًا بل هو الرب.

وقال الأب مندراس وقد نفد صبره:

- وماذا بعد ذلك؟ اترك الجملة البليغة ولو مرة واحدة. أنت ترهقنا. ماذا قررت مع رجال البيريه الأحمر؟ ما هي الاتفاقات التي وصلت إليها؟ أنا أخاف منك يا أب ياناروس. أنت من نوع ملتهب جدًا، فلا تشعل لنا القرية حريقًا!

وصاحت الأصوات من كل جانب:

- لا تحرق القرية يا أب ياناروس! لا تحرق القرية!

كانت العاصفة تجتاح الشعب فتدفع أمواجه كأمواج البحر.

ولوَّح الأب ياناروس بذراعيه فهدأ الحشد. وعاد صوت العجوز يتردد عميقًا:

- مباركة يا أبنائي هذه اللحظة التي يصل فيها الشعب إلى حافة الهاوية، ويرى أمامه فجأة أعماق الجرف فيمد يده ليتعلق بثوب الرب! وقد مدت كاستللوس يدها فأمسكت بثوب الرب، وهكذا جاء الخلاص.

وعوى مندراس العجوز:

- كلمات! دائمًا كلمات! تكلم بالتحديد. ما الذي تآمرت عليه في أعلى الجبل مع ابنك الخائن؟ اذهبوا وابحثوا عن القومندان! لقد ضعنا. أنصت لي جيدًا يا أب ياناروس! احذر على نفسك إذا حاولت أن تسلم مفاتيح كاستللوس! هل تسمعني؟ هل تسمعونني يا أهل كاستللوس ويا أهل الكفور؟ هذا ما أقول لكم، لقد سمعتم أحدنا وسمعتم الآخر، وعليكم أن تختاروا.

- الأب مندراس على حق. نعم، على حق!

- الأب ياناروس على حق! نعم، على حق!

كان الناس جميعًا يصرخون في صوت واحد. والأب ياناروس يلوح بذراعيه ثم بساقيه حتى تكاد تراه يرقص فوق المقعد. كان يشعر حوله بالرب يشتعل كموقد النار. فماذا يخاف إذن؟ وصاح، وروح تقفز في داخله بعنفوان شديد:

- يا أبنائي، لقد تخطينا الخوف وأخضعنا الألم. فلننهض إذن! هل نحن قطيع من الخراف يستسلم لسكين الجزار؟ فلننهض كلنا معًا! هذا ما أمرني الرب أن أبلغكم إياه: قفوا!

والتفت على كرياكوس، وكان قد اقترب منه يتأمله فاغرًا فاه وعيناه تبرقان، وقال له:

- يا كرياكوس يا ابني. اذهب إلى الهيكل وأحضر لي الإنجيل من فوق المائدة المقدسة. إنه أيضًا سيأتي معنا.

وصاح الحداد وهو يلوح بمطرقته فوق رأسه:

- ها قد وقفنا جميعًا! إلى الأمام أيها الفتية!

لكن الأب مندراس شق طريقه وسط الحشد متجهًا إلى بوابة الكنيسة وهو يصيح:

- ليأتِ معي كل المخلصين! لنذهب ونبلغ القومندان ما سمعناه. الأب ياناروس دبر لنا مكيدة.

ووصل إلى بوابة الفناء يتبعه بقية الأعيان وأولاده وخدمه. واستدار نحو الشعب الذي كان يموج بالانفعال ولا يدري أي جانب يتخذ، وصاح:

- إذا كنتم تؤمنون بالمسيح يا إخوتي، فإن أحدًا من المتمردين لن يطأ أرض هذه القرية! أما أنت يا أب ياناروس، فاحترس لنفسك، فسوف نسوي الحساب معًا!

واختفى في خطوات سريعة، يتبعه أصحابه، في اتجاه المعسكر. ومد الأب ياناروس ذراعيه كأنما يريد أن يحتضن الحشد. كانت الشمس تسقط على لحيته وشعره المشعَّث، والصهد يتصاعد من جمجمته. وصاح:

- إذا كنتم تؤمنون بالمسيح يا أبنائي فأنصتوا لي! عرفت أن الأنصار قد قرروا الاستيلاء على كاستللوس هذا المساء يوم سبت النور. ولم تكن ستبقى فيها قطعة حجر على قطعة حجر. فلم يعد أمامنا سوى فرصة واحدة، هي الصلح. الرفاق سينزلون، لكنهم لن يضطهدوا أحدًا. فقد أقسموا لي أن يحترموا أرواحنا وشرفنا وممتلكاتنا. كلنا معًا سنحتفل كإخوة بعيد قيامة المخلص. الثناء على اسم الرب يا أبنائي! لقد طلبت كاستللوس الصلح. الرب يدبر ويرسم ما لا يدركه البشر. فربما من هذه القرية المتواضعة يبدأ خلاص اليونان.

وأدار عينيه في الحشد. كانت طيات ردائه الكهنوتي تلتوي على جنبيه كأنها جناحان. وعاد يصيح:

- في هذه الدقيقة، وأنا أخاطبكم يا أبنائي، يقف الرب إلى جواري تملأه المسرة. لا يراه أحد، لكنني أراه. أنا خادمه. اطمئنوا... فالرب قد فتح لنا طريقًا بين الشيطانين الاثنين، الأسود والأحمر بعيدًا عن هذين الشيطانين. وهو يعطينا الإشارة: تعالوا!

وسرت رعدة في الحشد. واستطاعت العجائز الخمس أن تلمحن على المقعد على يمين القسيس، نورًا ورداء ناصعًا وعينين تبرقان.

وفي نفس اللحظة، ترددت صرخة رهيبة، وظهر كرياكوس على عتبة الكنيسة شاحبًا فاقد الصواب، يكسو وجهه طابع وحشي. وصرخ وهو يلهث:

- أيها الإخوة، العذراء تبكي!

وزمجر الناس واندفعوا حول كرياكوس يسحقونه في جدار، حتى سالت الرغوة من فمه. كان الحشد يصرخ:

- ماذا تقول يا كرياكوس؟ قل لنا. هل رأيتها؟

- إنها تبكي! رأيتها! ذهبت أبحث عن حامل الإنجيل. كنت أمر أمام الهيكل فرفعت عيني.. رفعت عيني لأحييها، فماذا رأيت؟ دمعتين كبيرتين تسيلان من عيني سيدتنا العذراء. إنها تبكي. تبكي اذهبوا وانظروا ولا تخنقوني! اذهبوا وانظروا!

كان الأب ياناروس قد قفز من على المقعد لينصت إليه. وشق بمرفقيه طريقًا ليعبر إلى داخل الكنيسة. كان يعرف أن كرياكوس رجل يخضع للعرافات، ولكن ربما تكون العذراء قد صنعت معجزة حقًا. ربما كانت تبكي بالفعل عندما شعرت بأن القرية في خطر؟

وصاح القسيس:

- أفسحوا، أفسحوا. لماذا تضجون هكذا وتحملقون بعيونكم؟ إنها أم قبل كل شيء. ولا بد أن تتألم من أجل أبنائها وتبكي. أفسحوا!

وعوى أهل القرى:

- نريد أن نرى! نريد أن نرى ونلمس!

وأزاحت كروستالينا العجوز الشال الأسود إلى الخلف وصرخت بصوت هستيري:

- أيتها العذراء البتول! أنا مثلك أم. أريد أن أشرب دموعك ليبرد صدري!

وأطلقت في تلك اللحظة صرخة ضعيفة وفقدت الوعي. ورفعتها العجائز الأخريات رفيقاتها: لاكيريا ماريجو، وكريستينا، ودسبينا، وزافيرو. وبدأن العويل هن أيضًا. ووصل الأب ياناروس إلى عتبة الكنيسة. ومد ذراعيه وضغطهما على جانبي السلم. وقال يأمرهم:

- قفوا. لن يدخل أحد. ستحطمون لي كل شيء، كراسي الكنيسة وحاملات الشموع وقبر المسيح. انتظروا هنا، وسأحضرها لكم.

لكن الحشد لم يكن يسمع شيئًا.

- المعجزة! المعجزة! نريد أن نرى المعجزة!

واهتاج الأب ياناروس، فصرخ:

- أي معجزة؟ ليست هذه معجزة. لا تصرخوا هكذا. لو لم تبك العذراء وهي ترانا نسقط في المجاعة، لكان هذا معجزة. أقول لكم قفوا ولا تتدافعوا. هيه يا أندرياس، أوقف الحشد ولا تدع أحدًا يدخل.

ومرق الأب ياناروس إلى الكنيسة، وقلبه يدق. لم تكن هذه أول مرة يرى فيها معجزة، لكنه لم يتعود على ذلك. وأخذ يرتعد. كان يفضل ألف مرة أن يرى أسدًا ينتصب أمامه ولا يرى معجزة. لأن وراء المعجزة، يكون الرب. الرب يهبط من السماء في المعجزة. ولهذا لم يستطع الأب ياناروس أن يحتمل اللهاث الرهيب. تقدم وركبتاه تصطكان. كان يقول لنفسه: أنا ذاهب أرى سيدتنا العذراء. ستكون قد هبطت من الأيقونة ووقفت على أرض الكنيسة أمام الهيكل تبكي. كيف أواجهها، وكيف أمسك بها وأرفع جسدها المقدس لأحمله إلى شعبها؟

وخلال النافذة كانت بعض الأشعة المتفرقة تسقط في المحراب، وقبر المسيح المذهَّب يبرق في رقة، والزهور البرية التي انتثرت فوقه تفوح برائحة ضعيفة. وكان الحشد من خلف الأب ياناروس يتدافع في أمواج متلاحقة في الساحة الأمامية للكنيسة، يحاول أن يزيح أندرياس لينتشر داخلها. وشعر الأب ياناروس بأنه يستمد الشجاعة من ضجيج الناس. فأخذ يتقدم على أطراف قدميه وعيناه مثبتتان على الهيكل. وفجأة توقف وكتم أنفاسه. فقد رأى في المحراب ومضة ضوء أزرق أبرقت فمزقت الظلمة. وغاصت ركبتاه، وجفت شفتاه. وأخذ يتهته بصعوبة:

- النجدة يا سيدتنا، لا تعشي بصري.

ثم أضاف:

- أراك، أراك، وأفقد النور!

ومد يده يتعلق بأحد الكراسي لكنه لم يجد الفرصة. فقد استطاع الحشد الهادر أن يغلب أندرياس وأن ينتشر في الكنيسة. وتحول قبر المسيح إلى حطام، وسقط المسيح أرضًا. وحاول كرياكوس أن ينحني ليلتقطه، لكن الشمعدان وقع عليه فانبثق الدم من رأسه وسال على شعره القذر، ومع ذلك لم يتألم كرياكوس، بل رفع يده نحو الهيكل وهو يصرخ:

- انظروا أيها الإخوة! انظروا الدموع تسيل!

وتوترت أذرع الجميع، ورأت كل العيون بكاء العذراء. وإذ ذاك ركع الحشد. وانثنت السيقان فارتفع من بلاط الكنيسة صوت ارتطام الركب الثقيلة. وفجأة تضاءل الضوء، وهدر الرعد، وغطت السحب السماء. وفي ضوء الكنيسة الضعيف، كانت وجوه القرويين تلمع كالجماجم الهزيلة، لا يظهر منها سوى عظم، وعيون رهيبة غائرة.

ونزل عليهم سكون ثقيل، تردد فيه واضحًا صوت دقات القلوب.

وبعد ذلك عاد الضجيج يرتفع في اختلاط. كان بعض الناس يبكون، وبعضهم يتمرغون على الأرض ويطلقون الصراخ الهستيري، وآخرون رفعوا رؤوسهم وبدأوا يرتلون في جنون وبطريقة تلقائية:

- يا رب أنقذ شعبك.

وأخذ كرياكوس يضحك ويبكي في نفس الوقت كأنما أصابه الجنون، وقد تلطخ وجهه وعنقه بالدم. ووقف الأب ياناروس ينظر إلى الأيقونة ويحرك جفونه دون أن يتكلم. كان قلبه مقبوضًا وحلقه مختنقًا، حتى لم يعد يستطيع أن يتنفس. وتقدم خطوة أخرى إلى الأمام، واقترب نحو السيدة العذراء إلى حيث يمكن أن يلمسها، وشد جسمه على أطراف قدميه وألصق شفتيه بعينيها ليقبلهما. لكنه تراجع على الفور يائسًا: لم يشعر على شفتيه بأي أثر للبلل. وقال لنفسه: «ليس عندي إيمان، ليس عندي إيمان. أنا لا أرى. الجميع يرون، لكني لا أرى.».

وفكت الأمهات الخمس اللاتي يلبسن ثياب الحداد تلفيعاتهن السوداء وأسرعن نحو الأيقونة. وتخابطن أمام الهيكل وهن يطلقن صرخات حادة. كانت كل واحدة تريد أن تصل إلى السيدة

العذراء قبل الأخريات. واستطاعت كروستالينا العجوز بالضربات الكبيرة والعواء أن تمرق أمام الأخريات وأن تمد تلفيعتها لتجفف عيني العذراء. ثم عقدت عقدة على الدموع، وأخفت التلفيعة في صدرها.

وصاحت العجوز الثانية وهي تمد منديلها هي أيضًا لتمسح عيني العذراء:

- امتلأت عيناها بدموع جديدة! أيتها العذراء البتول! دموعك لا تفرغ! لا تصرخن أيتها النساء، ولا تتضاربن، فهناك ما يكفي الجميع.

كانت الحرارة قد أصبحت غير محتملة، والعرق يتصبب على الأعناق، والهيكل المصنوع بطريقة رقيقة يهتز أمام اندفاع الحشد ويرتفع صريره.

وشعر الأب ياناروس بالخوف من أن يتلفه الحشد، فقفز فوق مقعد صغير لينزع الأيقونة. وصاح وهو يرفعها بين ذراعيه:

- يا أبنائي، دقت الساعة. فلنتقدم باسم الله؟

وتعالت الصيحات من كل جانب:

- فلتتقدم العذراء أمامنا. وحيثما تقودنا نتبعها!

وصاح الأب ياناروس وهو يرفع الأيقونة الثقيلة إلى أعلى ما يستطيع:

- أفسحوا الطريق، أفسحوا الطريق يا أبنائي. دعوني أمر. أنا أشعر بالعذراء تجرني وراءها. فهي على عجل.

وسأل بعض الرجال العجائز:

- إلى أين تذهب؟

ذلك أن صوت البوق تردد في تلك اللحظة من ناحية المعسكر، فبدأ الخوف يوقظهم من نشوتهم المقدسة.

وأجاب الأب ياناروس وهو يترنح تحت ثقل العذراء:

- لست أنا الذي أقودها يا أبنائي، لكن هي التي تجرني. أقسم على ذلك. هي التي تجرني! فاتبعوني!

وخرج إلى عتبة الكنيسة. كانت الشمس قد انحدرت من السماء. وعادت سحب سوداء أخرى تكسو السماء، وقطرات كبيرة دافئة من المطر ترتطم بوجه سيدتنا. وإذ ذاك ازدادت القطرات التي تذرفها عينا العذراء، وبللت كل شفتيها وذقنها. ولم يعد القسيس يتساءل في ذلك الوقت عما إذا كان هذا البلل من الدموع أو من المطر أو مجرد وهم.. كان يشعر بقوة كبرى تفيض من الأيقونة وتسيطر على ذراعيه وركبتيه وكل جسمه. قوة خارقة! شعلة من الفتوة!

وهمس وهو يرسم علامة الصليب:

«ليغفر لي الله. أنا أؤمن تمامًا بأني لو بسطت ردائي الكهنوتي لاستطعت أن أطير! فماذا يكون هذا المعسكر أو القومندان أو الجنود والأنصار؟ ليسوا سوى أشياء تذروها الرياح!».

وعاد يمسك العذراء بذراعيها ليدير وجهها في اتجاه المعسكر. وخلفه يتقدم الحشد صاخبًا. واهتزت الأيقونة بين ذراعي العجوز. وجرى خمسة أو ستة من الشبان ليمسكوها بأيديهم. وأسرعوا إلى الأمام. لم يكونوا حقًا يرفعون العذراء لكنها كانت ترفعهم. ولحق بهم فتية آخرون ليأخذوا دورهم أيضًا. كانت القطرات تتصبب من سيدتنا، وهي تبتسم بوجهها المشقوق وتهتز كالبارجة الحربية على أمواج بحر من البشر يتخاطبون ليرفعوها..

وانفتحت أبواب البيوت، وخرجت النساء منفوشات الشعور. كن ينظرن إلى وجه العذراء مبللًا بالدموع، فيصرخن ويأخذن في البكاء هن أيضًا. والأولاد ذوو البطون المنتفخة المخضرَّة والسيقان العظمية يتسابقون ليلحقوا بالحشد وهم يقرعون الأرض بالعكاكيز.

كان هذا يومًا لطيفًا من أيام شهر أبريل. ذرفت السماء ماءها، وانتشرت على الصخور والأدغال والأرض قطرات في لون الذهب، وبدأت الظلال تزحف في بطء على أسفل الجبل، وانقشع السيل المنهمر،وفاحت رائحة الأرض المشبعة بالماء، وارتوى النبات.

وكانت سيدتنا تبرق بين أذرع الحشد كأنما استقر كل النور المتلاشي من السماء في تاجها الذهبي وفي خديها الشاحبين النحيفين. وإلى جانبها كان الأب ياناروس مكشوف الراس يدق الأرض بحذائه الثقيل وقد شمر رداءه وتوقف الزحف الحربي.

قال:

- اسمعوا صوتي. لقد أتينا لنتصالح، لا لنحارب. كفانا ما أريق من دم. فاحفظوا أيديكم نظيفة. رئيسنا ليس قط قومندانًا يحمل سيفًا كبيرًا خلف ظهره ويضع على صدره شريطين أو ثلاثة. رئيسنا العذراء مريم. إني أرفع يدي لأصيح: أيتها العذراء مريم، امنحي قلوبنا الرقة والسلام! وامنحيهما قلوب معارضينا أيضًا، وامنحيهما قلوب العالم! باسم ابنك المصلوب!

وقطعت خطابه صرخة متوحشة:

- أيها الخونة البلاشفة! سوف ترون!..

وانقض القومندان على الحشد كالمجنون، عظامه بارزة وشاربه كثيف وعيناه تمتلئان بنظرات قاتل. وجاء خلفه الجاويش ورجاله ثم مندراس تحيط به جماعته. أما الأعيان الثلاثة الآخرون، وهم الحاج وستاماتيس والأب تاسوس، فقد وقفوا لصق جدار المعسكر يتابعون المشهد من بعيد، ويرتعدون وجفونهم تتحرك.

وطرقع القومندان بسوطه وهو يلحق بالحشد في خطوتين اثنتين. كانت الرغوة تسيل من فمه:

- ماذا تريدون يا كومة الأقذار؟ إلى أين تذهبون من هنا؟ ولم يجب أحد. كل ما حدث أن العجائز الخمس نزعن تلفيعاتهن السوداء وأخذن يلوحن بها في الهواء.

وصاح القومندان مرة أخرى:

- ماذا تريدون؟ أجيبوا على السؤال الذي يوجه إليكم. أنت أيها القسيس، يا صوت الأنصار، هل أصبحت أخرس؟

الهدوء الذي يسبق العاصفة. لم تكن تسمع في ذلك الوقت سوى قرقعة الأدوات يحطها الرجال على الأرض: الفئوس والمعاول والمناجل والمذاري.

وشعر القومندان في ومضة سريعة بأن عقله يهتز، وأن كل ما يراه أمامه ليس سوى حلم أو كابوس. ما هذا البحر العارم من الجماجم الصفراء يزحف عليه ويحملق في وجهه بآلاف الثقوب

السوداء؟ وأدار رأسه فرأى خلفه الجاويش ورجاله متكئين في وضع الاستعداد والبنادق لصق خدودهم في انتظار إطلاق النار. وعاد قلبه إلى صدره.

وارتفع صوت الأب مندراس يسرسع:

- ما الذي يمنعك من تشغيلهم يا سيدي القومندان؟ لا بد من الضرب. اقتل القسيس! اسمع ما أقوله لك. اقتله. وبعد ذلك يتفرق الجميع كما تذر الرياح أوراق الخريف. يجب قتل الأفعى من رأسها.

وخرج الأب ياناروس من الحشد يصيح:

- المحبة، المحبة! يا ابني، نحن لم نحضر لنلحق بكم سوءًا، بل حضرنا لنحتفل بالصلح. فلا تقاومنا، لأننا نريد أن نكون إخوتك! لا تنشر الدم أمام العذراء وتحت عينيها!

وظهر على عتبة المعسكر فجأة جندي شاحب الوجه يضع نظارة على عينيه. وتوقف مشدوهًا يقول لنفسه: «كم هي حرفة كريهة! كم هي كريهة حرفة الحرب!» لم يطاوعه قلبه على اجتياز الباب. عادت إلى روحه حديقة عميقة، في زانتي، في جزيرته، بعيدًا جدًا في آخر العالم. كان ذلك في شهر أبريل والأشجار تزهر وهو يتنزه ويلعب الجيتار.. لكن فجأة اختفى كل شيء: الأشجار والأزهار والجيتار. كان الجاويش يعوي بصوت هائج:

- هيه، هناك! نيونيوس، ذو النظارة. ليس هذا وقت الحملقة في الغربان. احضر هنا بسرعة! وعاد الأب ياناروس يردد وهو يسير نحو القومندان مكشوف الرأس بلا سلاح، وذراعاه ممدودان كأنما يسأل الصدقة:

- المحبة! المحبة!

وعوى القومندان رافعًا يده:

- النار!

وارتفع صفير الطلقات تمر فوق رؤوس الحشد. كان الجنود قد خجلوا من إطلاق النار على أناس عزل من السلاح. لكن القومندان أصيب بالجنون. أخذ يصرخ وهو يطلق مسدسه في المليان:

- أريد أن تمزقوهم جميعًا!

وكان ستليانوس النساج يسير في المقدمة إلى جانب الأب ياناروس، فتلقى الرصاصة في جبهته وسقط منكفئًا على وجهه. كان قد قاسى الكثير خلال حياته، وها هو الآن يفلت منها.

رجل منتفخ الجسم، له مظهر أنثوي ويدان لينتان وصوت ألدغ كصوت القسيس. كانت زوجته الراحلة- لاليمونيا- أجمل فتاة في القرية وأمهر نساجة. لولا أنها فقط، وليغفر لها الله، كانت تحب أن تسلي نفسها. فكانت ديوك المنطقة كلها تجري خلفها. وفي أحد الأيام وجد صديقه الحداد أن الأمور زادت عن الحد، فقال له: «يا ستليانوس، إنهم لا يعترفون بوجودك. كل كباش المنطقة تجري وراء امرأتك. اطردها!» وأجابه النساج: «هل تظنني مجنونًا؟» كل الناس يريدونها وأنا

وحدي أحصل عليها، ثم تطلب مني أن أتركها؟» لكن في صباح أحد الأيام، كانت تمشّط شعرها وتغني أمام النافذة، فإذا بها تسقط ميتة. وإذ ذاك بدأ زوجها يمارس الحرفة، وينسج تلفيعات ومفارش وقمصانًا يحملها ليبيعها في القرى. والآن ها هي طلقة رصاص تدخل في جبهته، وبعد ذلك لن يكمل نسج قمصانه الأخيرة.

وصرخ الجاويش الروميلي بأعلى صوته هو أيضًا:

- اضربوا في المليان!

هو رجل طيب هادئ، لا يحب بوجه عام أن يؤذي أحدًا. لكن عندما يرى الدم يسيل، يفقد رأسه ويتحول إلى وحش، سواء بدافع الخوف أو لسبب آخر. وهمس من جديد الجندي ذو النظارة، نيونيوس:

«كم هي كريهة حرفة الحرب». واهتزت البندقية في يده. «لقد خلقت أنا للجيتار لا لهذه البندقية اللعينة.» أما الجنود الآخرون فقد اشتعلوا حماسًا، واندفعوا في الحشد كما أمروهم، وخلفهم مندراس وأبناؤه، يحملون أيضًا بنادق أخذوها من المعسكر.

وارتفع الأنين. فقد سقطت على الأرض خمسة أو ستة أجساد.

وفتح المنادي كرياكوس فمه ليصيح: «الصلح!».

لكن رصاصة أصابته في حلقه وانفجر الدم غزيرًا على القميص الأبيض الذي ارتداه بمناسبة العيد. وسقط معقود الذراعين على مجموعة من النساء كن يبكين الجرحى. وكرياكوس ضخم سمين، له فم واسع يصل ما بين أذنيه، وشعر منفوش قذر ينزل على كتفيه. كانت نفسه قد امتلأت بالرغبة في أن يصبح قسيسًا، فأرسل شعره. لكنه لم يغسله أبدًا، لأنهم أقنعوه بأن القذارة تغذيه. والآن ضاعت القذارة بلا جدوى.

ورأى ديمتريس، خفير قرية براستوفا، كرياكوس يسقط فصرخ بصوت يشبه خوار الثور. فهو ابن عم كرياكوس. ثم إن هذا كان قد وعده بأن يجعله قواسًا حين يصبح هو قسيسًا. فمهنة الخفير مهنة مرهقة» أصابت ساقيه بالمرض. لكن ها هو يفقد صديقه، فيفقد كل أمل في إصلاح حياته. وأفقده ذلك صوابه، فسحب مسدسه وأطلقه على أبناء مندراس الذين وجدهم بالمصادفة أمامه. وتلقى الرصاصة أصغرهم بافليس. أصابته في قلبه تمامًا فلم تترك له لحظة واحدة يقول فيها: آه! وانزلق جسده إلى الأرض في هدوء شديد وبلا صوت. كان قد اشترى في الأيام الأخيرة فرسًا سوداء في جبينها غرة بيضاء. فهو يحب فتاة اسمها كريسولا، ابنة أخت الأب ستاماتيس. كان يتبختر بفرسه أمام منزلها.

ولكي يرضيها، أرسل شعره حتى حاجبيه معقوصًا أسود اللون. وفي هذا الصباح نفسه، أخذ يلف ويدور أمام نافذتها. فأطلت الفتاة، ورأت الشارع خاليًا، فألقت إليه بعود قرنفل كانت قد سحبته من فوق قبر المسيح في الكنيسة. والتقطه الشاب في الهواء ووضعه خلف أذنه.

وظل عود القرنفل خلف أذنه وهو يرقد على الأرض وعيناه في شكل الزجاج.

كان الليل يهبط، فهرب ضوء النهار إلى قمة الجبل، وقفز بعد ذلك إلى السماء ثم اختفى. ولم تعد تبرق في ظلال الغسق سوى العيون المتوحشة في وجوه أهل القرى.

وأعمت الدموع عيني الأب ياناروس. كان يجري نحو الجنود حينًأ، ونحو رجاله حينًا آخر، يتضرع ويتوسل: «لا دماء، لا دماءَ» لكن الشياطين كانت قد انفلتت. والدم يجر الدم. والآن أصبح الجنود والفلاحون يتحاربون جسدًا بجسد. حتى النساء تسلحن بقطع الحجارة ليصرعن بها الخصوم.

وعاد القومندان يصدر أوامره:

- أطلقوا النار!

وأخذ يصوب مسدسه نحو الأب ياناروس الذي أصابته في ذقنه قطعة حجر خضَّبت لحيته بالدم. لكنه لم يجد الوقت ليطلق الرصاص، فقد انقض عليه أندرياس، وتدحرج الاثنان على الأرض.

وزمجر الحداد وهو يسحقه بكل ثقله:

- يا جزار! الدور الآن للحملان. سأذبحك.

واستجمع القومندان كل قواه يحاول أن يخلص نفسه، لكن أندرياس أمسك به من رقبته ورفع سكينه إلى أعلى. وترددت صرخة حادة وارتمت على القومندان امرأة تغطي جسمه كانت تضع على شعرها شريطًا أحمر معقودًا. وأخذت تتمتم وهي تبكي:

- عزيزي سوفكليس، عزيزي سوفكليس!

وكان أندرياس مندفعًا بكل قفزته فلم يستطع أن يسحب سكينه، فانغرس في قلب المرأة البائسة. وتدحرجت على الأرض عندي قدمي القومندان. وحركت شفتيها في اختلاجة أخيرة، واستطاعت أن تقبل حذاءه، ثم أسلمت الروح.

وصاح من ناحية الجنود واحد منهم يقول:

- القومندان قتل! ألقوا السلاح!

كان هذا هو ستراتيس الذي قذف بندقيته بعيدًا. لكن الجاويش أسرع لينتزع القومندان من يدي أندرياس، وكان قد عاد يمسك به.

وتضارب الاثنان في هياج شديد. وكان الدم يسيل من وجه القومندان وذراعه. وكسرت ركبته عندما تلقى عليها قطعة حجر كبيرة، فلم يعد يستطيع أن يقف.

وارتمى الأب ياناروس ليأخذه بين ذراعيه. وصاح وهو يغطيه بجسمه:

- أنا مسئول عنه!

ووصلت ثورة الحشد إلى ذروتها، وفاضت كالنهر الهادر فحطمت الحواجز الأخيرة. واستطاعت الفئوس والمعاول والمناجل أن تحاصر الجنود الذين استمروا في المقاومة، وأن تدفع مندراس ومجموعته إلى التقهقر إلى جدار المعسكر وأن توقف حركتهم.

واستقرت العذراء على عتبة المعسكر يحملها رجلان عجوزان وكان وجهها يتجه نحو المتقاتلين وعيناها في بصيص الضوء تبرقان كأنما تمتلئان بالدموع حقًا. وصاح الأب ياناروس في مندراس:

- سلم نفسك يا مندراس. لقد سالت دماء كثيرة. والله شهيد على أني لم أكن أريد هذا.

وأخذ الأب مندراس ينوح ويمسح عينيه قائلًا:

- أنت قتلت ابني بافليس، أيها الغراب اللعين!

ولم يستطع أن يقول أكثر من ذلك، وانفجر باكيًا.

داهمتهم موجة كبيرة. هزمتهم وأسرتهم ونقلتهم جميعًا إلى فناء المعسكر. الجنود والأعيان في كومة واحدة. وتقدم الأب ياناروس من القومندان وأنهضه وأحضر له ماء وغسل جروحه وأرقده في أحد أركان الفناء.

وقال له:

- لا تتألم يا عزيزي القومندان سينتهي كل شيء على ما يرام. بعون الله إن ما حدث قد حدث لكن شقاءنا قد انتهى.

والتفت نحو رجاله قائلًا:

- أحضروا حبالًا واربطوهم. لكن لا تضربوهم. إنهم إخوتنا. هم لا يزالون ينكرون ذلك، لكننا ندركه. اربطوهم كي لا يتمكنوا من عرقلة الصلح. وأخيرًا بعد ذلك، سنطلق سراحهم خلال هذا المساء.

أقسم بالروح التي سأعيدها إلى خالقها. سنطلق سراحهم جميعًا. أقسم على ذلك.

ورفع القومندان رأسه التي ينزف منها الدم، وصرخ:

- يا خائن!

وبصق عليه.

وقال الحداد وهو يشد الرباط حول الأعيان والجنود:

- ما دمتم لا تريدون أن تكونوا أحرارًا برضائكم، فسنجعلكم أحرارًا رغم أنوفكم.

مرة أخرى، تصدرت سيدتنا العذراء موكب السير وخلفها الشعب الثائر. كان الليل قد أرخى سدوله تمامًا، وتدلت النجوم الأولى من السماء. وسار الأب ياناروس وقلبه يدق مفعمًا بالسرور والراحة، يقول لنفسه:

«هل يأتيني هذا السرور وهذه الراحة من حديثي مع الرب أم من نشاطي مع البشر؟ اغفر لي يا رب. بل هما نتيجة نشاطي مع البشر. هذه هي الصلاة الحقيقية. فلست أشعر مع الرب إلا بالتمرد والخوف».

وتذكر هؤلاء الذين سقطوا، فتنهد وهمس: «لا أعراس بدون ذبائح. فليمنحهم الله الراحة!».

ودخل الأب ياناروس الكنيسة. وشعر بقلبه يقفز من صدره. ها قد بدأ يتحقق ذلك الحلم الذي داعبه منذ وقت طويل. سوف ترى كاستللوس الإخوة المتصالحين يتعانقون. والمسيح سيقوم بالطريقة الوحيدة التي يتمنى حقًا أن يقوم بها: في قلب الإنسان. وتصور الأب ياناروس نفسه بالفعل يرحل في الفجر، غدًا. وتصور جولته في القرى المجاورة واحدة بعد أخرى، يحادث القساوسة والأعيان والشعب، ويحكي لهم ما فعلوه هنا في كاستللوس، وكيف أصبح كل شيء هادئًا. وكيف أن طريق الحب أفضل.

وقال لنفسه:

«سأتحول إلى منادي الله. أليس هذا ما فعله القديس يوحنا في الصحراء؟ كان ينادي، وينادي. وبكل رقة بدأت الصخور تسمع. نبتت لها آذان. واهتزت وعانق بعضها بعضًا، ونشأت فيها كنيسة المسيح».

واستدار إلى أيقونة المخلص على يمين الهيكل:

- اغفر لي يا رب. في إحدى اللحظات فقدت شجاعتي. فلست سوى إنسان كما تعلم. إنسان من طين وهواء. في البدء اعتقدت أنك لا تهتم بالبشر، وأنك تنظر بعين اللامبالاة إلى الظلم والاندفاع. إذ كان يكفي أن ترفع أصبعًا صغيرًا فتنقذنا، لكنك لم ترفعه. ثم بعد ذلك- ويا للأسى يا إلهي- انغمست أكثر فأكثر في الخطيئة. فالألم كان يضلني، اغفر لي. أما الآن، فأنا أفهم. أنت خير. أنت تترك الناس يذهبون حتى عتبة الجحيم، لأنه هناك يوجد الخلاص. فربما من عتبة الجحيم ينفتح باب الفردوس؟ ألم توفق بيننا في هذا المساء، في نفس اللحظة التي كانت المذبحة ستنتشر فيها؟

وشعر بصدره ينتفخ حلاوة، والطريق ينفتح أمامه، والجناحان ينبتان في كتفيه. واستعاد سنواته العشرين. وانحنى على صورة المسيح المصلوب يقبله على المائدة المقدسة. وقال يخاطبه:

- يا رب. أنت تعلم أني لم أطلب منك أبدًا أن تؤجل موتي، لكني اليوم أطلب منك هذه المكرمة. دعني أعش لأتم عملي، وبعد ذلك أرسل لي قطعة حجر أو طائرًا يأخذ حياتي...

واستولى عليه انفعال الفرح وهو يتوقف أمام باب الهيكل قائلًا:

- يا أبنائي، اصبروا. في هذه الساعة يهبط إخوتنا من الجبل. وسوف نحتفل معهم بالقيامة. لقد سكت المدفع- صوت الشيطان- سقطت الروح الشريرة في الهاوية، وانتصر الرب. وسوف ترون القيامة التي سنحتفل بها كيف تكون! الشموع ستضاء من نفسها، والمسيح يخرج بنفسه من القبر. وفي القبة فوق رؤوسنا سوف يبتسم خالق الأشياء. ماذا قلت لكم؟ ألا تصدقونني؟ إن روح الإنسان قادرة على كل شيء، لأنها لفحة من أنفاس الرب. قادرة على كل شيء، وحرة. طريقان مفتوحان أمامنا: المذبحة والحب. والله تركنا أحرارًا نختار. فاتخذنا طريق الحب. ورضى الرب. ألا تشعرون جميعًا في نفوسكم بالرب ينتفض سعادة؟ هذه هي إشارته إلى ابنه: «اتخذ البشر الطريق السليم وأدركوا النور، فانهض يا ابني الوحيد من قبرك!».

وفجأة تردد من ناحية الجبل أثناء كلام العجوز صوت وقع أقدام ثقيلة، وأحجار تتدحرج، وطبلة تقترب وتدق بنغمة فرحة سريعة.

وصاح بعض الفلاحين الذين جاءوا يعلنون الخبر وهم يلهثون:

- ها هم يصلون! ها هم يصلون! فليساعدنا الله!

واستدار كل أهل القرى نحو الباب، وأخذت كل القلوب تدق بعنف في كل الصدور.

كان الأب ياناروس قد ارتدى رداء كهنوتيًا خاصًا مطرزًا يحتفظ به للأعياد الكبيرة، ولف البطرشيل حول رقبته، ووقف أمام باب الهيكل ينتظر وقد احمر خداه فرحًا وأضاء وجهه. يقول لنفسه: «ها هي قبلة السلام!».

وأخذ رجال البيريه الأحمر يهبطون ويقفزون فوق الصخور وينزلقون على قطع الحجارة، يضحكون ويقفزون بكل ما فيهم من قوة. كانوا يشبهون قطيعًا من الذئاب، تبرق عيونهم في الظلام.

وارتفع صوت منهم:

- هيه أيها الفتية. حتى متى جانينا وسالونيكا وأثينا؟

وتردد صوت مسرسع لشاب مراهق:

- وروما وباريس ولندن! لا تنسوا أيها الفتية أننا لم نمسك سوى بداية الجبل.

كان الكابتن دراكوس يهبط معهم، ويشعر في نفسه باضطراب شديد. روحه تقفز بين صدغيه كما تقفز الفريسة التي تمزقها الكلاب. لم يكن يستطيع أن يطرد من ذاكرته الكلمات التي تبادلها مع الضابط لوكاس. وقال لنفسه:

«لو كنت خبيثًا لما تكلمت. لكني ولدت في بيت مكشوف. أتكلم وأترك الكلمات تسقط مطرًا. فرأسي لم توضع في المكان الصحيح بين كتفي. وأشعر أن الناس سيقولون في يوم من الأيام: «هذا الكابتن المسكين أصابه شيء ما، فليأخذ الله روحه!». لو كنت خبيثًا لما تكلمت. أما الآن فيجب أن

أستسلم أو أن أرفع رايتي الخاصة. لكن السكوت عار، والاستسلام عبودية. ثم إنني لست من القوة بحيث أدخل في شقاق معهم. فكل الطرق مسدودة في وجهي».

كان لوكاس يمتلئ سمًا، ويمشي إلى جانبه، لا يتوقف عن الكلا. يطلقون عليه اسم «القزعة» وهو نحيل الجسم خبيث. لكن عندما تدق ساعة القتال، يلف جبهته بمنديل أحمر، ويمسك بين أسنانه سكينًا ويندفع إلى المعمعة دون أن يلتفت قط خلفه ليرى من يتبعه. ثم يعود من الاشتباك وقد أصبحت عيناه وروحه وملابسه تقطر كلها دمًا. والآن، ها هو يمشي إلى جانب الكابتن وأسنانه تصر غضبًا. كان الاثنان مشتبكين في مشاجرة حادة، يتكلمان بصوت منخفض حتى لا يسمعهما الرفاق. لكن كلماتهما كانت أشد نفاذًا من الخناجر. قال لوكاس بصوت يصفر بين أسنانه:

- يدهشني يا عزيزي الكابتن كيف دخلت الحزب. فالحزب يتطلب أن يطيع الإنسان دون أن يوجه أسئلة.

وأجاب الكابتن بلهجة تفيض مرارة:

- أنا لا أوافق على أن أحرر الآخرين دون أن أكون أنا حرًا. واجبنا أن نحمل العدالة ثم الحرية. وهذ ما فعلته في كل القرى التي مررت عليها. لا أستطيع أن أتأمل الظلم في سكوت. فأنا أبدأ دائمًا بإرساء النظام والعدالة.

- لكن الشيوعي الحقيقي يحتفظ بإيمانه حتى أمام الظلم، إنه يقبل الظلم بل يفضله، إذا كان هذا الظلم مفيدًا لمخططاتنا. فكل ما يعجل بالنصر النهائي يكون حسنًا.

ورد عليه الكابتن ثائرًا:

- هذا ما سيؤدي إلى خسارتنا! هل الغاية تبرر الوسائل؟ هل نقبل الظلم إذا كان يؤدي إلى الحرية؟ هذا شيء يحطم القلب. لكن صدقني إننا بهذه الأساليب نخرب الأيديولوجية. لقد بدأت أفهم الأمر منذ فترة. فالوسائل التي نستخدمها تلوث الغاية التي تقترحها. ذلك لأن الغاية ليست ثمرة ناضجة تتدلى معلقة في نهاية الطريق تنتظر حضورنا لنقطفها. لا، وألف مرة لا! الغاية ثمرة تنضج مع كل فعل من أفعالنا، وتكتسب طعمها من كل فعل من هذه الأفعال. والطريق الذي نختاره يعطي هذه الثمرة جمالها وشكلها ومذاقها، ويملأها بالعسل أو بالسم. معنى ذلك أنه إذا استمر سيرنا في الاتجاه الذي سرنا فيه، فقل علينا السلام، وعلى الحزب السلام. أقولها لك بلا مواربة، وتستطيع أن تنقلها لمن تشاء إذا كان في ذلك ما يرضيك. لن يستطيع أحد أن يغير فكرتي. لأنهم يستطيعون تصفيتي في أي وقت. ولن أكون أول من يتقرر تنزيله من المسئولية لأنه قال رأيه بحرية. وقد قلت لك مرارًا وتكرارًا إن الموت لا يخيفني.

ومد يده يبرم شاربه، وقال مزمجرًا:

- إني لم أشعر بالخوف من الحياة، فكيف تتوقعون أن أخاف من الموت؟

ونظر إليه لوكاس بطرف عينه ساخرًا:

- لقد دخلت الحزب وقلبك يمتلئ بالأفاعي. فالمكافح الحقيقي لا يوجه أسئلة، لكن يكافح. أنت تسمي ما تقوله أسئلة، لكني أسميه أفاعٍ. توجيه الأسئلة والمناقشة وإصدار القرارات، هذه مهمة القادة. أما نحن فنتلقى التكليفات وننفذها. بهذه الطريقة نكسب الحرب. في أحد الأيام سألوا أحد الشيوعيين الروس: «هل قرأت ماركس؟ فأجاب: لا! الأمر لا يحتاج إلى هذه المشقة، فقد قرأه لينين». هل فهمت يا عزيزي الكابتن؟... لهذا السبب انتصرت الثورة البلشفية.

ونظر الكابتن إلى ضابطه نظرة جانبية وانتفخ صدره:

- لا أظن أنك ستبدأ في القيام بدور المدرس؟ هيه؟ إن ما أعرفه أنا، هو أن الطاعة العمياء تصنع عبيدًا.

وقال القزعة وهو يسرسع ساخرًا:

- هل تريد أن تخلق حزبًا مقسمًا؟

- ربما. سوف نرى.

- وما هي وسائلك؟

- وسائلي هي ما أملك التصرف فيه.

وشد الضابط على قبضتيه، وقدحت عيناه شررًا:

- من المستحيل أن تكون محل ثقة يا كابتن دراكوس. هذه ليست المرة الأولى التي ترفع فيها رأسك. فقد قمت في أحد الأيام بتقييد قائد السفينة التي تعمل بها بالسلاسل الحديدية، وأمسكت بالدفة بدلًا منه.

- وبذلك أنقذت المركب. فالقائد كان مخمورًا فاقد الوعي وكان سيقودنا إلى الغرق.

- ومنذ ذلك الوقت، بالغت في قوتك. ولكن هذه المرة يا عزيزي الكابتن، سيجعلونك تقيء دمًا.

- أنا لم أبالغ في قوتي. لكني تعلمت أن أتحمل مسئولياتي وألا أخشى أي تهديد.

وارتفع الهياج الشديد إلى عينيه حتى أصبح يرى الأشياء أمامه في لون أحمر، وزمجر قائلًا بصوت منخفض:

- أنت تهددني؟ أنت تنظر إليَّ وتضحك في كمك وتتخيل أنني لا أعرف آخر الأخبار؟ لقد حضرت الداعرة ونقلت لك الرسالة. لكنك تستطيع أن تبذل محاولاتك المستمرة لتحلق لي شاربي، ولن تستطيع أن تلمس هذه الأشرطة.

وسحب الضابط من حزامه سكينًا بيد سوداء وقال:

- فلنسرع في السير يا عزيزي الكابتن، فمن الممكن أن يسمعنا الآخرون.

وسار الاثنان بخفة ليبتعدا مسافة كبيرة عن الجنود. وفجأة زمجر دراكوس وهو يمسك ذراع رفيقه:

- اخفض مخالبك! إن ساعتي لم تأت بعد. أنا أعرف أنني إذا لم أقتلك على الفور، فسوف تفتك بي في أول فرصة. لكن...

- لكن ماذا؟ هل أنت خائف؟

- لكني أفكر في كاستللوس. فلنأخذ أولًا كاستللوس - يا سيادة الكابتن- ثم ننهي بعد ذلك محادثتنا الصغيرة.

واستخرج كيس الطباق أعطى منه حفنة لرفيقه قائلًا:

- لدينا متسع من الوقت. لف لنفسك سيجارة.

ولحق بهما الرفاق. وأمسك الكابتن دراكوس بذراع ضابطه في ود وهو يهمس في أذنه:

- هكذا يجب أن يرونا. كل واحد منا يحفر القبر للآخر، لكن هؤلاء الشباب شعلات صافية، فيجب ألا نكشف لهم أمورنا الحقيرة. فإذا كان لا بد من إنقاذ العالم، فسوف يتم هذا بفضلهم هم. أما إذا ضاع، فسوف يكون هذا خطأنا نحن الرؤساء.

ولم يرد لوكاس، لكن عينه كانت تلمع ببريق قاتل. وأخذ الطباق وبدأ يلف سيجارة بحركات بطيئة.

أصبح لون السماء مشربًا ببياض اللبن. وبدأت نجمة الصباح تحتضر في النور وعلى وجهها ابتسامة حزينة للصخور المهجورة. وظهر أول الصقور يتشبث بمنتصف السماء لا يتحرك، ينتظر الشمس لتدفئ جناحيه. وخلال الفجر الوردي المنتعش، بدأ الجرس يقرع ليعلن عيد القيامة. ودخل الرفاق القرية وهم ينشدون.

كان النشيد يخرج من صدورهم المغطاة بالشعر الكثيف، ويتدحرج هابطًا إلى الأزقة المنحدرة، رنانًا ثقيلًا، كأنه ضابط يلبس الحذاء العسكري الكبير ويحمل أشرطة الرصاص ويفتل شاربه. واستدار الحشد إليهم. وانفتحت أبواب الكنيسة. ونزل الأب يانـاروس من باب الهيكل، يتقدم في خشوع نحو الساحة الممتدة أمام المدخل، ويرفع على ذراعيه حامل الإنجيل ذا الوزن الثقيل المصنوع من الفضة.

وأخيرًا، ومع الخيوط الأولى للفجر، ظهر الأنصار في أطراف الأزقة يحملون البنادق على أكتافهم. كانوا قد توقفوا على الأناشيد، وأخذوا يتقدمون إذ ذاك على أطراف أقدامهم وينظرون فيما حولهم بعناية. لم يكونوا قد اطمأنوا بعد. وأهل القرى بدأوا بدافع القلق يخرجون من الكنيسة. فهم أيضًا لم يكونوا مطمئنين. وعندما رأوا البنادق تلمع في ضوء الشفق، أصابهم الخوف. وأخذت عيونهم تتجه أحيانًا إلى القسيس الذي أدخل هؤلاء الذئاب إلى القرية، وأحيانًا إلى الضيوف المتوحشين الهابطين من الجبل فصائل عديدة تملأ الآن كاستللوس وتغزو الكنيسة.

وتباعد الأنصار من أمام شيء ضخم، فعرف الناس الكابتن الرهيب. ورفع يده قائلًا:

- تحياتي.

وأجاب الأب يانـاروس وهو يقدم له الإنجيل ليقبله:

- مبارك هذا الذي يأتي باسم الرب!

لكن الكابتن استدار نحو الحشد وارتفع صوته يرن صداه تحت قبة الكنيسة:

- تحياتي لكم أيها الفلاحون. يسعدني أن عيونكم تفتحت للحقيقة. لقد جئنا نحمل النظام والعدالة. ثم بعد ذلك، ستحصلون على الحرية أيضًا.

فقال الأب يانـاروس وهو يكتم قلقه:

- ثم بعد ذلك؟ ما معنى «ثم بعد ذلك» يا عزيزي الكابتن؟

وأخذ الكابتن يكرر وعيناه تشتعلان:

- يجب أن نبدأ بالنظام والعدالة. فالحرية قد تلعب برؤوسكم. فهي خمر تدير الرؤوس، ولا تصلح لكل الناس. أنا سوف أقرر بنفسي..

وهمس العجوز وهو ينظر خلسة إلى المسيح على الهيكل: «فليكن الرب في عوننا...» ثم عض شفتيه، واستطاع أن يتمالك نفسه وهو يقول:

- إن الرب هو الذي يملك أن يقرر. وفيه نضع ثقتنا.

وتضاحك الكابتن:

- لقد خلعنا الرب من على عرشه، ألم تبلغك هذه الأخبار بعد يا أب ياناروس؟ لقد كانوا يلقون على كاهله كل شيء، عادلًا كان أو ظالمًا. لكن عندما تربع الإنسان مكان الرب على عرشه، أصبحنا من ذلك الوقت مسئولين. وعندما نأخذ الحكم، نأخذ على عاتقنا أيضًا الخير والشر.

وزمجر الأب ياناروس بصوت مكتوم. كان على وشك أن يستنزل اللعنة الصاعقة على هذا الدب الكافر، لكنه خاف على القرية فابتلع غضبه. وقال لنفسه: «ليست هذه سوى كلمات، وضعوها في أفواههم، وهم يرددونها ليثيروا الذعر فينا. لكن الرب يعمل في أعماق قلوبهم دون أن يدركوا. فلتصبر إذن».

ثم قال:

- يا ابني. لندخل ونحتفل بالسر المقدس ونتبادل قبلة السلام. لتنزل السكينة على نفسك أنت أيضًا يا كابتن دراكوس.

ودخلوا الكنيسة، وبدأ الأب ياناروس يؤدي قداس القيامة. لم يكن صوته أبدًا مفعمًا بالانفعال إلى هذه الدرجة، ولم يدق قلبه أبدًا بهذه الشدة، كأنما المسيح قام حقًا في داخله فانفتح صدره ليدعه يمر. وظهر له المسيح في معنى جديد. هو نفسه أصبح المصلوب. الميت الذي ينهض فجأة ويطلق صرخة عظيمة.

وفتح الأب ياناروس الإنجيل وخرج إلى الفناء. وسار خلفه الأنصار ثم الفلاحون يمسكون بالشموع في أيديهم. وصعد فوق المقعد الحجري، ونفخ صدره وكتفيه ليقرأ النص المقدس للقيامة بأقوى صوت. وفي شكله هذا، يلبس الحرير والبطرشيل المطرز بالذهب وصدره منفوخ ورقبته ممدودة، كان يشبه ديكًا ذهبيًا وقف في حظيرة الدجاج يصيح ليطلع الشمس.

ومد كل المؤمنين شموعهم منتظرين أن يقفزوا ليشعلوها من شمعة عيد الفصح التي يحملها الأب ياناروس.

ومد القسيس يده على الإنجيل المفتوح دون أن ينظر إليه. فقد كان يعرفه عن ظهر قلب. وأخذ ينطق بصوت يرن بالانتصار ويتردد صداه في جو الصباح: «وفي أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية..».

وسعل الكابتن. والتفت الأب ياناروس ليلقي عليه نظرة سريعة، فاستولى عليه الذعر. رآه يقف جامدًا لا يلين وسط الفناء، يحيط به رفاقه، وعلى وجهه البرونزي ابتسامة منتصرة. وهمس الأب ياناروس: «فليساعدنا الله!». واستجمع كل قواه وأخذ يرتل بصوت مفعم بمشاعر الندم والنذير، ترتيلة القيامة: «المسيح قام من الأموات..».

واندفع الحشد ليشعل الشموع. واستدار الكابتن نحو الرفاق الذين أحاطوا به، وأعطاهم عدة أوامر بصوت منخفض. فأمسك عشرة من الأنصار بالبنادق في قبضات أيديهم، وعبروا البوابة بسرعة. وارتعد الحشد، واستشعروا مصيبة في الأفق ولكن الأب ياناروس مد لهم يديه قائلًا:

- يجب أن أتكلم معكم. فابقوا.

وتردد الحشد وسيطر عليه القلق. وكتم الأنصار أنفاسهم. والتفت الكابتن إلى الأب ياناروس قائلًا:

- تكلم باختصار. لدينا عمل يجب أن نقوم به.

ووقف الأب ياناروس على المصطبة الحجرية وفتح ذراعيه إلى أقصى ما يستطيع، كأنما يريد أن يحتضن فيهما كل شعبه المؤمن المحتشد، وأن يحتضن كاستللوس واليونان كله. وانبثق الصوت من صدره كأنه نبع من السرور. قال:

- يا أبنائي. أربعون عامًا مضت وأنا أقيم المسيح. لم أشعر أبدًا بمثل هذا السرور. ولم أشعر بالقيامة أكثر شمولًا. قيامة اللحم والعظام والروح. أدركت لأول مرة أن المسيح واليونان وروح الإنسان، ليسوا سوى شيء واحد. فعندما نقول: المسيح قام، يكون معنى ذلك: اليونان قامت، والروح قامت. بالأمس، على هذا الجبل، كان الإخوة يذبحون بعضهم، والصخور ترن باللعان والأنين. أما الآن، فانظروا! تصالح الحمر والسود. وها هم يسمعون معًا صرخة المجدلية: المسيح قام! هذا هو معنى القيامة، وهذا هو معنى المحبة. إني أنتظر هذه اللحظة منذ سنوات. وأخيرًا جاءت. فالشكر لاسم الرب في الأعالي! يا كابتن! عيون الشعب ثابتة عليك. وكاستللوس معلقة بشفتيك. فقل لنا كلمة سلام في هذه الساعة الرهيبة.

ورفع الكابتن يده قائلًا:

- عودوا إلى منازلكم. اجروا!

وزمجر الأب ياناروس:

- هل هذه كلمة السلام التي تقولها يا كابتن؟ هل هكذا تفهم قيامة المسيح؟ هل هذا هو الصلح الذي وعدتني به؟

- هذا هو. أنا قلت النظام والعدل أولًا. ثم لا يزال يوجد هنا أعداء للأيديولوجية. وقد أرسلت من يبحث عنهم. فاغربوا عن وجهي جميعًا. يجب أن أبقى لأقرر الأمر مع رفاقي.

واندفع الحشد نحو بوابة الكنيسة في هرج ومرج شديدين. وفي غمضة عين أصبح الفناء خاليًا.

وقال الأب ياناروس وهو يطوي البطرشيل:

- سأبقى معك يا كابتن.

كانت يداه ترتعدان من الغضب. وهز الكابتن كتفيه قائلًا وهو يضحك:

- ابق لتناولهم القربان قبل الموت!

ونظر إليه الأب ياناروس نظرة صاعقة، وقال بصوت أجش قاسٍ:

- يا كابتن دراكوس. لقد عقدنا نحن الاثنين اتفاقًا. ومن ناحيتي حافظت على كلمتي فسلمتك القرية. وأتى دورك أنت الآن. لقد دفعت نصيبي، فأصبحت أنت مدينًا لي، وأنا أطالبك بالسداد.

وأمسكه الضابط لوكاس من كتفه:

- هل تستطيع أن تقول لي أيها القسيس من الذين تمثلهم حتى تسمح لنفسك أن تخاطبنا هكذا مخاطبة الأنداد؟ من يقف خلفك؟

- يا صديقي الطيب. الرب يقف خلفي. ولهذا السبب أخاطبك بهذه اللهجة. الرب أمامي. الرب على يساري. الرب على يمين. الرب يحيط بي. وكل ما لديك من بنادق وسكاكين وتهديدات، لا يهز شعرة من رأسي.

وذهب يجلس وحيدًا على طرف المقعد الحجري. وتردد أثناء كلامهم صوت جلبة تختلط بالشتائم والتأوهات. وظهر على البوابة الأب مندراس جافًا غليظًا، ورقبته ممدودة كرقبة أبي قردان، يتبعه أبناؤه الثلاثة وأربعة من الخدم. ثم جاء بعده الأعيان الثلاثة العجائم: العم تاسوس والأب ستاماتيس والحاج. كانت وجوههم مصفرة وأحزمتهم مفكوكة وشفاههم مفتوحة مدلاة وعيونهم غائرة. وأتى خلف الأعيان الجاويش متروس يعرج ويجر رجليه. وخلف هؤلاء بقية الجنود بدون سلاح ممزقين تمامًا. وفي نهاية المجموعة، سار القومندان مغطى بالوحل والدم. كان قد قاوم إلى أقصى درجة عندما جاءوا يأخذونه، فأصابوه بالضربات حتى أصبح لا يستطيع أن يتماسك على قدميه. وانفتحت جروحه مرة أخرى. أمسك به اثنان من الأنصار يسندانه. لكنه لم يكد يصل إلى الفناء حتى انهار على الأرض.

وانتفض الكابتن دراكوس عندما رآه. واقترب منه في بطء وتأمله. كان الضوء يصل إلى قبة الكنيسة ثم يهبط في رقة ليملأ الفناء ويبعث البريق في الوجوه. وبين جنود الأنصار سقط الضوء على وجه شاحب ذي شفتين مضمومتين ورقبة عارية. كانت هذه زوجة القومندان.

وانحنى الكابتن على خصمه، ولم يشبع من النظر إليه. وأخيرًا فتح فمه قائلًا:

- هذا أنت؟ هذا أنت يا عزيزي القومندان؟ كيف استطعت أن تصل إلى هنا؟

والتفت إلى رفاقه يأمرهم:

- فكوا رباطه. أوقفوه. أنت؟ هذا أنت إذن؟ كم تقدمت بك السن، وكم أصبحت نحيفًا، وكم ابيض شعر رأسك!

وأخذ القومندان يعض شاربه مهتاجًا دون أن يجيب. كان الدم يسيل من حاجبه. وفي ساقه اليمنى رصاصة، لا بد أنها كسرت العظم، لأنها كانت تؤلمه. لكنه ظل يصر على أسنانه كي لا يصرخ، ويقول لنفسه: «لن أفقد ماء وجهي. سأموت واقفًا على قدمي. يا إلهي لا تتركني أسقط!».

الآن ولأول مرة شعر بالرب يأتي إلى روحه. قبل ذلك كانت روحه عمياء يحجب عينيها الشرف والوطن والانتقام والكراهية. والآن ها هو في أعمق أعماق اليأس يستعيد الطمأنينة الأبدية والسند الذي لا يهتز: الرب. لم يكن يعرف الابتسامة الهادئة منذ زمن طويل. لكنه رفع رأسه وابتسم.

ونظر إليه الكابتن بدهشة، وفي شفقة وخوف. لكم انهار هذا الرجل المشهور! لم يبق منه سوى عظم! هذا إذن هو البطل الصموت ذو الشوارب السوداء الذي ملأ اسمه الجبال؟ وقال لنفسه: «خسارة أن مثل هذه النفوس ليست معنا! كان يجب أن تكون كل الفضائل في معسكرنا، وكل الجبن في معسكر الآخرين. لكننا نضم معنا جبناء كثيرين، وعندهم هم أبطال كثيرون. أنا أعتقد تمامًا أن الله قد خلط أوراق اللعب، فلم يعد يمكن أن نعيد ترتيبها».

وسأله:

- هل تذكرني يا عزيزي القومندان؟ انظر لي جيدًا. هل تذكرني؟

ومسح القومندان الدم من على عينيه، وسرعان ما أشاح بوجهه دون كلمة.

- أثناء حرب ألبانيا كنت أخدم معك. كان لي إذ ذاك اسم آخر. كنت تحبني كثيرًا وتسميني القرصان. وكنت تستدعيني أنا دائمًا في المهمات الخطيرة وتقول لي: «هيا أيها القرصان، لنصنع معجزة أخرى» وعندما جرحت ساقاك وتركك الجميع تسقط، حملتك أنا على ظهري طوال خمس ساعات إلى المستشفى. وأمسكتني من رقبتي وقلت لي:

«لقد أنقذت حياتي.. أنا مدين لك بحياتي..» والآن دارت العجلة، وها نحن يذبح بعضنا بعضًا.

وانهارت ركبتا القومندان فسقط مرة أخرى على الأرض صامتًا.

واستأنف الكابتن حديثه بصوت مفعم بالحسرة:

- لماذا أخذت جانبهم يا عزيزي القومندان؟ أنت الرجل النقي، البطل، اليوناني! ألم تهرق دمك من أجل الحرية في ألبانيا؟ فلماذا خنتها الآن؟ لماذا تعلن الحرب عليها؟ تعال معنا. سأترك لك القيادة. وسأضع نفسي مرة أخرى تحت أوامرك لترسلني من جديد في المهام الخطيرة ونحارب معًا من جديد لكي نحرر شعبنا. ألا تأخذك الشفقة به؟ شعب عظيم كهذا يسير في طريق الهلاك! تعال معنا.

وصعد الدم في وجه القومندان الشاحب... وأخذته رغبة في أن يصيح: «يا خائن». لكنه عض على شفتيه ولم يجرؤ على الرد. كان متعجلًا أن يلقى حتفه ليخلص.

وأخيرًا قال في همس:

- اقتلني، لكي أجد الخلاص.

ثم أضاف:

- لو كنت قد وقعت بين يدي أيها الخائن لقتلتك. أما الآن فقد وقعت أنا بين يديك، فاقتلني. ليس عندي جواب آخر أقوله لك.

وقال الكابتن بصوت مفعم بالشفقة والغضب:

- أنا أحترمك وأتحسر عليك. لكني سأقتلك.

فقال القومندان:

- هذا حسن.

وشد الكابتن قبضته واستدار إلى رفاقه يأمرهم:

- ضعوهم لصق الحائط جميعًا! هل تستطيع يا عزيزي القومندان أن تقف على قدميك؟

فأجاب وهو يستجمع كل قواه ليحاول النهوض:

- نعم.

وتداعت ركبتاه فسقط مرة أخرى على الأرض. وجرى نحوه اثنان من الأنصار ليسنداه لكنه دفعهما في غضب وهو يزمجر:

- لا تلمساني. سوف أنهض وحدي.

وتشبث بالجدار، واستجمع قواه واستطاع أخيرًا أن يقف على قدميه. كان يتصبب عرقًا ويبدو شاحبًا في لون قطعة النقود الصفراء. ونظر حوله. رأى الأنصار يجلسون القرفصاء أرضًا على بلاط الكنيسة. وفي وسط المصطبة، جلس الكابتن بجوار ضابطه. وفي طرفها جلس الأب ياناروس. وفي الطرف الآخر.. وتجمد الدم في عروقه، وأظلمت عيناه. انطلق في دماغه بريق أسود يمزقه. عرف المرأة الجالسة في طرف المصطبة. امرأته هو. فقد كان له في الماضي امرأة.. خمسة عشر عامًا من السعادة مرت كالبرق! خيل إليه أن كل شيء حدث بالأمس فقط. كان الاثنان يصعدان معًا هضبة روميليا ذات الانحدار الشديد. ووقفت أمه العجوز على عتبة الباب، تتحلى بأجمل الحلي. الحلي التي لبستها يوم زفافها، ثم ألبسوها إياها على سرير الموت. وبدأ الزوجان يبكيان هما أيضًا. فقد كانا صغيرين وكان الوقت ربيعًا والأرض تتضوع عبيرًا. وكانت حمامة برية من نوع القطا تدق بجناحيها جوانب قفص مصنوع من أعواد الغاب، وتنظر إلى الزوجين الصغرين تهدل باكية كأنما تريد الزواج هي أيضًا. لكن زوجها كان هناك على الجبل، وبينهما هذه الحواجز المصنوعة من أعواد الغاب تحرمهما الالتقاء. وقالت الشابة:

«أمي. أسألك مكرمة. اسمحي لي أن أفتح هذا القفص».

وأجاب العجوز: «هو لك يا ابنتي. فافعلي به ما تشائين».

وفتحت الشابة القفص. وأمسكت في يدها أنثى القطا يلمع ريشها بألوان متغيرة. وتحسست مخالبها ذات اللون المرجاني وعينيها البرية الحلوة وصدرها المنتفخ. وفجأة، قذفت يدها في الهواء وأطلقتها قائلة:

«اذهبي، فأنت حرة!».

وانطفأ البريق في رأس الزوج الذي كان شابًا في الماضي. وعاد يشعر بجسده يرتكن على الجدار.

وارتفع صوت الكابتن يأمر:

- ضعوهم في صف واحد!

أخذ الأعيان الثلاثة العجائز يبكون، وقد امتلأت لحاهم باللعاب والدموع. وتهامس الجنود ونظروا نحو البوابة. كان الأب مندراس يمر من أمام الأب ياناروس، فقال له وهو يبصق عليه:

- أيها الخائن القذر؟

ونهض الأب ياناروس واقترب من الحائط الذي اصطف عليه الجميع على جانبي القومندان. كان قلبه يرتعد، لكنه تماسك وقال هامسًا:

«الآن شرفك في خطر يا أب ياناروس. يجب أن تلعب جولتك الأخيرة» وشعر إلى جانبه بالحضور الإلهي الخفي، فاستعاد شجاعته.

«اصنع معجزة يا إلهي. النجدة! كيف تريد مني أن أقف أنا وحدي في مواجهة العالم كله! وعلى من أعتمد؟ على الهواء؟ على الناس؟ لا تسمع كلامي حين أزعم أني أعمل وحدي. فليست هذه سوى ادعاءات رجل إمعة. فأنا أحتاج إلى أن أعتمد عليك أيها المسيح كي أحارب. أحتاج إلى أن أشعر بجسدك ينعشني في حرارة الصيف وبالحرارة تخرج من أنفك في برودة الشتاء. أنا أحتاج إلى أن ألمسك بيدي!».

وصاح:

- لا تخافوا أبدًا يا أبنائي. الكابتن لم يحضر إلى القرية ليأخذ بالثأر، بل ليحتفل بالصلح. إنه رجل وجندي يوناني، وقد أعطى كلمته ألا يضطهد أحدًا. كلمة شرف! اطمئنوا. إنه يريد فقط أن يخيفكم قليلًا. وأنتم تستحقون ذلك، لأنكم حاولتم أن تعارضوا السلام. هذا مجرد تذنيب لكم، وسيطلق سراحكم بعد ذلك. ألم يحضر ليحمل لنا الحرية؟ أنا أضمن ذلك، أنا الأب ياناروس. فلا تخشوا شيئًا.

وحدجه مندراس العجوز بنظرة تقطر سمًا:

- عليك اللعنة يا يهوذا. هل تظن إذن أن لهم كلمة شرف أيها المغفل؟

وألقى الكابتن سيجارته وسحقها بكعب حذائه. والتفت نحو القومندان وأصحابه وقال:

- يا عزيزي القومندان. لقد تصرفت كرجل. خسرت كاستللوس لكنك لم تخسر شرفك. وأنتم أيها الآخرون حاربتم ضدنا، وما أكثر من قتلتم من فتيتنا. هكذا كانت الحرب. وأنا على استعداد للعفو. أنا أمد لكم يدي في هذه اللحظة، فأنصتوا: هؤلاء الذين يقررون أن يأتوا معنا ويضعوا على

رؤوسهم البيريه الأحمر ويحاربوا من أجل الحرية، سنقول لهم مرحبًا. وسأعتق حياتهم. وهؤلاء الذين يرفضون، سيقتلون رميًا بالرصاص.

والتفت نحو مندراس العجوز قائلًا:

- أما أنت يا مندراس، أيها الرأسمالي الذي لا قلب له، فقد جعلت من هذه القرية عزبتك وامتصصت دم الشعب. أنا لا أريدك وسوف تعدم. وتفرَّس مندراس العجوز في الكابتن بعينيه الصغيرتين شبه المغمضتين:

- أنا أنجبت أبناء وأحفادًا، وأكلت لقمتي، وأتممت ساعتي. فلن تستطيع أن تخيفني يا قرصان. شيء واحد فقط يحرق قلبي... (واستدار نحو الأب ياناروس)... هو أنني لن أجد الوقت لأعلقك حيًا أيها الغراب.

ثم استدار نحو أبنائه قائلًا:

- أمامكم الشرف والعار. اختاروا، فأنتم أحرار.

وأخيرًا اتجه بالكلام إلى خدمه فقال لهم:

- لستم سوى شغالين. فاذهبوا معهم أيها الشياطين المساكين لتنقذوا رقابكم.

ومزق قميصه وكشف صدره المغطَّى بالشعر الأحمر قائلًا:

- أنا مستعد.

كان الأب ياناروس يشد لحيته وينصت ولا يصدق أذنيه. «هل هذه هي الحرية التي أحضرها لنا؟ تخضع، فتكون حرًا؟ وتقاوم، فتضرب بالرصاص؟ لا. لو تجرأوا على انتهاك كلمتهم، سأقوم صائحًا حتى يضعوني لصق الحائط أنا أيضًا. قم يا أب ياناروس، رجال البيريه الأحمر والبيريه الأسود يعلنون الحرب عليك. ولا يريدونك. فلا تندم على شيء. تريد أن تكون حرًا؟ إذن ادفع الثمن. فالحرية غالية الثمن جدًا».

وأغلق الجاويش ميتروس عينيه واستعاد صورة بيته الصغير في الوادي الضيق، وفي فنائه ترتفع شجرة الجوز... وتحت شجرة الجوز، زوجته الشابة مارو تلبس جوربًا ريفيًا وسروالًا مطرزًا وزحافًا أحمر. تجلس في ظل الشجرة وتفك صدرها لتعطي ثديها لابنها الرضيع. وعيناها الذابلتان تسألان السماء: «أيتها الطيور المهاجرة، كيف أصبح حبيبي ولماذا لم يعد؟ النعاج ولدت، فمن يحلبها؟ وأشجار الكروم أثمرت وأعواد الذرة ارتفعت. وولدي الصغير يهز معصميه لينادي أباه... فلماذا لا يعود؟ والليالي طويلة جدًا، ولست أحب أن أنام وحدي».

وفتح عينيه.

كان الكابتن أمامه. فكر في نفسه: «ليتني أستطيع أن أجد ترتيبًا ما فأعود إلى قريتي، لكن دون أن أفقد شرفي!».

ثم قال بصوت لين خجول:

- ألا تريد أن تتركني يا سيدي الكابتن أعود إلى قريتي، في روميليا؟ لن أعود إلى الحرب، فأنا لم أخلق للقتل. أنا...

- ميتروس!

وأجاب ميتروس متلعثمًا:

- تحت أمرك يا سيدي القومندان!

- ألا تخجل؟ تعال إلى جانبي.

وأجاب الجاويش:

- ها أنذا يا سيدي القومندان.

وفي غمضة عين اختفى كل شيء. الجبل وشجرة الجوز والزوجة الشابة والطفل.

وابتعد خدم مندراس الثلاثة عن الحائط قائلين:

- سنأتي معكم، فالروح حلوة.

واستدار مندراس العجوز ليبصق، لكنه لم يتكلم.

وغادر الحائط الأعيان الثلاثة يرتعدون. العم تاسوس، والأب ستاماتيس، والحاج. وتقدم الحاج، وهو أكبر الشيوخ سنًا، يسأل في صوت يبكي:

- هل ستترك لنا أموالنا؟ودفعهم الكابتن إلى الخلف وهو يزأر:

- لا مساومة! ماذا تتوقعون أن أفعل بكم يا بقايا الحطام؟ هيا، التصقوا بالحائط!

وتردد الجندي فاسوس، النحيف ذو العينين الصغيرتين الحزينتين والقدمين الكبيرتين اللتين تنتشر فيهما العقد. كان يترنح في يأس، يقدم رجلًا ويؤخر رجلًا، دون أن يصل إلى قرار حاسم. منذ لحظات فقط تلقى من شقيقاته الأربع رسالة، فامتلأ قلبه مرة أخرى بالمرارة. تنهد وتقدم خطوة إلى الأمام وتكلم:

- يا سيدي الكابتن. إن لي أربع شقيقات ينتظرن الزواج، فلا تقتلني.

- هل تأتي معنا؟

وابتلع فاسوس لعابه بصعوبة، ثم قال:

- نعم.

وترك الحائط ثلاثة جنود آخرون من السبعة على رأسهم ستراتيس، وقالوا:

- أيها الكابتن، كنا دائمًا معك. كنتم بنادقنا في كاستللوس لكن قلوبنا كانت تدق على الجبل. سنأتي معك.

ووقف مع بقية الجنود على الجدار الغلام ذو المنظار والمظهر الرقيق، نيونيوس زانتيس، وقال:

- يا كابتن أنا لن آتي معك. ليس ذلك لأنني لا أحب الحياة، بل لأنه يخجلني أن أخضع للعنف. اقتلني إذن.

- لو كان لديك حياء حقًا لأتيت معنا. فيا خسارة شبابك.

وأجاب زانتيس الأرستقراطي قائلًا في هدوء وهو يعود لصق الحائط:

- الكرامة البشرية تمنعني من الخضوع للعنف.

وتنهد ميلتوس أصغر أبناء مندراس. أخذ ينظر حينًا إلى أبيه، وحينًا آخر إلى البوابة والكابتن. وا أسفاه! إنه لم يخلق طائرًا ليطير من هنا! كان في الخامسة والعشرين من عمره لا يزال أعزب لكن كل فتيات القرية رهن إشارته. يحب الخمر، ويعرف العزف على الجيتار. وفي كل يوم أحد كان يضع خلف أذنه زهرة أقحوان صفراء ويجري إلى أماكن اللهو، تتدلى على جبهته خصلة شعر جميلة، وخداه متوردان ممتلئان أخذ ميلتوس يتنهد. كانت روحه تحلق بعض الوقت في الحانات والفتيات، ثم تطير إلى الوطن والشرف والأبطال الذين يضحون بحياتهم ويكسبون الخلود. وفقد المسكين صوابه تمامًا فلم يعد يعرف ماذا يجب أن يفعل.

كان الكابتن ينتصب أمامه. قال:

- والآن إذن؟ هل قررت؟ يجب أن تنتهي.

وطأطأ الولد رأسه وقد احمر وجهه وظهرت خلف أذنه بقية عود ريحان كان قد أخذه بالأمس من إحدى الفتيات قال وهو يترك الحائط:

- أنا آت معك يا سيدي الكابتن.

وخفض مندراس العجوز رأسه، لكنه لم يتكلم وصرخ فيه شقيقاه وهما يبصقان:

- لتذهب إلى الجحيم!

واقترب الكابتن من القومندان. وفكر وهو ينظر إليه دون أن يتكلم:

«كيف يمكن التأثير فيه؟ كيف يمكن التأثير فيه؟ إني لا أملك عليه شيئًا ما دام لا يخشى الموت!».

ونظر الكابتن إلى رفاقه الذين اصطفوا في انتظار أوامره وبنادقهم على استعداد. وسأل وهو يرفع يده ليعطي الإشارة:

- وضع الاستعداد؟

كان الأب ياناروس مستندًا إلى الجدار يتابع المشهد وقلبه يتمزق، ويشعر بأن يد «الشيء» الذي لا يرى ترتعد في يده. قال في رقة:

«لماذا ترتعد؟ هل تخاف أنت أيضًا؟ هل تخاف من أجلي؟ تشجع إذن أيها الرب!».

كان الكابتن سيعطي الإشارة عندما نهض الأب يانـاروس فجأة واقترب منه في بطء بخطوات ثقيلة كأنما زاد عمره في لحظة واحدة على المائة عام. كان قلبه قد تجمد وشعر فوق كتفيه بثقل لا يمكن احتماله. وخطا بصعوبة خطوتين، ثم ثلاث خطوات، وتوقف أمام الكابتن لم يكن يدري ماذا يقول له. جف حلقه واختنق وأخيرًا استطاع أن يفتح شفتيه.

قال وكل جسده يرتعد:

- هل ستقتلهم؟

واستدار الكابتن ونظر إليه.

كان وجه القسيس قد أصبح شديد البياض وفمه ملتويًا وأنفاسه لاهثة كأنها حشرجة وعاد العجوز يسأل بصوت أجش محطم:

- هل ستقتلهم؟

- نعم مثلهم مثل كل من يقفون حجر عثرة في طريق الحرية.

وأجاب الأب يانـاروس:

- الذين يقفون حجر عثرة في طريق الحرية هم أمثالك الذين يحرمون الآخرين من الاحتفاظ برأيهم. أين الكلمة التي أعطيتنيها؟ هل هذه هي الحرية التي أحضرتها؟

وقال الكابتن ثائرًا:

- لا تحشر نفسك في شئون هذه الدنيا أيها العجوز!

- الحياة الدنيا والحياة الآخرة ليسا سوى شيء واحد. من يكسب أو يخسر الدنيا، يكسب أو يخسر الآخرة أيضًا. إني أبسط يدي على هؤلاء المسيحيين الذين وضعتهم لصق الحائط وأقول لك: لن تقتلهم! أنا الأب يانـاروس لن أدعك تفعل ذلك.

- اسمع يا أبانا وحب السماء! الآن لو تركنا كل الناس أحرارًا، فسوف نضيع. سيختفي الشعب. وتظهر الحثالة. فلا تتعجل الأمور إذن. الحرية ستأتي في دورها. تأتي دائمًا في النهاية.

- إذن يحيا الطغيان! يحيا الطغيان والعنف والسوط!

- اخرس وإلا وضعتك لصق الحائط مع الآخرين.

- بل أنا وضعت نفسي فعلًا أيها الرجل الطيب، منذ اللحظة التي لمحت فيها الحقيقة. وها أنذا أنتظر طلقة الرصاص. مرحبًا بها!.

وكان الضابط الملازم خلال هذا الوقت كله ينتظر وهو يحترق. لكنه لم يعد يستطيع أن يمسك نفسه. فقفز وقبض على رقبة العجوز:

- كف عن الصياح وإلا لويت عنقك أيها الغراب. هل تعتقد أنني سأعطي احترامًا لثوبك الأسود؟

وأجاب الأبياناروس:

- تهديداتك لن تؤثر في نفسي يا صاحب البيريه الأحمر. الموت لا يخيف إلا الكافرين. أما أنا فأؤمن بالله ولا أخاف الموت. بل إنني حفرت قبري منذ زمن- هناك أمامك- ونقشت على لوحته: «أيها الموت، لا أخشاك!».

وزمجر الضابط:

- سأقتلك يا لحية التيس، فاصمت!

وأسرع خمسة أو ستة من الأنصار يلتفون حول العجوز:

- اقتلني إذا كان هذا يرضيك. معك البنادق، وأنت تعتقد أن معك الحق، فاقتلني. تستطيع أن تقتل آخر رجل حر، أما الحرية فلا تستطيع أن تقتلها. رقبتي ستتحول إلى مزمار يرتفع منه نشيد الحرية. نعم، نعم، لا تضحك. سيرتفع النشيد في الصحراء وشيئًا فشيئًا تتحول كل قصبة في البراري إلى مزمار يغني معي.

وتقدم نحو الحائط ووقف أمام الكابتن.؟ فصاح هذا وهو يعوي:

- انسحب من الحائط. لا تكلمني. أغلق هذا إذا لم تكن تريد أن نغلقه لك.

- مكاني هنا. لقد خدعتني، وأنا خدعت القرية حين سلمتها لك. فبأي وجه أستطيع أن أقابل الناس؟ أنا متعجل كي أحضر أمام الرب لأروي له ألمي، ولألتمس العذر لك أنت وأصحابك أيها المضلل. أنت الذي تزعم أنك تعيد بناء العالم، عن طريق الجوع والعبودية والكذب.

وصاح الكابتن وهو يأخذه في ذراعيه لينتزعه من الحائط:

- يا أب ياناروس. لست أريد أن أجعل منك شهيدًا مقدسًا لتتابعني صورتك.

وقال العجوز:

- إذا تركتني حيًا فسوف أصيح. وإذا قتلتني فسوف أصيح أيضًا. إنك لن تتخلص مني..

في تلك اللحظة سقطت عليه أشعة الشمس في بدء إشراقها، فظهرت لحيته كلها في لون الورد.

وشعر الأب ياناروس مرة أخرى بيد الشيء الذي لا يرى ترتعد في يده، فصاح غاضبًا يقول لنفسه:

«أنت تخاف الآن في هذا الوقت العصيب؟ هيا، تشجع. أحرى بك أن تساعدني على إنقاذهم. أنت تنسى أنك لست فقط «المصلوب» لكنك أيضًا «القائم من الموت». والعالم لم يعد يحتاج إلى الرب المصلوب، بل يحتاج إلى رب الجيوش. حسبك آلامًا ودموعًا وصلبًا، فانهض وأنزل إلى الدنيا كتائب الملائكة تحمل إلينا العدل. كفى ما أصابنا من تحقير وضرب بالسياط ووضع أكاليل

الشوك فوق الرؤوس وقتل على الصليب. جاءت الساعة لنقوم من الموت. نحن نريد الدينونة الأخيرة فورًا، ها هنا على الأرض. فانهض!».

لكن صوتًا عميقًا باكيًا ارتفع من جذور ضلوعه يقول: «لا أستطيع..» فأرخى الأب ياناروس يديه في شعور بالعجز: «أنت لا تستطيع؟ أنت تريد ولا تستطيع؟ أنت طيب وعادل وتحب الناس وتريد أن تحمل إليهم في هذا العالم المحبة والعدل والحرية، لكنك لا تستطيع؟».

وأظلمت عينا الأب ياناروس وهمس قائلًا:

«وا أسفاه. فالحرية ليست قادرة على كل شيء. وليست خالدة. إنها بنت الإنسان، تحتاج إلى الإنسان..».

وامتلأت نفسه بمرارة شديدة تختلط بنوع من الرقة والعطف. لم يشعر أبدًا أبدًا بأنه أحب المسيح كما أحبه تلك اللحظة. وهمس: «يا ابني..»، وأغمض عينيه.

واستدار الكابتن لينظر إليه. رأى دموع أبيه تسيل على خديه حتى لحيته.. كان يعرف أنها ليست دموع خوف. فهذا القسيس يسترخص حياته لكنه كان يبكي كل الناس، الأعداء والأصدقاء، السود والحمر. وبينما الكابتن ينظر إلى دموع العجوز تسيل، شعر بريح دافئة تهب عليه لا يعرف من أين. ريح العطف. أحس في قلبه بالشفقة على هؤلاء الرجال الاثنى عشر الذين ينتظرون على الجدار كلمة أو إشارة تتوقف عليها حياتهم. ماذا يفعل؟ ما هو أقصر الطرق إلى النصر؟ أن يقتل ليستأصل الكراهية، أم أن يفعل مثل أبيه فيهزم الكراهية بالمحبة؟ وكاد يقول للمحكوم عليهم: «سأحفظ كلمتي وأحمل لكم الحرية. أنتم أحرار!» لكن نظراته التقت بنظرات لوكاس يحدق فيه بعينين تملأهما السخرية. وهب في داخل صدره شيطان دموي غامض، فرفع يده يعوي بصوت لم يكن صوته:

- أطلقوا النار!

وزمجرت البنادق وسقطت على بلاط الكنيسة اثنتا عشرة جثة. وتقلصت جثة القومندان كالسمكة مرتين أو ثلاثًا، ثم تدحرجت إلى قدمي زوجته فدفعتها المرأة بطرف حذائها.

وأطلق الأب ياناروس صرخة. واهتز عقله لحظة. أراد أن يعود إلى الكنيسة، لكن كل شيء كان يتراقص حوله. القرية والجبل واليونان.

وجر نفسه في هدوء وسط الجثث. وغمس يده في الدم ومسحه في لحيته فأصبحت حمراء تمامًا. ثم اغترف في راحة يده دمًا أراقه على رأسه وهو يقول منتخبًا:

- دمكم! ليقع دمكم على رأسي يا أبنائي! أنا الذي قتلتكم!

وأحاط به الأنصار يضحكون.

ودخل الكنيسة وانحنى على المذبح. رأى قطعة الحجر الملطخة بالدم موضوعة بجانب صورة المسيح المصلوب وقبَّلها. دم من هذا؟ واحد من البيريه الأحمر أم من البيريه الأسود؟ لم يسأل نفسه

عن ذلك. كان قد التقط قطعة من الحجر هذه من فوق الجبل بعد المعارك الأولى مباشرة، ووضعها على المذبح ليقبلها قبل كل قداس.

وخلع البطرشيل ولف الإنجيل ووضعه تحت ذراعه، ثم تناول عصاه من أحد الأركان ورسم علامة الصليب. وشعر بقلبه ينفتح، وتتدفق منه أمواج لا تنتهي من المحبة، تهبط إلى كاستللوس وتغمر سهول اليونان وشواطئها. وكان يشعر بصدره يزداد خفة كلما تدفقت منه المحبة. قال لنفسه:

«من يدري؟ ربما يكون المسيح قد أوكلني أنا- خادمه الحقير- بهذه المهمة الثقيلة. فلتتحقق إرادته!».

واستدار إلى يمينه قائلًا للشيء الذي لا يرى:

- تعال. لنرحل!

وخرج من الكنيسة ووقف وسط الفناء، وصاح:

- إني ذاهب. سأفعل ما قلت، سأذهب من قرية لقرية أصيح:

«يا إخوتي. لا تصدقوا الحمر ولا تصدقوا السود، لكن تصالحوا أنتم!» فلابد لكل قرية من مجنون. وسأصبح أنا هذا المجنون. مجنون اليونان الذي يصيح.».

كان العجوز يشع بريقًا في ضوء الصباح، وينتصب كالعملاق وسط فناء الكنيسة ولحيته مخضبة بالدم وحاجباه منفوشان والمسامير بارزة من عصاه وحذائه.

واستدار نحو الكابتن:

- إني أحمل معي البطرشيل والإنجيل أيها الكافر. بل أنا أصحب معي أيضًا أيها القاتل فرق الموتى وكل الأمهات الثكالى وكل اليتامى ومشوهي الحرب ومعي ذوو الأرجل العرجاء والعظام الملتوية والمشلولون والمجانين. كل هؤلاء يأتون معي.

وسأل الضابط في غيظ:

- لماذا تتركه يا عزيزي الكابتن؟ اقتله.

وهز الأب يانيروس كتفيه في احتقار:

- هل تعتقد إذن أني أخاف الموت؟ ماذا يملك أن يصنع بي أنا الشيخ العجوز؟ يخلصني من هذا العالم الزائف ليذهب بي إلى الخلود. هذا كل ما يستطيع أن يفعله ذلك المسكين. فالموت ليس سوى بغل يحملنا إلى الحياة الأبدية.

ورفع يديه نحو السماء صائحًا:

- لو بقيت على قيد الحياة، لو تركني هؤلاء حيًا، أقسم ألا أصلبك أبدًا. لن أتركك أبدًا أيها الرب في أيدي عنيا وقيافا. لقد قلت: «أنا أحمل سيفًا». فأين هو؟ حتى متى تظل تصلب؟ يكفي

هذا. تسلح واهبط إلى الأرض. لقد فهمت أخيرًا واجب الإنسان، بعد كثير من الآلام والدماء. أيتها الفضيلة تسلحي. أيها المسيح تسلح. إني سأعلن الإنجيل الجديد في كل مكان. إنجيل السلاح.

ومد يده اليمنى إلى الشيء الذي لا يرى قائلًا:

- تعال.

كان الأنصار ينظرون إليه في ذهول، وبعضهم يضحكون ويقولون:

- القسيس أصيب بالجنون. مع من يتكلم؟ لمن يقول: تعال؟

ورفع الأب ياناروس يده نحو الكابتن:

- إلى اللقاء أيها السفاح!

ثم اجتاز العتبة بخطوات ثابتة، ولم يتحرك أحد. فنظر الضابط إلى الكابتن نظرة ساخرة قائلًا:

- إنه سيشعل النار في كل مكان. هل ستتركه يفعل ذلك؟ هل هذه مصادفة أن تشفق عليه؟

ونظر الكابتن إلى العجوز يبتعد ويدق حجارة الطريق بعكازته. كان يتقدم بخطوات واسعة وثوبه الكهنوتي يطير مع الريح وعلى كتفيه يهتز شعره الطويل الذي أطلقه.

وسار في طريق براستوفا صاعدًا بسرعة وقطع الحجارة تتفكك تحت حذائه الثقيل. ولمعت شمس الصباح عل البطرشيل المطرز بالذهب وحامل الإنجيل الفضي تحت ذراعه.

وكان دم الموتى الذي دعك به رأسه يسيل خيوطًا رفيعة على عنقه البرونزي.

ونظر إليه الكابتن. وعادت روحه إلى بعيد جدًا. إلى قرية على شاطئ البحر الأسود. قرية امتلأت بالسلام وبالمسيحيين الطيبين وبالخضرة. كان العجوز في ذلك الوقت قسيسًا شابًا متحمسًا أسود الشعر، يواجه الأتراك مواجهة الند، ويدافع بقوة عن المسيح والمسيحية. وكلما جاء عيد القديس الذي يحفظ القرية في راحة يده، كان القسيس يدخل في لهب النار ويمكث فيه طويلًا، يرقص ويدق بيديه.

كم كان في ذلك الوقت يكرهه، وكم كان يحبه، وكم كان يفخر به!

وأخيرًا بعد ذلك، قطع علاقته به. واختفى كل من الأب والابن عن نظر الآخر. لكنهما بعد سنوات عديدة التقيا مرة أخرى، أثناء الحرب الألبانية.

ما أعجبه وهو يشمر للناس رداءه الكهنوتي ليتسلق الجبال ويدعو السيدة العذراء! وكلما ناداها، رآها الجنود تظهر بالفعل وتذرع الصخور لترفع الجرحى بين ذراعيها. فذلك العجوز كان إذا أراد شيئًا، يجعله ماديًا متجسدًا في الهواء. لأنه كان يؤمن بما يريد، ويعني وينتزع روحه من جسمه لكي يصبح العذراء أحيانًا، وأحيانًا أخرى الفارس القديس جورج، وأحيانًا يتحول إلى صوت عظيم يثير ثائرة الجنود قائلًا: «المسيح منتصر!».

وصل الأب ياناروس إذ ذاك إلى ارتفاع كبير، وكاد ينعطف نحو براستوفا.

كانت أشعة الشمس لا تزال شديدة الميل، فاستطال ظله عملاقًا على الحصى الأحمر. وقفز لوكاس الضابط إلى الطريق ورفع بندقيته صائحًا:

- على مسئوليتي يا كابتن. هل لأنه أبوك؟ من الأفضل أن تسيطر على نفسك. فهناك ما يجب أن تقدم الحساب عنه. ألم تسمعه؟ يقول إنه يريد أن يكون حرًا.

وسمع الأب ياناروس خلفه قعقعة البندقية تعد لإطلاق النار. وفهم. فأمسك المسيح بيده ووضعه أمام صدره حتى لا تصل إليه طلقة الرصاص قائلًا في رقة وهدوء:

- تعال يا ابني. تعال. فيجب ألا يجرحوك.

وذهب اثنان أو ثلاثة من الأنصار يقفون إلى جانب لوكاس مستعدين لإطلاق النار، ينظرون في نفس الوقت إلى الكابتن، وكان يقف أمام بوابة الكنيسة.

وتدفق الدم في دماغه.

لم يتكلم.

كان يشعر بالتقدير نحو أبيه وهو يخطو بين الصخور ويتدحرج نحو السهل مسرعًا متوهجًا كأنه عملاق عجوز.

وقال لوكاس مرة أخرى:

- والآن يا سيدي الكابتن؟ أقول لك إنه سيشعل النار في كل مكان. إنك رغم كل شيء لن تتركه يفعل ذلك!

ثم أضاف متضاحكًا في خبث:

- إلا إذا كنت تشفق عليه!

وبدأت الدماء تغلي في عروق الكابتن. كان الرفاق جميعًا ينتظرون وعيونهم مثبتة عليه.

وتضاحك لوكاس مرة أخرى وهو يغمز بعينه للآخرين، ويقول من بين أسنانه:

- الآن بالذات، سوف ترى..

لكنه لم يتم عبارته. فقد رفع الكابتن يده قائلًا بصوت مخنوق:

- اقتلوه!

وصاح لوكاس:

- يا أب ياناروس، انتظر!

وسمع العجوز النداء فاستدار. وتوهجت في الشمس لحيته، حمراء بالدم.

وركز الضابط البندقية في كتفه. وأصابت الرصاصة الأب ياناروس في جبهته، ففتح ذراعيه دون أن يطلق صيحة. وسقط على ظهره فوق قطع الحجارة.

الفهرس

Notes

[←1]

اختلفت كتابة اسم كازانتزاكيس عند المترجمين فكانت كازنتزاكي أحيانًا حتى استقرت على كازانتزاكيس.

[←2]

عرفت هذه الرواية في ترجمتها العربية بعنوان «المسيح يصلب من جديد» لشوقي جلال.

[←3]

يشير كازنتزاكي في هذا النص إلى إنجيل يوحنا، إصحاح 1، آية 13 لكن الجملة الأولى وهي «سأرسل لكم معزيًا» غير موجودة في هذا المكان في التراجم العربية والإنجليزية والفرنسية من الإنجيل، وإن كان النص يتضمن معناها. وفي إصحاح 14، آية 16 و26 نجد ما يلي: «أنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيًا آخر..» و «أما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلتُه لكم».. والمعزي كلمة غير دقيقة في الترجمة العربية للعهد الجديد، ومعناها: الذي يحمل الهم والضيق عن الناس، أي مفرج الكرب. (المترجم).

[←4]

ظلت اليونان خاضعة للاحتلال العثماني حتى بدأت منذ عام ١٧٧٠ انتفاضات التحرر هناك، ووصلت إلى قمتها في ثورة ١٨٢١ كان الوالي العثماني يطلق على الثوار اليونانيين اسم المتمردين وقطاع الطرق.

[←5]

في السطور التالية محاولة مستمدة من الأساطير اليونانية القديمة ترمز إلى تدهور اليونان خلال العصور السابقة، والأمل في أن نعود إليها بعد ذلك روحها الساحرة- هيلين - فيتجدد شبابها وتستعبد مجدها.

[←6]

أول بلد حافظت على التراث المسيحي في بدايته هي اليونان، حتى أن النسخة الأولى للكتاب المقدس التي ترجمت إلى اللغات الأخرى كانت باليونانية، بعد ضياع الأصل العبري. (المترجم).

[←7]

كازنتزاكس يشير هنا إلى الحرب التي خاضها الشعب اليوناني ضد العدوان البلغاري الألباني بعد الحرب العالمية الأولى. والمؤلف يقارن بين هذه الحرب الوطنية الناجحة، والحرب الأهلية المدمرة.